املي نصرالله

نساء رائدات

مِنَ الشرق ومِنَ الغرب



الجزء الأول



مؤسسة نوفل



نساء رائدات

من الشرق ومن الغرب

إملي نصرالله

نساء رائدات

من الشرق ومن الغرب

الجزء الأول

مؤسسة نوفل
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٩٨٦



© مؤسسة نوفل ش.م.م
بناية نوفل ـ شارع المعماري
تلفون ٣٥٤٨٩٨ ـ ٣٥٤٣٩٩ ، تلكس ٢٢٢٦١ نوفل
ص.ب ١١/٢١٦١ ، بيروت ، لبنان

تمهيد

هذه الفصول التي تقدّم ملامحَ من وجوه نساء رائدات، كُتبتْ على فترات متقطّعة، وكان القصد من اختيارها، تسليط الأضـواء، على صـراع المرأة، عبْـر الأزمنة والتواريخ. . صراعها مع نفسها، ومع محيطها، في سبيل إظهار طاقاتهـا، وتحقيق طموحاتها.

وقد نجحتْ، أحياناً، في بلوغ الغايـة، وتبليغ الـرسالـة، لكنّها فشلت في حالات كثيرة، بالوصول إلى السعادة الشخصية.

وإن الوجوه التي تشعّ من فوق الصفحات التاليـة، متألّقـة بألف لـونٍ من ألـوانِ العلم والفن والأدب والسياسـة، كانت في واقعهـا، تـطوي الضلوع عـلى آلام عميقة، هي جزء من ضريبة النجاح والشهرة، في بعض الأحيـان، أو ثمن الصراع القاسي لإرساء الجديد المجهول.

وإنه لصراعٌ مستمرٌّ اليوم، مثلما كـان بالأمس، فـالأبواب التي شُـرعت في وجـه المرأة العصـرية، كي تـواصل سعيهـا العلمي والعملي، ظلّتْ عـاجزة عن إطلاقها بعيداً عن قيودها وأغلالها التقليدية.

وبرغم كل التحرّكات النسائية الهادفة لتحرير المرأة، فإن الأكثرية الساحقة من النسـاء، لا تزال تجـري خلف الركب الـطليعي، دون أن تواكبـه. كـما أنها واقفة في الظلّ بعيدة عن مراكز القرار والسلطة. وهـذا ليس واقع المـرأة العربيـة

أو الشرقية، وحسب، بل إنه واقع المرأة حيثما كانت؛ تؤيد كلامي هذا، المؤتمرات والندوات الدولية، تُعقد باسمها ومن أجلها. كما يسعى منظّمو تلك المؤتمرات إلى إنصاف المرأة، وإدخالها خيمة العدالة الإنسانية.

وإذْ أقدّم إلى قرّاء العربية هذه النماذج المتغلّبة، المتفوّقة من النساء، أتوخّى أن تكون كل واحدة من رائدات الأمس مشعالاً هادياً وملهماً ينير دروب رائدات الغد.

أ. ن.

سميراميس

«إن أجل عودتي قد حان، فقلْ للكلدانيين
إن ربيبتكم وملكتكم قد استحالت الى أصلها...».



سميراميس، هل هي شخصية أسطورية، أم حقيقة تاريخية؟ . . .

هذا هو السؤال الذي حملته، وأنا أتابع بحثي عن قصة المرأة العظيمة: «شميرام سيدة قصر شمشيداد، ملك العالم، ملك بلد أشور، أم أداد نيراري، كنّة شلمناصر، ملك الأقطار الأربعة».

وكان من الصعب، فصل الأسطورة عن الحقيقة، لأن العظام، في التاريخ، تُحاط سيرهم بأخبار البطولات والمغامرات التي حدثت، في الواقع، إنما تضخّم، وتتحول، وهي تنتقل على الألسن، من جيل إلى جيل.

وإني، لا أدعّي، في رسم شخصية سميراميس، أن أقدم حقائق ثابتة، إنما، ما لمسته، من مطالعاتي عنها، جدير بأن يسجل، ويروى، بل ويصبح عبرة ومثالاً.

أحاول، أولاً، أن أشرح معنى اسمها، بل الأسماء التي عرفت بها، في مختلف الروايات.

من تلك الأسماء شميرام ويتألف من مقطعين شمي - رام ومعناه في اللغة الأرامية «الاسم الرفيع» وبالطبع، ما كان ليعطى إلا لسيدة رفيعة المقام.

وسميراميد الاسم الذي عرفها به الكاتب الفرنسي فولتير، حين وضع مسرحية أسطورية عن بابل سنة ١٨٢٣. وقد استلهم تلك المسرحية، فيما بعد، الفنان الايطالي روسيني، فألف حولها مغناة (أوبرا) تحمل العنوان نفسه.

وذكر سميراميس المؤرخون اليونان، قديماً، على أنها ملكة عراقية. كما اعتبرها، بعض المؤرخين الألمان شخصية خرافية، لكن علماء الآثار ـ الألمان ـ عثروا سنة ١٩٠٩ على تمثال شميرام في خرائب مدينة شرقاط. وهي أول عاصمة أشورية. وقد حفر على التمثال النص الذي أوردته في مقدمة كلامي عنها. كذلك نُسبت إلى سميراميس قصص وأخبار مشوهة، لن أذكرها، بل أتابع الخيط الذي يتواصل، مع سيرة البطلة التي نشأت وترعرعت في مدينة بابل، قبل أن يفتحها تغلت نينيب الأول بين العام (١٢٥٨ و ١٢٥٦ ق. م.) وهو ملك أشوري، خاض حروباً كثيرة، منها حربه ضد بختريانة وفتحه لعاصمتها بخترا. وقد ورد اسم شميرام وزوجها الأول قائد الجيش الأشوري كندلانو في تلك الحرب، كما اقترن اسمها، لاحقاً، باسم الملك تغلت نينيب الذي تزوجها بعد مصرع زوجها الأول.

* * *

وأعود إلى أسطورة ولادتها، إذ إن ظروف تلك الولادة، لم تعرف تاريخياً، لذا حاكت المخيلات، وأقلام الكتاب، أسطورة رائعة، تبدأ في أشقالون أو عسقلان من أعمال فلسطين، مدينة مولدها.

يقال أن ديونيس الإله اليوناني هام بحب آثر غاتيس، آلهة الحب والجمال، فلم تستجب له، وتحولت إلى سمكة بمساعدة آلهة المشرق الذين ضفروا جهودهم، لمساعدتها وإنقاذها، ثم دفعها إلى معاشرة أول فتى جميل، تصادفه في طريقها، حال خروجها من اللجة..

واشترط الالهة أن تحافظ آثرغاتيس على موعد عودتها إلى البحار، كي لا تتعرض لشر الانتقام.

وخرجت الفتاة ـ السمكة ـ في البساتين المحيطة بعسقلان، ولمحت فتى رائع الحسن، فتحوّلت إلى طائر، وبسطت ذراعيها حوله. ولما لاحظت الخوف الـذي اعتراه هدأت روعه بقولها: «أيها الفتى الحبيب، لست سوى فتاة كتب عليهـا ألا تحب سواك» وكان الفتى حائكاً، وفي طريقه إلى تصريف بضاعته، كي يعود بمال يبتاع به دواء لأمـه المريضـة. لكن حب آترغـاتيس أنساه نفسـه والمهمة التي من أجلها يسعى. وبقيا معاً، إلى أن حان موعد نزوح آترغاتيس إلى أرض شنعار في العـراق، ومنها تنتقـل إلى أريدو المـدينة الكلدانيـة الجميلة. وقـد احتـالت عـلى فتاها، فأوهمته بأن ألماً أصاب ظهرها، ولن تشفى منه، ما لم يحضر لها جلد الأنقليس كي تلصقه بظهرها.

وبالطبع، ذهب كي ينفذ أوامـرها، ولم يكن يعلم أن في ذلـك هلاكـه. أما هي، فقد كانت تعرف مصيره سلفاً، لكنه القدر الذي يسـطو عليها، ويقـودهما إلى المصير المحتوم. وتابعت رحلتها شـرقاً، واختـارت بقعة من الأرض كـالجنة، في سهول شنعار، فأقامت فيها بانتظار أن تلد. وقد وضعت طفلة رائعة الحسن، لفتها بقماش نقشت عليه رسوم الطيور، والأسمـاك والحيوانـات. وخطّت فـوقه بعض الطلاسم. وجعلت في عنق الطفلة، قـلادة تحتوي عـلى رقية تقيهـا الشر، وبينما هي منهمكة بإرضاعها، سمعت النداء المنتظر:

«آترغاتيس

يا حبيبة الآلهة،

إن أخاك ينتظرك عند تخوم أريدو. لقد انتهت مهمتك، وحلّ مـوعد رحيلك فاستعدي ولا تترددي».

أما دافع التردد فهو خـوفها عـلى مصير الـطفلة، إذا هي تركتهـا في العراء. لكن الصوت عاد يطمئنها بأن ابنتها ستكون في أمان. وقبل أن تنهي إرضاعهـا، أبصرت سبع حمامات ترف حولها، وتنتظر دورها، في تسلّم رعاية الطفلة.

تـركت الأم صغيرتهـا في سلة، والألم يأكـل حشاهـا. لكن مشهـد الحمـائم

البيضاء كان يضفي على شعورها بعض الطمأنينة.

وقد تولّت الحمائم رعاية الطفلة ثلاثة أيام إلى أن مرّ بها صدفة، سيمو، الراعي الملكي الكلداني. وسمع صراخ الطفلة، فتقدم نحو مصدر الصوت، ولما أبصرها، بادر إلى حملها، وعاد بها إلى المنزل، حيث وضعها في حضن زوجه برازيو. ولم يدر الزوجان أي الأسماء يختاران لها. وبعد تردد وحيرة قررا أن يسمياها شمي - رام - أي الاسم الرفيع.



تعلّق الزوجان بهذه العطية التي هبطت لتضفي على حياتهما الجافة، الرونق، والسعادة. وقدما لها كل ما أمكنهما من عاطفة، ورعاية. وكانت هي تنمو في الجمال والفطنة. ولما بلغت السن الرابعة عشرة، نشبت حرب طاحنة بين الأشوريين والكلدانيين. فخرجت شميرام خلسة إلى حيث تدور الحرب، وقبعت في مكمن، تراقب منه، وبكثير من الحماسة والشجاعة، سير المعركة. وظلت في مكانها، تصلي، وتستصرخ الآلهة كي ينتصر جيش بلادها. وبالفعل انتصرت جيوش كلدو على آشور، فأسرعت إلى البيت، كي تزف البشرى لأهلها وبني قومها. وكانت ترتدي زي الفتيان، فلم يعرفها أبواها، إلا بعدما نضت عنها ثياب التنكر، وراحت تقص عليهما حكاية مغامرتها، وهما يسمعانها، غير مصدقين.

وبعد مرور ثلاث أو أربع سنوات على هذه الواقعة، نشبت حرب جديدة حين طمع العيلاميون بالكلدانيين، وقرروا غزوهم. وفي هذه المرة، طلبت شميرام من أبويها أن يسمحا لها بالذهاب إلى حيث يدعوها الواجب. فقبلا، شرط أن يرافقاها، ولم يصدقا ما يبصران، حين ارتدت بزّة الفرسان، وغادرتهما، لتشارك في صد الغزاة. وشهدت مصرع الملك الكلداني، فقفزت إلى عربته، ورافقته وهي تضمد جراحه المميتة، بمنديل من الكتان الأبيض الثمين. وبينما كانت العربة الملكية متجهة إلى بابل، كانت شميرام تقف، بكل حماسة،

وتستحث الرجال على متابعة القتال.

وخرجت، فيما بعد، تشارك في حروب أخرى، ودائماً، في زي الرجال. وشهدت المعركة التي انتصر فيها الأشوريون على الكلدانيين، وفتحوا بابل وأخضعوها لسلطانهم.

* * *

كانت قد انقضت سنة على ذلك النصر، حين قرر القائد الأشوري كندلانو إقامة مهرجان يشترك فيه أفراد الشعب، وفي مقدمهم الفتيان والفتيات. وفي هذه المناسبة، لم تكن شميرام بحاجة إلى التنكر، خرجت بجمالها الفتان، وأنوثتها الطاغية، وجلست بين الفتيات، تعزف على المزهر، ولاحظ القائد تلك الصبية المميزة، فسأل من تكون؟... ثم بعث أحد معاونيه كي يحضرها إلى مقره.

ذعر الراعي سيمو حين جاء رسول القائد، ودعاه كي يرافقه بصحبة الفتاة. ولما مثل أمام القائد سأله هذا:

- هل علمت في حضرة من تقف، ولماذا أتيت إلى هنا؟

رد سيمو بصوت منخفض:

- نعم، يا سيدي.

قال القائد:

- شاهدت اليوم فتاة بابلية جميلة، وأنا أطمح لاتخاذها زوجة لي، فإذا تمنعتْ أو رفضت، اجعلها واحدة من خادمات القصر.

وأجابه سيمو:

- إنه لشرف عظيم لي، ولأهل بيتي. وها أنا رهن إشارة منك. وسوف يجد مولاي في شميرام الزوجة المخلصة الوفية.

بقي الكلام سراً بين الرجلين. وكان أهل بابل يعجبون من تردد الراعي على قصر القائد. ثم أبصروا، ذات يوم، المركبة الفخمة، والمخصصة للقائد، تجتاز الشارع وفيها الراعي، وزوجه وابنته.

وبعد مرور عدة أيام، زفت الراعية البابلية الرائعة الحسن، إلى بطل أشور القائد كندلانو.

وكانت شميرام ذات شخصية قوية، تميِّزها. ولم تلبث أن بدأت تؤثر بآرائها ونصائحها وذكائها، على زوجها. ولاحظ ذلك بعض أعوانه، فنقلوا الخبر إلى الملك، مشوّها، إذ اتهموا القائد بانقياده الأعمى إلى إرادة المرأة.

* * *

استدعى تغلت نينيب قائده، ليشرح له حقيقة ما يجري. فقدم هذا برفقة شميرام، التي لم تقف على الحياد، بل تدخلت، أثناء الحوار، لتشهد على بسالة زوجها، وحسن تدبيره للشؤون السياسية. وركزت على الأسلوب الذي انتهجه زوجها كي يقلب عداوة الكلدانيين التقليدية إلى مودة للملك والعرش الأشوري. وفي ذلك كل الحكمة.

كان الملك يستمع إليها، معجباً بذكائها، وبجمالها. فأبدى رضاه على قائده، واتفق معه على أن يعلنا حرباً يشترك فيها كلدو وأشور ضد البختريين، في الحال.

وكانت شميرام تصغي، ولم تقو على الصمت، بل عارضت الملك، وحاولت أن تقنعه بأنها نتيجة خبرتها وتأملها، وبفضل تعمقها في علم النجوم والفلك، توصلت إلى معرفة أكيدة بأن بدء المعركة في هذا الوقت بالذات لن يكون لصالحه... لكن الملك زجرها... فماذا تعرف صبية مثلها عن الحروب؟

فعادت تؤكد له موقفها ورأيها. وتابع الملك رفضه، بل سخر منها وهذا ما

جعلهـا تعود حـزينة خـائبة، إذ كـانت تدرك بـأن الملك يدفـع رجالـه إلى الموت ولكنها لم تقف مكتوفة اليدين، فما كاد يحل الظلام، حتى ارتدت زي رجل، وتسللت إلى حدود مدينة البختريين، لتكتشف بعض الأسرار. . . وراحت تدور حـول سور المـدينة، إلى أن اكتشفت مكـاناً فيـه، ركيك البنـاء، ينهـار من أول ضـربة. فعـادت إلى زوجها وأخبـرته، ثم رافقتـه في الصباح البـاكـر، إلى قصر الملك، كي تطلعه على سرها.

أصغى الملك إليها على مضض، ثم قال:

ـ إنك، إذا لم تصدقي، تسلمين رأسك إلى الجلاد.

أما هي، فقد طلبت منه إرجاء الهجوم يوماً واحداً.

ـ والسبب؟

سألها الملك، فأجابت:

ـ أريد عشرة من أصبر الفتيان على احتمال المكاره، مزودين بسلاح الهدم، إذ سنقوم بهدم المكان المتداعي الذي اكتشفته في السور، ثم نعيد بناءه صورياً. ومن هذه الثغرة يمكن للفرسان بل والعربات، الدخول إلى قلب المدينة.

وهذه المرة، استجاب الملك لطلبها، فاستدعى عشرة رجال أقوياء، ليمضوا برفقتها. وبالفعل، قاموا بـالعمل عـلى خير وجـه، لكنهم تأخـروا بالعـودة، لأن أحـدهم داس فوق أسـد نائم، وتسبب ذلـك بمعركـة، ذهب الرجـل ضحيتها، لكن رفاقه قضوا على الأسد. ولكي تبرهن على صدق الـرواية، رفعت شميـرام طرف عباءتها، وأخرجت رأس الأسد، وقذفته إلى طاولة أمام الملك، الذي أعجب ببسالتها، وازدادت ثقته بها، فسمـح لهـا بأن تلقي الخـطب، في الجيش وتحث الجنود على الاستبسال في القتال.

ورافقت زوجها إلى المعركة التالية، لكنه أصيب إصابة قاتلة، ولفظ أنفاسـه بين ذراعيها. أما هي، فلم تسلم من جراح طفيفـة، أمر الملك بتضميـدها، ثم

قدم لها عربته الملكية، كي تعود إلى قصرها. لكن المرأة الطامحة لم تخضع للحزن، بل تابعت القتال، وحث الهمم.

وبفضلها انتصر الملك على أعدائه، وصحبها في طريق عودته إلى عاصمة الأشوريين، وكانت شهرتها، قد سبقتها، فجرى لها استقبال رائع، وكان أبواها برفقتها، يشاهدان مجدها. لكن سيمو لم يلبث أن خرّ صريع المرض، فاستدعاها، وشرح لها معنى الطلاسم المعلقة في قلادتها. ونبهها إلى أمرين: الاندفاع خلف شهوات الجسد، والحذر من ذوي النفوذ. ثم ناولها طلسماً يقي حامله من القتل، وكان هو قد ورثه عن أبيه. وكانت آخر كلماته لها:

ـ وداعاً يا ابنة آثرغاتيس.

* * *

لم يمضِ وقت طويل، قبل أن يعلن الملك رغبته في الزواج منها، كي ينعم بقربها، ويسترشد برأيها، ويستعين بولائها. كما دعاها لتقاسمه العرش وتشاركه السلطان. ثم بعث رسله كي ينشروا الخبر في طول البلاد وعرضها.

وظلت شميرام مجدة في تحسين أحوال المملكة والرعية. ولم تلبث أن حملت ووضعت طفلاً سمته نينيا. وكان للملك ثلاثة أولاد من زواج سابق، كبيرهم أسور ناصر بال. ويقال إن شميرام أحبته، فلم يستجب لرغبتها. وهذا ما جعلها تتحين الفرصة للتخلص منه. وكان أبوه قد ولاه على بلاد كلدو، فراح يتصرف على هواه، ولا يصغي لأوامر الملك، أبيه. فأرسل إليه من يحذره من مغبة تصرفه، فلم يصغ. واستغلت شميرام الوضع لتوغر صدر الأب على ابنه، ولم يلبث الملك أن جرد حملة، كي يؤدب الابن العاق. وبعثت الملكة بالسر، من أخبر الابن بنوايا أبيه، وهذا ما جعله يستعد للقائه. ولما أوفد إليه الملك رسولاً، يطلب منه أن يلتقيا للاتفاق بسلام، قتل الرسول، فألحقه بآخر، ولم يكن حظ الثاني أفضل من الأول.

فاستشاط الوالد غضباً، ولم يجد بداً من مواجهة ابنه في معركة طاحنة ذهب

الملك ضحيتها. فراحت شميرام تطوف شوارع نينوى وهي متشحة بالسواد، تثير الشعب ضد أسور ناصر بال، وقد بلغه الخبر، فاستعد لمواجهتها، لكنه ظل بعيداً عن تقدير حيلتها، إذ أعدت له حرباً خاطفة، وجدتها الوسيلة الوحيدة للانتصار عليه. وقد نجحت. واقتادته أسيراً ذليلاً، لتزجه في السجن حتى آخر عمره. وبذلك فقط، أمنت لابنها ولاية العهد.

ولما ثار الكلدانيون وطالبوا بالانفصال عن أشور ذهبت إليهم وراحت تذكرهم بأصلها، فهي منهم ولهم، ثم سارعت إلى تحسين الأوضاع الاقتصادية والعمرانية. ووثقت الحكم قبل أن تعود إلى نينوى، راضية بما فعلت.

وبفضلها، تحولت بابل إلى قطعة من الفردوس، فأقامت الحدائق، وبالأخص بدعتها الشهيرة، الحدائق المعلقة، التي اعتبرت إحدى عجائب الكون. كذلك مدت الأقنية، ورفعت الجسور، وغرست البساتين والحدائق وأنشأت القصور الفخمة. ولم يكن يغفل عن بالها أي شيء، وفي الوقت نفسه، كانت تلهو، وتحب، وتستسلم لشهوات الجسد، ناسية وصية أبيها الأخيرة.

* * *

وها هي السيدة العظيمة، تتولى مقاليد الحكم، بثقة، وتضبط شؤون الدولة. ثم بدأت تراودها أفكار الفتوحات. فاستدعت مستشارها الروحي بيروص، الوحيد الذي كانت تأتمنه على أسرارها، وطلبت رأيه فيما هي مقدمة عليه، وكان جوابه بلسماً ودواء لقلقها:

ـ عليك أن تبادري إلى ذلك، وبسرعة، كي لا تفوتك فرصة النصر.

وبالفعل، جردّت حملة فتوحات بلغت بها مصر، وسواحل البحر الأحمر وبلاد الحبشة. ونشرت، أينما حلّت، اللغة الأرامية، وجعلتها لغة التخاطب. وفي إحدى معارك الحبشة، قتل الفتى الذي تحبه.

ولما عادت إلى بلادها، راحت تعد ابنها لتولي الحكم. فأرسلته كي يتمرس

في شؤون العمل، والقتال، والحياة. لكن الفتى لم يلبث أن أحب أزيما، وهي فتاة من عامة الأشوريين، راحت توغر صدره على أمه، وتوهمه بأن تحرره رهن بالخلاص منها.

والملكة العظيمة، التي تبث العيون، وترصد الحركات في كل مكان، لم يفتها ذلك، فأرسلت من أحضر الفتى وصديقته مخفورين، وراحت تؤنبهما حتى خرّا ساجدين أمامها، فطردت الفتاة وطلبت من الولد أن يوافيها إلى جناحها، حيث أفهمته ما هي عاقبة طيشه وغروره.

* * *

وشميرام، ذات الحسن الباهر، لم تكن تطيق الحياة، دون مغامرات عاطفية فاختارت من جديد، فتى وسيماً أحبته، وكان في الوقت نفسه، رئيس حامية عاصمة المملكة. لكن العاطفة لم تجمدها، كما لم تشغلها عن طموحاتها الامبراطورية. فثمة بلاد غنية، تملك البهار، والأفاوية والجواهر، وهي تحتاج إلى هذا كله، كي تزيد ترسيخ ملكها، وتقوّي جيشها وتثبت عرشها. وهكذا بدأت تعد لغزو الهند.

استقدمت الخشب من احراج لبنان، لبناء السفن. وأنشأت أسطولاً قوياً وكانت ذات سطوة آسرة، تمكنها من تحريك كل الطاقات، ودفعها لخدمتها.

وبالطبع، شأنها في الحملات السابقة، سارت هي في الطليعة، مؤتمنة ابنها وهيئة من كبار الحكماء، لادارة الحكم، أثناء غيابها.

لكن الملك الذي كانت ستلاقيه، هوستربات، ملك ملوك الهند، وجيشه متفوق على جيشها، لاستخدامه الفيلة. وهكذا خسرت الحرب، وعادت محطمة القلب، مغلوبة. لكنها حملت معها بعض الجواهر والعطور والبضائع الهندية الثمينة. واكتشفت، زيادة في خيبتها، بأن أزيما، عشيقة ابنها، قد عادت إليه، وأقنعته، مع كنيخو، الحكيم المناوىء للملكة، بأن يقصي أمه عن العرش.

فأرسلت للتو، من أحضر كنيخو إلى القصر، فأهانته أمام جمهور من الناس، وهذا ما أثاره، وجعله يزداد حقداً، ويحرّض عليها الأشوريين.

لكن سحرها الطاغي، استعاد الكرة إلى ملعبها. وتمكنت بفضل جمالها، وذكائها وقوة بيانها، أن تسيطر على الجمهور وتحوّل هياجه ضدها، إلى نقمة على كنيخو، فراحوا يرجمونه بالحجارة، وهرب إلى بيته، حيث قبع، وحيداً، ذليلاً، إلى آخر أيامه. أما الفتاة، فقد اختفت هي أيضاً إلى غير رجعة.

* * *

وعاودها حب السيطرة من جديد، ففي شمال البلاد، حاكم قوي، شاءت أن تخضعه لسطوتها. وكان اسمه آراكيفتسيك، يحكم أرمينيا ومحيطها. وكان، على ما يبدو، بالغ الجمال، فبعثت إليه رسالتها الأولى:

«إن شميرام، ملكة أكاد وشومير، سيدة بابل ونينوى، ملكة بلاد النهرين التي لا يحد ملكها ولا تطاول قوتها، ولا يضاهي جبروتها...»

بهذه اللهجة توجهت إلى آرا راغبة في التعرف إليه آمرة بأن يشخص هو إليها.

فبعث إليها جواباً مهذباً، وحازماً، يبدي فيه عدم استجابته لرغبتها. فعادت تبعث رسائل تظهر قوتها وجبروتها وتبطن التحذير من مغبة عدم الاستجابة. وخرج آرا عن التهذيب إلى الغضب، بل والاهانة لتلك الجارة التي تبدي رغبة العدوان السافر. ولم يكن من طبعها التوقف عند حد الانذار والوعيد، أو الصمت حيال من لا يستجيب لطلبها، فهبت على رأس جيشها، لمحاربة فتى أرمينيا الشجاع. وأبصرته مقبلاً نحوها، على رأس جيشه، فأعجبت بحسنه، وبعثت إليه رسالة رقيقة اللهجة، تطلب، فيها، صراحة، مصادقته. لكنه لم يرتدع ولم يبدل موقفه السابق، واندفع إلى مقاتلتها، إذ اعتبر ذلك حقه المشروع في الدفاع عن ملكه.

ولم يلبث أن سقط، في ساحة القتال، اثر إصابته بجراح بالغة. فأمرت

بنقله إلى خيمتها، وحاولت أن تضمد جراحه. لكنه لم يلبث أن فارق الحياة. فسلمت جثته إلى قومه كي يحتفلوا بدفنه، مثلما يليق بالأبطال. وطلبت أن تبنى قرية، في مكان المعركة، تخليداً لانتصارها.

ومع أنها عادت مظفرة عسكرياً، إلا أن الحزن، كان يلف قلبها... إذ لم تقو على انتزاع صورة الشاب الشجاع، الذي تحداها، ودفع حياته ثمناً لذلك التحدي.

وازداد حزن قلبها، حين لم تبصر ابنها نينيا في موكب مستقبليها، وعلمت بأنه خرج في رحلة صيد. وفي الحال، استدعت بيروص، وسلمته خاتمها الخاص، كي يبعثه مع رسول، على جناح السرعة، إلى ابنها، وتلك إشارة منها، إلى ضرورة حضوره حالاً. لكن الابن، الذي لم يكنّ لها عاطفة مخلصة، رفض الاستجابة لدعوتها، وظل يتجول بين الحاميات البعيدة عن العاصمة، يثيرها، كي تشق عصا الطاعة على أمّه.

* * *

وكانت تلك، أقسى ضربة تصيبها. ولم تشأ أن تتصرف بطيش ابنها. وشعرت بأن كل مجدها، وسلطانها، لم يعد يساوي شيئاً في نظرها، خصوصاً، حين استحقت بأن لكل شيء، حداً ونهاية.

وهكذا استدعت كبير أمنائها، وطلبت إليه أن تمنع عنها الزيارات، ولا يسمح بمقابلتها، سوى للحكيم البابلي بيروص. كما أمرته، بأن يصرف الحراس، عن الباب الكبير، عندما ينتصف الليل، ويشرعه على مصراعيه، كي يدخل منه نينيا، دون أن يضطر إلى القتال.

واستدعت الحكيم بيروص وقالت له: «إنك لن ترى شميرام ولن تراك بعد الآن فقد بت في غنى عن هذاالعالم. إن نفسي تائقة إلى عالم آخر، عالم الحقيقة، عالم الروح والخلود الأبدي، إن أجل عودتي قد حان، فقل للكلدانيين ان

ربيبتكم وملكتكم قد استحالت إلى أصلها، قل لهم، إن روح شميـرام معكم، فلا تخذلوا نينيا لأنها أحبته أكثر من حياتها، وفضلته على نفسها...»

* * *

أما حقيقة موتها، فظلت أسطورة غامضة، تماماً مثل غموض ولادتها.

كليوبـاترة

«شجاعتي تؤكد لقبي:
أنـا النار والهـواء وعناصري باقية للحياة».



أقدمها، امرأة شرقية، فذة الشخصية، فريدة النهج، وحيدة زمانها، بل والأزمنة التي تلت. وإن الذين حاولوا أن يكتبوا سيرتها، ان في الروايات والمسرحيات، أو على الشاشة الكبيرة، صوّروها من الخارج، وبقيت المرأة الفاتنة حين علم أن كليوباترة تركته على أرض المعركة، وفرت ترافقها ستون سفينة حربية.

ولكي نخلص لحقيقتها، علينا أن نرجع إلى عصرها، ومعطياته، لكن ذلك الرجوع مستحيل، وتبقى لنا إذن، بعض الملامح، نرسمها، وخيالنا يلاحق الأصل، المتواري في تموجات الزمن. تلك هي كليوباترة. ملكة مصر العظيمة.

* * *

وترتسم أمام عيني، صورتها الأسطورية بكل الاضافات والتراكمات. وأحاول أن أجرّدها، لأتعرف إلى الإنسانة. إلى المرأة، الأنثى.. فهل يمكنني ذلك؟

ولدت كليوباترة، حسب ما روى المؤرخون سنة ٦٩ ق. م. وكانت ولادتها في مصر. وهي ابنة غير شرعية من بطليموس الثالث عشر. سليلة الفراعنة وآخر

ملوكهم و . . ملكاتهم.

تزوجت أخاها بطليموس، ولها من العمر ثلاث عشرة سنة. وإذا بدا هذا الزواج مستهجناً في مفهومنا المعاصر، فإن التقاليد السائدة في عصرها، كانت تحلل زواج الأخ والأخت. وقد بدأت تتألق في المراهقة، ومطلع الصبا، بجمال يأسر القلوب، حتى أن المؤرخ بلوتارك، والذي كتب عنها بأسهاب، لم يهمل الاشارة إلى «جمالها الذي يدخل إلى كل قلب».

* * *

لكن سحر كليوباترة لم يقتصر على جمال الوجه والجسد، بل تعداه إلى جمال الشخصية، إذ اجتمعت عوامل عديدة في تكوينه: فالمرأة كانت في غاية الذكاء، والدهاء، أنيقة، مبدعة في أناقتها، مغرية في تصرفها، مزاجية إلى حد الغرابة، محبة للعيش، مفتونة بالحياة ووهج الحكم والسلطة، بالغة الأنوثة، وعاطفية. . بل جامحة العواطف، إذا أحبت، تخلت عن كل شيء، من أجل الحبيب، وإذا كرهت، تنتقم من العدو، بلا رحمة.

ويروى أن العدو الأول الذي تخلصت منه، هو أخوها، ومنافسها على السلطة والعرش.

* * *

خلفت كليوباترة والدها بطليموس أوليتس في الحكم، مع أخيها، وهي ليست الوحيدة، من سلالة الفراعنة، التي حملت اسم كليوباترة بل سبقتها إليه ثلاث ملكات. وأصل الاسم فيلوباترة باللغة اليونانية، لكنها كانت الأعظم والأشهر بين حاملاته. تولت الحكم بأسلوب لم يسبق لامرأة في الشرق، أن مارسته، إذ أدخلت الشخصية الأنثوية، بكلّ أبعادها، في صلب السلطة. وبدأت تتصرف في مرحلة مبكرة، وحين اكتشفت بأن أخاها بطليموس، ضعيف الشخصية، ثارت في صدرها المطامع، ونشأ بينهما صراع لم يلبث أن تطور إلى حرب أهلية، خاضتها ضده، وساندها فيها قيصر روما، الذي بلغ مصر في تلك

الآونة، إثر انتصاره في حرب فارسالوس وطرده فلول بومباي. وكانت السنة ٤٨ ق. م. والقيصر افتتن بها وسحره جمالها، وذكاؤها. وقام معها برحلة، يصفها المؤرخون بكل دقائقها. فقد استقلا قارباً شراعياً من الاسكندرية إلى أسوان، وجزيرة «أنس الوجود» حيث قضيا أروع أيام العمر. وقد تخلى القيصر عن زوجته، وتزوج كليوباترة، وجعلها ملكة مصر، بعدما تخلصت من أخيها، وخلت لها الأجواء.

* * *

وها هي، الملكة، المطلقة السلطة، والقيصر رهن إشارتها. وانصرفت إلى التمتع بنعيم الحياة الملكية إلى جانبه. وقد انتقل ليقيم في قصرها، ناسياً هموم السلطة، ومسؤولية الامبراطورية.

في العام ٤٦ عاد القيصر إلى روما. ولم تلبث أن لحقت به. وكانت تدغدغ طموحاً في صدرها، بأن يصبح ابنها منه، قيصر الرومان. لكن إقامتها في روما لم تطل، كما أن حلمها لم يتحقق.

فقد نشبت صراعات لم تلبث أن تطورت إلى حرب أهلية ارتدت على القيصر، حين تآمر عليه أقرب المقربين منه، ولم يبق بجانبه سوى النفر القليل. ولما اغتيل سنة ٤٤ رجعت كليوباترة إلى مصر لتعنى بشؤون مملكتها، وتعيد ترتيب أمورها، وتنتظر نتيجة الصراع الدائر في روما، والذي انعكست نتائجه عليها وعلى مستقبلها.

* * *

كان هناك أكثر من شخص يطمع في خلافة القيصر. ودارت الحروب الصغيرة والمؤامرات بين هؤلاء الأشخاص، ولن أورد تفاصيل تلك الأحداث. إذ ما يهمني هو الجانب المتعلق ببطلة سيرتنا، كليوباترة، وشخص آخر تمكن أن يخرج منتصراً، ويصبح في الطليعة، مؤهلاً لاستلام السلطة، وأعني ماركوس أنطونيوس أو مارك أنطوني، سليل القياصرة، وهو قائد وسيم الشكل، قوي

الشخصية، بدأ حياته بالمغامرات الصاخبة، المليئة بالعبث والمجون. لكن الحروب التي خاضها، وخبرته في القيادة كانت من العوامل التي صقلت شخصيته، ورفعت شأنه. وقد وصفه بلوتارك بأنه يشبه لوحات وتماثيل هرقل. وتقول الأسطورة إن كل من حمل اسم أنطوني في عائلته، كان من سلالة ذلك الهرقل القوي.

ولم يكن أنطوني بريئاً كل البراءة من المؤامرة التي حيكت ضد القيصر، غير أنه لم يتدخل مباشرة. ولما خلا له الجو، راح يؤلب الرأي العام حوله ويحارب كل من يعترضه، حتى انتهى به الأمر إلى التغلب على أعدائه، والصعود إلى قمة النصر.

ولما اطمأن إلى الوضع في روما، اتجه نحو الشرق، فاستقبله الناس على أنه باخوس، واهب الفرح والأنس. وكان كذلك بالنسبة للبعض، بينما انقض على مناوئيه بشراسة. وعرف بمزاجه العفوي البسيط، برغم قوته، لذا لم يقدر بأن من يمتدحه وينادمه اليوم، يمكن أن ينقلب إلى عدو لدود في الغد. يضاف إلى ذلك اللقاء القدري مع ملكة مصر والشرق، كليوباترة ذات الجمال الأخاذ والشخصية الطاغية.

* * *

كان انطوني يستعد لحرب بارثيان حين أرسل من يطلبها كي توافيه إلى سيليسيا، لتمثل أمامه، وتدافع عن تهمة الصقت بها، وهي مساعدتها لعدوه كاسيوس.

بعث إليها رسوله ديليوس الذي ما كاد يبصر وجهها، ويستمع إلى حديثها، حتى تأكد له، بأن انطوني لن يسيء إلى امرأة مثلها، بل على العكس، ستكون مقربة، مفضلة لديه. لذا زارها في قصرها، ونصحها بألا تتخلف عن قبول الدعوة، وأوصاها بأن تتسلح بكل مظاهر الفخامة والعظمة.

وكليوباترة أصغت جيداً إلى كلام ديليوس، ووثقت به. لكن ثقتها الأهم

كانت في نفسها، والمواهب التي سطت بها، من قبل، على القيصر.

وهي الآن، في أوج تألقها، امرأة أنضجتها التجربة، وزادها الجمال الفكري تألقاً. لذا لم تبخل على نفسها بشيء، حين عزمت على القيام بالرحلة، بل حشدت المال، والجواهر، والأناقة، ولم تنس زادها الأهم: السحر والجاذبية.

وبينما رفضت أن ترد على رسائله، ورسائل أصدقائه من قبل، قامت، بكل تحد، وسافرت عن طريق نهر سيدنوس. ويحدثنا الرواة، بأن سفينتها كانت مطلية بالذهب، وأشرعتها من القماش القرمزي. أما المجاذيف، فكانت من الفضة، تفري الماء على إيقاع الموسيقى.

وكانت الملكة مضطجعة على أريكة، رفعت فوقها خيمة مذهبة،واختارت ثياباً تشبه زي فينوس آلهة الجمال، وقد توزع حولها صبية صغار، يرتدون أجنحة كجناحي كيوبيد إله الحب عند اليونان، وقد حمل كل واحد منهم بدل القوس والنشاب، مروحة مذهبة. أما الجاريات، فكن في لباس حوريات البحر. ولدى مرور السفينة كانت تنتشر منها رائحة العطور النادرة. هذا المشهد دفع الناس إلى ضفتي النهر، حيث وقفوا صفوفاً، يرحبون بفينوس القادمة إلى مأدبة باخوس، وذلك لأجل مصلحة البلاد.

* * *

هذا الوصف ليس من نسج الخيال، بل مقتبس من كتابة المؤرخ بلوتارك. فأية روعة كانت تحف بها؟! وأي إنسان مهما علت مرتبته، لا يخر صريع تلك العظمة؟

وبينما كان انطوني في انتظارها، تلفت حوله فجأة، فلم يبصر أحداً، لقد تركه الجميع، وهرعوا لاستقبالها. ولما أرسل من يدعوها إلى العشاء معه، كان جوابها:

ـ من الأفضل أن تأتي أنت يا سيدي.

ولبى الدعوة، مظهراً حسن النيـة تجاههـا. واكتشف، أن الاستقبال الـذي أعدته له، تجاوز كل ما توقع، خصوصاً تلك الأنـوار المعلقة، والشبيهـة بأغصـان الشجر. باختصار، بدا كل شيء في غاية الروعـة والجمال. يعبّـر أصدق التعبيـر عن ذوق صاحبة الجلالة.

في اليوم التالي دعاها انطوني إلى العشاء، وكان مستعداً كي ينـافسها. لكنـه اكتشف بـأنه دونها في هـذا المجال، لـذا اعترف بتقصيـره. وهي، اكتشفت فيه شخصية المحارب، أكثر من سيد البلاط. كما أن سحرها لم يقتصر على الجمال، بل تعدى الشكل، إلى الذهول الذي يستولي على كل من تعرف إليهـا أو اقترب منها. فهي تملك النباهة، وسرعة الخاطر، فضلاً عن الحديث الذكي، والصـوت الموسيقي، الذي يـذكر بتـدفق المياه بـين الخمائـل. وكانت تسـطو على محـدثها بلبـاقة، وبمقـدرة على الخـطاب المباشر دون الاستعـانة بمتـرجمين، إذ كـانت تجيد اللغات: الحبشية، العربية، العبرية، السـورية، الميـدية واليـونانيـة، إلى جانب لهجات القبائـل المختلفة. وهـذه مهارة لم يسبقهـا إليها أحـد من السلف، إذ إن الملوك، قلما اهتموا بالعلم، بل كانوا يوكلون أمره إلى المرافقين، والمستشارين.

* * *

وانطوني خضع لها كلياً. ورافقها إلى الاسكندريـة، في حين كـانت زوجته، فولفيا، تحارب عنه في روما. وسمح لنفسه، بأن يلهو، إلى جانب كليوباترة مثل صبي شقي، فيهـدر الـوقت، أثمن مـادة يحتـاج إليهـا كي يؤمن استمـراره في السلطة.

لا يذكر التـاريخ، تـرفاً في العيش، ولا عـلاقة بـين محبين، مثـل تلك التي كانت بين انطوني وكليوباترة، حتى أطلق عليهما لقب: العاشقان الخالدان.

* * *

وبينـما يعطي أفـلاطون، فيلسـوف اليـونـان، أربـع طـرق في إغـراء المـرأة للرجل، والسطو على عواطفه، كانت لدى كليوبـاترة ألف طـريقة، استخـدمتها

كلهـا لتبقي انطوني في حـالة دائمـة من الاندهـاش والذهـول: كانت تجـاريه في اللعب، كـما في الأكـل والشـرب، وشتى ضـروب الـلهـو والعبث. وذكـر المؤرخون بأنهما كـانا يتخفيـان بأزيـاء الخدم ويـطوفان عـلى بيوت الاسكنـدرية، يدقان على الأبواب والنوافذ للتسلية فقط. وكثيراً مـا كان القـائد العـظيم، يعود من تلك الجولات، مهشم الأعضاء، لتعرضه للضرب والعراك.

وأهل الاسكندرية كانـوا فرحـين بهذا التصـرف، قانعـين بأن تمثـل الادوار المـأساويـة في روما، بينـما تترك المسـرحيات لبـلادهم. وأطرف تلك التمثيليـات كانت تدور خـلال رحلات الصيـد حين تحتـال كليوبـاترة الـذكية عـلى انطوني، وتضحك الجميع على سوء حظه في صيد السمك. وفي إحدى الـرحلات لم يعـد يتحمل سخريتها، فدفـع أحد خـدمه ليشـك السمك عـلى صنارتـه. ولاحظت كليوباترة ذلك، وتجاهلت الأمر. وفي اليوم التالي، أخذت هي المبادرة، فـدفعت خـادمها كي يعـلق سمكة مملحـة على صنـارة انطوني. وحـين انجلت الحقيقـة، استغرق الجميع في الضحك، وصرخت الملكة، كي تنقذ كبرياءه:

ـ أيها القائد العظيم، أترك لنا نحن الفقراء، صيد السمك، فأنت صيـدك المدن والممالك.

* * *

وكان يمكن للقائد أن يستمر في العيش الهنيء لـو لم تأت الأخبـار السيئة من رومـا: فقد شنت زوجتـه فولفيـا، مع أخيهـا لوسيـوس، حـربـاً عـلى القيصر، خسراها، وفـرا إلى إيطاليـا. وكان انـطوني يعلم أن فولفيـا لم تدخـل الحرب إلا لتلهيه عن كليوباترة، وتسترجعه. لكن حظها كـان سيئاً، إذ داهمهـا المرض، ثم الوفاة وهي في طريقها إلى الشرق. وعاد انطوني إلى روما فتـزوج أوكتافيـا شقيقة القيصر، وكانت أرملة.

واكتفت كليـوبـاتـرة بـدور الخليلة. وأنجبت منـه ولـدين همـا: الاسكنـدر وبطليموس، وابنة سمتها باسمها: كليوباترة.

حاولت أوكتافيا أن تجنب روما حرباً أهلية جديدة، تشفع لها في ذلك سيرتها الحسنة، وخدماتها الشعبية. وهذا ما قرّب الشعب منها، وأثار النقمة على انطوني الذي عجز عن التخلص من سطوة كليوباترة، فعاد إليها، وتوجها ملكة على: مصر، قبرص، ليبيا وجزء من سوريا. وكان يشاركها الملك ابنها من القيصر. أما الممالك الباقية، فوزعها، على ولديه التوأمين منها، وكان لقبهما: الشمس والقمر، فأعطى أرمينيا، ميديا وبارثيا للاسكندر. وفينيقيا وسيليسيا والجزء الباقي من سوريا لبطليموس.

وظهرت كليوباترة، في حفلة التتويج، مرتدية زي إيزيس آلهة الخصب والأمومة عند المصريين في حينه.

* * *

أثارت تصرفات انطوني غضب القيصر. فأعلن عليه الحرب بحراً، وكان في أرمينيا، فرفض الاصغاء إلى قادة جيشه المتمرنين بحروب البر. وازداد ضياعه حين علم أن كليوباترة تركته على أرض المعركة، وفرت ترافقها ستون سفينة حربية.

وبما أن «روح العاشق تحيا في جسد المعشوق» كما يقول بلوتارك، فقد أحس انطوني بأن روحه فرت مع الحبيبة، وطار صوابه، فترك رجاله، المحاربين من أجله، وتبعها. وحين وصل إلى مقرها، صعد إلى سفينتها، إلا أنه بقي لا يتحدث إليها، إلى أن تدخلت بينهما إحدى نساء الحاشية، فأعادت الأمور إلى مجراها.

ولم يصدق رجاله، بأنه تخلى عنهم، وظلوا ينتظرون عودته. لكنه من جديد، خيبهم. ولما بلغ أفريقيا أرسل كليوباترة إلى مصر، وظل مع اثنين فقط من رجاله، وكانت حاله سيئة، إذ شعر بأنه القائد المندحر، ففكر بأن يضع حداً لحياته.

* * *

لدى وصوله إلى الاسكندرية، اكتشف أن كليوباترة بدأت تنفذ مشروعاً لحسابها، كي تحفظ أسطولها عائماً في الخليج العربي، وتعيش بأمان بعيدة عن الحرب ومستقلة عن الامبراطورية. وكانت ردة فعله أن عاد إلى ذاته. ودخل في عزلة نفسية. ولم تكن كليوباترة تعيش حالة استقرار أفضل منه، إذ بدأت تجرب السموم المختلفة، لتعرف أيها يعطي مفعولاً أسرع مع تجنب الألم والعذاب. وقد أجرت بعض تجاربها على المحكومين بالاعدام، لكنها لم تتوصل إلى نتيجة مرضية، فاستخدمت الأفاعي، واكتشفت أن أفضلها الصلّ المصري إذ إن لدغته لا تترك آثاراً على الجسم، وترسل فيه خدراً يشبه النعاس.

إنما لم تغفل الشأن السياسي، وكانت تطمح إلى تأمين مستقبل أولادها، من بعدها. فبعثت إلى القيصر تطلب منه إبقاء المملكة المصرية لأولادها. أما انطوني فكان مطلبه أن يعيش في مصر مثل أي رجل عادي.

* * *

كانت تلك عيشة حياة العاشقين. فالقيصر لم يستجب لطلب القائد بينما اشترط على كليوباترة أن تقتل انطوني أو تطرده من مصر لقاء الإذعان لطلبها.

وبالطبع، لم يكن هذا ما تبتغيه ملكة مصر، التي انتقلت من التفكير بالحياة، إلى التحضير للموت.

فأنشأت مقابر فخمة، تشبه الأهرام، نقلت إليها كنوزها، من ذهب وفضة، وزمرد، ولؤلؤ، وأبنوس وعاج. وخشي القيصر أن تقدم هذه المرأة الغريبة الأطوار، على عمل يبدد تلك الكنوز، كاشعال حريق.. لذا، وبينما كان يقترب من الاسكندرية، أرسل من يبلغها سلامه، ويعطيها الأمان، ويخبرها بأنه يضمر لها كل النوايا الطيبة.

وهاجمه انطوني في مقره، ولم يكتف بذلك، بل تحداه كي ينازله، ليتقاتلا بالأيدي. لكن القيصر دعاه ليبحث عن وسيلة للانتحار.

وفيما كان انطوني مع بعض رجاله، يراقبون أسطولهم كيف يستقبل القيصر، خطر له أن كليوباترة، التي من أجلها عاش وقاتل، هي التي سلمته إلى القيصر. فهجم على مقرها، وراح يدق الأبواب الحديدية، ويهزها، فأصيبت بالذعر، وأرسلت إليه من يبلغه نبأ وفاتها، فصدق الخبر، وسمعوه يصرخ بصوت عظيم:

ـ والآن، يا انطوني، لماذا تتأخر؟.. لقد سلبك القدر السبب الوحيد الذي من أجله تحيا.

ثم دخل غرفته وخلع دروعه وهو يردد:

ـ لا يزعجني حزني عليك يا كليوباترة، فقريباً أنضم إليك. لكن الذي يقهرني هو أن يكون هذا القائد العظيم أجبن من امرأة.

ثم دعا خادمه ايروس الذي وظفه ليقتله عند اللزوم، دعاه ليقوم بواجبه. رفع الخادم السيف متظاهراً بأنه سيهوي به على عنق سيده، إلا أنه استدار وقتل نفسه، وسقط عند قدمي انطوني الذي صرخ:

ـ عظيم يا ايروس لقد علمت سيدك ما ترددت أنت عن فعله.

وشك السيف في أحشائه. لكن الجرح لم يكن قاتلاً. إنما أحس بألم رهيب، فدعا من حوله ليخلصوه من آلامه، لكنهم هربوا وتركوه، إلى أن جاءته ديوديم، سكرتيرة كليوباترة ونقلته إلى سيدتها، فدلّت هذه الحبال وراحت تشده إلى برجها بمساعدة جاريتيها. وروى شهود عيان أن ذلك المشهد كان مؤثراً، خصوصاً اللحظات الأخيرة، والقائد البطل يلفظ أنفاسه، ويرفع يديه إلى مليكته، وكأنه يستجير بها، وهي، راحت تضرب نفسها بقبضتيها، وتناديه، سيدي، زوجي، أميري وملكي، وتنوح عليه.

وفي ومض الوعي الأخير، دعاها لأن تتمتع بتلك اللحظات الأخيرة لوجودهما معاً، وتذكره، فقط، في أوقات عزه ومجده.

ويروى أن كليوباترة حاولت فيما بعـد، أن تطعن نفسهـا، إثر وفـاته، لكن رسول القيصر كان حاضراً وسارع الى انتزاع الخنجر من يدها.

في تلك الآونة، كان القيصر يدخل الاسكندرية مظفراً. وقد عامـل ولديهـا بـالحسنى، أما ابنهـا سيزاريـون، والذي زودتـه بالكنـوز ليهـرب بهـا عن طـريق الحبشـة، فقد وقـع في قبضة رجـال القيصر، بعدمـا وشى به استـاذه. ولما سـأل القيصر مستشاريه ماذا يفعل به، كان الجواب:

ـ عدة قياصرة، ليس بالأمر المرغوب فيه.

وهكذا أمر بقتله، بعد موت أمه.

* * *

أما الساعات الأخيرة من حياة كليوباترة فكانت ذروة المأساة، إذ أصيبت بالحمى، متأثرة بجراحها، وطلبت من طبيبها أن يعجل بأجلها وحين زارها القيصر قفزت من سريرها، وسجدت عند قدميه. بعضهم يقول: كانت تتوسل من أجل حياتها، إنما الأصح أنها كانت تسترضيه، من أجل أولادها. وقد أعطته قائمة بكنوزها. لكن أحدهم همس في أذن القيصر:

ـ لقد اخفت بعض الجواهر.

واعترفت الملكة بأنها احتفظت بها كي تهديها لزوجتيه: أوكتافيا وليفيا.

وقضت ما تبقى لها من ساعات العيش في الاستعـداد للرحيل: ودّعت قبـر انـطوني. استحمت. طلبت أن تعد لهـا وليمة فـاخرة، ثم جـاءهـا فـلاح بسلة صغيرة ملأهـا بثمار التـين الناضـج. تناولت منـه السلة، ودعت من حولهـا إلى الخروج، مستبقية جـاريتيها. كـما كتبت رسالـة إلى القيصر تطلب فيهـا أن يأمـر بدفنها إلى جانب انطوني. وأدرك القيصر مغزى الرسالة، فبعث نجدة لإنقاذهـا، إنما بعد فوات الأوان.

ويـروي المؤرخون أن الصـل المصري الـذي جربت سمـه من قبـل، كـان

رابضاً في قعر السلة، فحملته، وقربت رأسه من صدرها ثم من زندها. لدغتان فقط، كانتا كافيتين لتخدير الجسد الملكي، والذي ظل محتفظاً بسحره وجماله.

ووجد رسول القيصر حولها كنوزها الثمينة، وجاريتها إيراس ميتة عند قدميها، أما الجارية الثانية تشارميون، فكانت منهمكة بوضع لمسات الزينة الأخيرة لسيدتها. ولما سألها أحد الحضور:

- هل اتقنت الزينة، يا تشارميون؟ أجابت:
- أجل، وكما يليق بملكة من سلالة الفراعنة.

قالت ذلك وخرّت لا حراك بها.

* * *

لم يجدوا آثاراً للسم فوق جسدها. أما الصل، فلم يبصره أحد، لكن بعض الصبية قالوا إنهم شاهدوا آثاره على الرمال، تحت نافذتها..

* * *

وهكذا انتهت حياة المرأة الأسطورة. وسجلت وفاتها سنة ٣٠ ق.م. فتكون عاشت تسعاً وثلاثين سنة، حكمت منها مدّة اثنتين وعشرين سنة كملكة، وأربع عشرة سنة كشريكة لأنطوني في الأمبراطورية.

منذ ألفي سنة وحكايتها تلهم الشعراء والفنانين. كتب عنها شكسبير مسرحية «انطوني وكليوباترة».

وأخرجت قصتها في ستة أفلام سينمائية، منذ أن بدأت السينما حتى أواسط السبعينات. ومن الممثلات الشهيرات اللواتي لعبن دورها، كلوديت كوربيت، فيفيان لي، صوفيا لورين، أليزابيت تايلور، وهيلدا غارنيل.

أما أفلامها فكانت خاسرة. ورد بعضهم الخسارة إلى لعنة الفراعنة. ولا أجد خاتمة لسيرتها أفضل من كلام وضعه على لسانها شكسبير:

«مددوني فـوق طمي النيل

واجعلوا الأهرام مشنقتي».

وكلماتها الأخيرة لفظتها مع تقطّع الأنفاس:

«شجاعتي تؤكد لقبي

أنا النار والهواء

وعناصري باقية للحياة..»

أما تشارميون، فقد ودعتها بهذه الكلمات:

«افتخر يا موت،

لأنك تمتلك الآن،

أجمل النساء...»

بلقيس ـ ملكة سبأ

«أين، أين بقايا مأرب، مدينة القباب
الشاهقة، والقصور الفخمة، المصنوعة من أجل بلقيس»؟.



من تكون تلك المرأة، الطالعة من التاريخ . . المقيمة في الأساطير الشعبية؟ المنتشرة في حضارات الشرق والغرب، كما في أعمال انجزها كبار الفنانين والأدباء والشعراء والمؤرخين؟ من تكون ملكة سبأ؟ وهل هناك ملكة حقيقية؟

* * *

أجل. هناك ملكة اسمها بلقيس، حسب تقدير المؤرخين. وهي نفسها ملكة سبأ التي زارت سليمان الحكيم تلك الزيارة الخالدة. وحول زيارتها تدور القصص والأساطير. وأنا، إذ أحاول رسم شخصيتها، أجتهد في إبراز الواقع، وفصله قدر المستطاع، عن الأسطورة التي تناقلتها الأجيال منذ ثلاثة آلاف سنة.

* * *

لم ينشغل الباحثون، والمؤرخون، بسيرة امرأة، مثلما انشغلوا بسيرتها. كما أن الوهج الذي أطلقته، مع رحلتها المدهشة، لا يزال يلهم الشعراء والفنانين، حتى عصرنا الحاضر.

تستوقفني قصيدة للشاعر البريطاني وليم بطلرييتس يقول فيها:

«. . . وأنشد سليمان لملكة سبأ وقبّل عينيها العربيتين:

«ليس هناك رجل أو امرأة،
مولود تحت الشمس،
يجرؤ على مساواتنا،
في الحكمة والمعرفة،
وفي كل ما حققنا.
إن الحب وحده قادر،
ان يحول العالم إلى بحيرة صغيرة».

* * *

وقد كتب ييتس أكثر من قصيدة في بلقيس، وذلك بين العامين ١٩١٩ و١٩٢١، أي بعد مرور ثلاثة آلاف عام على أناشيد سليمان، والتي شنف بها (حسب المؤرخين، ومنهم اللبناني حتي) اذني تلك الفتاة الشولمية التي خلد جمالها في أناشيده. والفتاة كانت اعرابية من قبيلة فيدار. . . فهل تكون هي نفسها بلقيس؟ . . . ليس هناك من يؤكد الخبر أو ينفيه.

* * *

وأتابع نبش حكاياتها المدهشة، بكل الأبعاد والاضافات التي سجلتها الأقلام البارعة. وأراني أحاول المستحيل، وأنا أنتزع وجهها الحقيقي، من الوجه الآخر الأسطوري.

أول مرة نقرأ ذكر ملكة سبأ في التوراة ـ العهد القديم ـ وقد ورد في باب «ملوك أول» ثم تكرر النص حرفياً في «أخبار الأيام الثاني» من المصدر نفسه.

وهذا النص العربي للرواية: «وسمعتْ ملكة سبأ بخبر سليمان. فأتت لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً. بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة. وأتت إلى سليمان، وكلمته بكل ما في قلبها.

فأخبرها سليمان بكل كلامها.

ولم يكن أمراً مخفياً عن الملك لم يخبرها بـه. فلما رأت ملكة سبـأ كل حكمـة سليمان، والبيت الذي بناه، وطعام مـائدتـه ومجلس عبيده، ومـوقف خدامـه، وملابسهم، وسقاته ومحرقـاته التي كـان يصعدهـا في بيت الـرب، لم يبق فيها روح بعـد. فقالت للملك: صحيحـاً كان الخبـر الذي سمعتـه في أرضي عن أمورك وحكمتك. ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي. فهوذا النصف الذي لم أخبر به. زدت حكمة وصلاحـاً على الخبـر الذي سمعتـه. وباركتـه. وأعطت الملك مائة وعشرين وزنة ذهب، وأطياباً كثيـرة جداً وحجـارة كريمـة لم يأت بعـد مثل ذلك الطيب في الكثرة التي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان».

من هذا النص تنطلق الحكاية في أصلها. وهي حكايـة ملكة غنيـة، ذكية، وتهتم بـالحكمـة. قـطعت مسـافـات بعيـدة، من أجـل أن تسمـع حكمـة سليمان، كما أحضرت معها اسئلة والغازا تمتحنه بهـا. والملاحظ أنـه لم يرد ذكـر لاسم الملكـة، ولا البلاد التي جـاءت منهـا. وهي، في حـديثهـا المنقـول اكتفت بالإشارة إلى «بلادي» و «أرضي» دون أن تسمي.

كـذلـك لم يسجـل المؤرخـون اسم أبيهـا. ولا سـلالتهـا. وقـد دفـع هـذا الغموض، العلماء والباحثين ليتعمقوا أكثر في دراسة المكان، والآثار الدارسة، أو المطمورة تحت طبقات كثيفة من الـردم. والذي زاد اهتمـام المنقبين عن الآثـار، هـو ما ذكـر عن الكنوز والأطيـاب التي حملتها الملكـة هديـة لسليمان، وهي من بعض انتاج بلادها.

أما عصرهـا، فهو حسب تقـدير المؤرخـين القرن العـاشر قبل الميـلاد. وقد وضعوا إشارة على المكان الذي جاءت منه، ويعتقد أن يكون حضرموت وقتبان. والمؤرخ حتي يقدّر بأن مقر ملكة سبأ لم يكن بلاد الحبشـة ولا اليمن، كما ذكـرت بعض المصادر، بل جاءت من معاقل سبأ ومراكزها التجارية على خط القوافل.

وبفضل ذلك الموقع الحسـاس، يقول المؤرخ سترابو: «أصبحت سبـأ أغنى

قبائل العرب. عندها مستحدثات الأدوات المصوغة من ذهب وفضة... منها الأسرة، ومثلثات القوائم والأحواض وأوعية الشرب. عدا المنازل الفخمة، وقد تزوقت أبوابها وجدرانها وسطوحها بالألوان وترصعت بالعاج والذهب والفضة والحجارة الكريمة».

لكن كارثة انفجار سد مأرب المفجعة، واجتياح السيل العرم للأراضي والعمران، خلف الدمار وأغرق معالم حضارة عريقة وجعل السكان يتفرقون «أيدي سبأ» كما نعلم من المثل الشهير.

* * *

في الانجيل يعاد الكلام على ملكة سبأ، وتدعى «ملكة التيمن» كما ورد ذكرها في القرآن الكريم في سورة «النمل»وقد تأثر بالقصة القرآنية عدد كبير من الكتّاب، والمؤرخين، والفنانين. ومن بعض ما ورد فيها عن سليمان الحكيم:

﴿وتفقّد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتيني بسلطان مبين. فمكث غير بعيد فقال: أحطتُ بما لم تُحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إني وجدتُ امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيءٍ ولها عرشٌ عظيم﴾.

وورد ذكر سبأ في «سورة سبأ» والرواة الذين اعتمدوا النص أضافوا إليه الكثير من عناصر الخيال والأسطورة، خصوصاً حين دخل في الرواية الفارسية، وفي فن الزخرفة والرسم.

* * *

أما أول من ذكر بلقيس من المؤرخين فهو اليعقوبي وذلك عام ٨٩٠ (ق. م.) ومن روايات أخرى أن قبيلة سبأ لم تغادر شمال الجزيرة حتى سنة ٦٥٠ (ق. م) ولم يقترن اسم بلقيس بملكة سبأ حتى القرن الأول الهجري. وقد وصلتنا مقاطع شعرية من قصائد ورد فيها ذكر الملكة بلقيس، كتبت في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد، منها قصيدة لأحد ملوك سبأ جاء فيها:

«أيتها النساء الشبيهات
بيلقيس وشمس،
أنا من سلالة لميس العظيمة
وبلقيس حكمت تسعين سنة،
بعظمة وشموخ.
وعرشها الفخم، مزخرف بالزمرد والياقوت»
ولأمير من حمير هذه الكلمات:
«أين، أين بقايا مأرب،
مدينة القباب الشاهقة،
والقصور الفخمة،
المصنوعة من أجل بلقيس»...

* * *

أما الرواية القصصية التي تناولت سيرة الملكة العظيمة، فأوردها الطبري نقلاً عن ابن اسحق، ويقدر بأنها أقدم أثر أدبي، وهي مبنية في تفاصيل وقائعها وأحداثها، على النص القرآني. كذلك ظهرت صور بلقيس، في آثار خلفها فنانو الحضارتين الفارسية، والحبشية. ولها رسم شهير على زجاج كنيسة كانتربوري في بريطانيا.

* * *

وألخص هنا، بعض ما ورد في رواية الطبري، ومنها أن سليمان بعدما استمع إلى الهدهد يروي له مشاهداته في مملكة سبأ، بعث إلى الملكة رسالة خبأتها في عبِّها ثم جمعت رجال البلاط وقالت لهم: كم كنت مصيبة بنظرتي إلى سليمان. واستشارت وزراءها حول القيام برحلة إلى مملكته وأعدت للرحلة ألف قائد، وكل واحد منهم ملك الملوك، ويأمر عدة آلاف رجل. وقبل الرحيل، أصدرت بلقيس أوامر لينقل عرشها المرصع بالياقوت والزمرد واللؤلؤ، ويحفظ في

مكان أمين، يمكن بلوغة عبر سبع بوابات، وكل بـوابة مقفلة بـأحكام. وأمـرت رئيس الحرب أن يسهر جيداً على حماية العرش وكنوزه.

* * *

وتتابع الرواية بأن سليمان، حين علم بتحركها، سأل رجاله:

- هل نستقبلها؟

ويبدو أنهم وافقوا، فبعث الجن كي يستطلعوا أخبار المسيرة، ويعطوه تقارير عن تقدم الموكب. وحشد قواته البشرية وغير البشـرية، لنقـل العرش المحصن، كي يكون في استقبالها. ثم أمر بتشييد معبر من بلور، يبدو أشبه بنهر ماء يقـطع المـدخل إلى عـرشه حتى إذا مـا بلغته الملكـة، رفعت أطراف ثـوبها، وكـأنما تهم بـالغوص في المـاء. عندهـا، أبصر سليمان ومن حـولـه، الشعـر الـذي يغـطي رجليهـا. وهذا زاد في إحـراجها، كـما أدهشها أن تـرى عـرشهـا المحصن، قـد سبقها.

ويتوقف الفنانون والرواة طويلاً عند هذه التفاصيل. وأكثر الصور المرسومـة للملكة، ولوصولها إلى بـلاط سليمان، تـظهرهـا رافعة أطـراف ثوبهـا، بينما تهم بتغطيس قدميها في ماء النهر الخيالي.

أما الأحاجي والأسئلة التي تحملهـا، لتمتحن بها سليمـان، فلم يصلنا منهـا إلا القليـل، وهـو من النـوع السـاذج، والـذي لا يتـوازى مـع عـظمـة تلك الشخصية، ومجدها، ووقوفها على قدم المساواة مع أحد عظماء ملوك بل حكماء ذلك الزمان.

كما تُبرز حكـاية أخـرى التنافس الـذي يحدث بـين بلقيس وسليمان بعـدما تتسلم رسالته. فهي تعلن لرجال حاشيتها بأنها سترسـل إليه هـدية، إذا قبلهـا، يكـون مثل سـواه. وان رفض، يكون رفضـه بإرادة الله. أمـا الهديـة، فكـانت حبـات لؤلؤ غير مثقـوب. وتطلب منـه أن يثقبها. وبـالطبـع، يغضب سليمان،

ويهدد بغزو مملكة سبأ، إنما رجاله ينصحونه بالتروي وظلوا عاجزين عن مساعدته في ثقب اللؤلؤ. عندها يلجأ إلى الجن والعفاريت، فيشيرون عليه بأن يرسل دودة لتقوم بالمهمة، وتأخذ الحشرة خيطاً في فمها، وتبدأ بالعمل. وعندما تتسلّم بلقيس خبر نجاح سليمان، تقرر أن تقوم بالزيارة.

* * *

طبعاً هذه الروايات أسطورية. لكنها تحمل الكثير من الرموز. وهي تشير إلى مكانة المرأة، ومستوى حضارة بلادها، والتقدم التقني، الذي بلغته، حتى أن المؤرخين ذكروا أن سد مأرب الذي شيد لري السهول الخصبة، كان يعتمد فناً في هندسة البناء، لم يُعرف من قبل. وبفضله، وبسبب موقعها التجاري الممتاز ازدهرت المملكة، وبات على الملكة أن تبحث لها عن أسواق جديدة، لتصريف بضائعها وانتاجها، فتوجهت غرباً، لتزور سليمان، وتصل بواسطة سيطرته، إلى موانىء الشاطىء الذي تقوم عليه مدن الحضارات المزدهرة في حينه، وبينها الحضارة الفينيقية. كما أن سليمان كان بحاجة ماسة إلى الأفاوية، والطيوب والبهارات، والذهب والفضة، والحجارة الكريمة، والمتوفرة بكثرة في مملكة سبأ.

أي أن أصحاب هذه النظرية جعلوها قضية تبادل مصالح تجارية بين بلدين، مثلما نرى ونسمع في عصرنا الحاضر. لكن أحد كبار المتصوفين جلال الدين الرومي رأى في رحلة بلقيس سعي الإنسان إلى التخلي عن الثروة المادية، والتوجه الروحي نحو مراتب السمو والإشراق. وتداخل القصة، في الحكايات الشعبية، إن في الهند، أو الحبشة، جعلها ترتدي الطابع الشعبي لتلك البلاد.

* * *

وتبقى في ذاكرة الرواة اسئلة عديدة تبحث عن أجوبة، لا تتوفر في المخطوطات التاريخية ولا في الآثار. وهناك من يقول: إن مأرب كانت عاصمة سبأ، وحين حدث الطوفان الشهير، اندثرت معالم المدينة، وطمرت آثارها الحضارية. لأن الهدايا التي حملتها الملكة لا تتوفر إلا في بلاد رفيعة المستوى،

مزدهرة الحضارة. وفي «سورة سبأ» تلميح لتلك الحضارة: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال. . .﴾.

* * *

والملكة التي «أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان» كانت تدعى نيكوليس حسب المؤرخ يوسيفوس، الذي اعتبرها حاكمة الحبشة ومصر. لكن العرب سموها بلقيس كما يضيف المؤرخ الدبس ويقول: «الأصح انها كانت ملكة سبأ. وربما امتدت سلطتها إلى أعمال الحبشة واسمها عند الأحباش مكادا».

هناك عالم آخر اسمه فرنسيس بروتوريوس يثبت بأنها كانت ملكة سبأ. وجاءت لتسمع حكمة سليمان، حاملة إليه هداياها النفيسة، ثم يضيف بأنها أقامت عنده. وربما كان بينهما زواج، فولدت منه بعد عودتها إلى بلادها إبناً سمّته مينالك وهو أصل لسلالة ملكية حكمت الحبشة عدة قرون.

ويكرر هذه الرواية المرسل الألماني مرتين فلاد والعالم هلافي فيؤكد أن مينالك هو ابن ملكة سبأ من سليمان، وقد بعثته، كي يتربى في قصر أبيه ريثما يكبر ويشتد ساعده. لكن أعيان اليهود أجبروا سليمان أن يرده إلى أمه، فاشترط عليهم أن يبعث كل واحد منهم ابنه البكر مرافقاً له. وهكذا أصبح مينالك ملكاً على الحبشة، كما تزوج مرافقوه حبشيات.

* * *

أما اسم بلقيس فلم يبق مرتبطاً بملكة سبأ وحدها، فقد عرفت أكثر من بلقيس واحدة في عصور لاحقة، بينها الملكة بلقيس التي حكمت اليمن. وأحياناً وقع الكتّاب في خطأ المزج بين ملكة سبأ، وحاملات اسمها، من ملكات العهود اللاحقة.

* * *

تـراني نجحت، في فصل الحكـاية الحقيقيـة، عن الأسطورة؟ أكـرر تساؤلي مـرات، ولا أجد جـوابـاً مقنعـاً. . . ولكن، مـا هم، فـأنـا لا أكتب فصـلاً في التاريخ، بـل أحاول أن أرسم وجـه امرأة فـريدة، من صفحـات مجيدة غـابرة، اخترقت عظمتها العصور لتبلغنا، وتترك في أعيننا أسرارهـا المدهشـة، ووهجاً لم يخمد تألقه برغم تراكم الزمن.

زنوبيا

«كانت أجمل امرأة شرقية، جمعت إلى جمال المظهر، الحكمة والأدب والفلسفة».





زنوبيا، زينب، الزباء (في اللغة الأرامية).

هذه الأسماء جميعها لواحدة من النساء الشهيرات في تاريخ العرب، زنوبيا ملكة تدمر.

* * *

أين تبدأ حكايتها الحقيقية؟ وأين تنتهي الأسطورة التي رواها الرواة منذ سبعة عشر قرناً؟ وكيف يمكن لمن يقف، على المنقلب الأخير من القرن العشرين، أن ينتزع الحقيقة من ركام الأساطير؟

وتتراكم حكايتها، عبر ما رواه المؤرخون، وما كتبه الرواة، الذين اتفقوا على إبداء الإعجاب، بل الدهشة، بشخصية المرأة النادرة، والتي عاشت في القرن الثالث للميلاد.

فالمؤرخ الروماني تريبيلوس بوليو يقول: إن زنوبيا كانت تحب الانتساب إلى الملكات اللواتي اشتهرن في تاريخ الشرق، بجمالهن، كسميراميس ملكة أشور، وديدون صاحبة قرطاجة، وكليوباترة ملكة مصر، وهي جدتها من جهة أمها على ما يقدر الرواة.

لكنها تفوقت عليهن بالعفة والحصانة، فاعتبرت أشرف نساء الشرق، وأنبلهن أخلاقاً وأجملهن خلقاً.

* * *

ونقرأ من وصف تريبيلوس لجمالها وهيبتها:

«جمالها يفوق كل وصف. لون وجهها يميل إلى السمرة، وحدقتا عينيها حالكتان كحدقتي النسر، أسنانها بيضاء كحبات اللؤلؤ، وجسمها معافى وصوتها جهوري، وتبدو عليها سمات العظمة والقدر الرفيع، إلى الحزم والأنس والبشاشة واللطف، مما كان يدهش العقول، ويثير الاعجاب».

وإذا ما خرجت الملكة، فقد كانت تضع فوق رأسها عمامة خاصة مستوحاة من الزي الروماني، وترتدي ثوباً ارجوانياً مرصعاً بالجواهر، وتترك ذراعيه مكشوفين. وكانت ترفض الانتقال في الهودج، وتمتطي الحصان، لترافق زوجها في تنقلاته ورحلاته.

* * *

مؤرخ اسمه كارنيلوس كابتوليونس، قال فيها: «كانت أجمل امرأة شرقية. جمعت إلى جمال المظهر، الحكمة والأدب والفلسفة».

«وقد تعمقت في الثقافة اليونانية كما تعلمت اللغات الأرامية والقبطية وبعض اللاتينية. وكانت واسعة الاطلاع على تاريخ الشرق والغرب».

وهناك من يقول بأنها كتبت خلاصة لذلك التاريخ، خصوصاً تاريخ مصر وآسيا واليونان.

وقرأت هوميروس وأفلاطون، وأحبت العلماء والأدباء، وبعد اعتلائها العرش حشدت حولها مجموعة من المفكرين والفلاسفة، أشهرهم اللغوي والفيلسوف لوبريكوس البيروتي والمؤرخ بوسيانوس الدمشقي والعلامة الصوري كليكراتس.

أما الفيلسوف الحمصي كونجينوس فكان مستشارها في الأدب والفلسفة والسياسة، كما أن أسقف إنطاكية العالم بولس السمياطي كان من رواد بلاطها وقد عرفها إلى المسيحية. لكن أمر ديانتها ظل غامضاً، وإن ذكر بعض المؤرخين بأنها تنصرت فإن البعض الآخر أنكر ذلك.

* * *

وزنوبيا المتحدرة من سلالة السميدع العربية الشريفة، كان من الطبيعي أن تتزوج من رجل عربي شريف، هو أذينة الحيراني الحاكم الذي ساد الشرق الروماني، وبسط سلطانه من سوريا إلى الجوار، وكانت له حروب مع الفرس.

ومتى خرج أذينة إلى الحرب، كان يترك مقاليد الحكم في يد زنوبيا القديرة، وهذا ما جعلها تتمرس في شؤون السياسة. ويرجع بعض المؤرخين، إليها، الفضل في حسن سياسة الدولة.

* * *

إلى هذا الحد، نجد السيدة الكبيرة في طور الاستعداد، ثم جاء وقت، دعاها إلى توظيف طاقاتها، وما كنزت من علم ومعرفة، وكان ذلك بعدما اعتلت العرش وصية على بكرها وهب اللات، اثر مقتل زوجها وولي عهده ابنه هيرودوس من زواج سابق، على يد معن ابن أخي أذينة الذي كان طامعاً في العرش. لكن القاتل لم يهنأ بفعلته، إذ لم يلبث أهالي حمص أن ثاروا عليه وقتلوه. وهكذا أصبحت زنوبيا مطلقة السيطرة على المملكة القوية.

ونذكر هنا أنه كان لأذينة وزنوبيا ثلاثة ذكور هم: وهب اللات، وخيران، وتيم الله، وثلاث أناث هن: ليبية، لاونيده، وأوترية.

ويرجّح بعض الرواة، خصوصاً الكاتب الفرنسي أرنست دي كانتالو، بأنه كانت لزنوبيا يد في مقتل زوجها وابنه، طمعاً في الاستيلاء على الحكم، إنما لا توجد وثائق تؤكد هذه النظرية أو تنفيها.

المهم أن حياتها المستقلة في الحكم تبدأ من تلك اللحظة الفاصلة. وكانت من قبل تخوض المعارك التي دارت بين أذينة وملك الفرس، مشاركة ومساعدة للحاكم المتألق، والذي تغلب على سابور وغنم أمواله، بفضل مساندة القبائل العربية وفرسان تدمر.

وقد تابع الزوجان الفتوحات في بلاد العرب وفارس، حتى اكتسب أذينة لقب ملك الملوك. وهنا أشرك ابنه هيرودوس في الحكم لفترة قصيرة قبل أن تحل الكارثة بهما.

* * *

أثبتت زنوبيا بأنها أفضل سياسية، وكانت حازمة وحليمة في آن، كريمة الأخلاق، وحكيمة في الشؤون الاقتصادية، وهذه صفة هامة لأي حاكم في أي عصر، فملأت بيت تدمر بالمال، وجمعت كنوزاً تفوق ما في خزائن كسرى، ملك الفرس.

وكان يساعدها على ذلك، موقع تدمر المميز، واحة في قلب الصحراء، ومحطة للقوافل المسافرة بالبضائع الثمينة، بين الشرق والغرب. كما أن المدينة تحولت في أيامها، إلى بابل البادية لكثرة ما التقى فيها من ألسن غريبة.

* * *

والملكة الجميلة، لم تخف حبها للعظمة، فكانت تتصرف كقياصرة الرومان وملوك الفرس، فتستقبل القادة على مائدتها. إنما كانت زاهدة في الطعام والشراب. وإذا ما استعرضت جنودها، كانت تمتطي صهوة جوادها، وفوق رأسها الخوذة الرومانية المزخرفة بالجواهر النادرة، ويتدلى الوشاح الأرجواني من فوق أحد كتفيها، بينما يظل الذراع الآخر عارياً على طريقة اليونانيين القدامى.

وكان مظهرها يبث روح الحماسة والشجاعة في الجيش، كما في الشعب، فأغدق عليها الناس حباً يقرب من العبادة.

وكانت تحضر مجلس الشيوخ والأعيان، في ثياب جليلة، وفوق رأسها التاج الملكي، وعلى كتفها المشملة الأرجوانية ـ لباس القياصرة. وكان كل من حضر يسجد أمامها، مبدياً الولاء والاحترام.

كذلك صكّت النقود التي تحمل صورتها وصورة ابنها. لكن المظاهر ما كانت لتلهيها عن الشؤون العمرانية، إذ بنت القصور والهياكل والحصون والقلاع، وشيدت مدينتين على ضفتي نهر الفرات، وازدهرت الحياة في عهدها، وعاش شعبها في بحبوحة، وشمل الإصلاح الزراعي البراري الشاسعة حول تدمر، فجرت إليها المياه، ومهدت الطرق.

* * *

وكانت عين الحكام في روما تتأمل ما يجري، غير راضية. وخاف الحاكم غاليانوس من سيطرة ملكة الشرق، فاستفزها إلى الحرب، وأرسل إليها جيشاً كبيراً، ووقعت المعركة الأولى عند حدود الفرس، وانتهت بانتصار زنوبيا وقتل القائد الروماني هرقليانوس. ويسجل المؤرخ الفرنسي شاباني:

«أن آسيا انتصرت على روما في تلك المعركة وانقطعت الروابط بين البلدين».

* * *

إثر هذا الانتصار، منحت زنوبيا لنفسها لقب «سلطانة الشرق» وكان طموحها يمتد أبعد من حدود تدمر، إذ كان حلمها أن يرتقي أحد أولادها، ذات يوم، العرش الروماني.

في هذه المرحلة من حياتها، توفي ابنها وهب اللات؛ فجعلت ولديها تيم الله وخيران على سدة الحكم، وعلمتهما اللاتينية، ومرستهما بأساليب السلطة، وأطلقت عليهما لقب «القيصر» كما سمحت لهما بركوب العربة الملوكية، وحسنت علاقتها مع جيرانها، خصوصاً الفرس، فعقدت الصلح مع الملك سابور.

وكـان انتصـارهـا عـلى غـاليـانـوس قـد أقلق الـرومـان. وخلفـه في الحكم أوريليوس كلوديوس. ويخبـرنا الـرواة بأن شيـوخ روما، كـانوا يصيحـون خلال جلسة مبايعته:

«نجنا من زينب، وفكتوريا» ـ والثانية كانت ملكة «غالية».

وبقي كلوديوس مقصراً عن تحقيق تلك الأمنية. أما زنوبيا فحوّلت نظرها إلى مصر، موطن جدتها الأولى ـ كليوباترة.

وبالفعل، أرسلت جيشاً مؤلفاً من سبعين ألف جندي، بقيـادة زبدا، كبـير قادتها ـ وهناك من يعتقد بأن هذا القائد لم يكن سوى اختها زاباي زعيمة فرسان تدمر.

* * *

المهم أن سلطانـة الشرق، نجحت في فتـح مصر، وتركتَ عليهـا والياً هـو صديقها فيرموس. وأصبح ملكها يمتد من حدود نهر الفرات إلى شواطىء البحـر المتوسط. وقد وطدت هذا الملك وباتت تهدد ملوك الشرق.

وجاء تبدل الرياح من جهة روما، إذ مات كلوديوس، وخلفـه أورليانـوس. وكـان أول هدف سعى إليـه هو التغلب عـلى زنوبيـا. وهي استعدت للحـرب، فقسمت جيشها إلى ثلاث فرق، ووقعت معارك شرسة، تمكن خلالها أورليانوس من محاصرة تدمر، إلا أنه فشل في السيطرة عليها.

ورسالته الشهيرة إلى روما تقول: «فليتحدثوا كما يطيب لهم. يقولون بأني أحارب امرأة. هذا صحيح، إنما أحارب امرأة عظيمة. ولو عرف النقاد من هي زنـوبيا، لتحـول نقدهم إلى مـديح لي. إنها امـرأة قويـة حازمـة الرأي، شهمـة وحكيمـة. وشعبهـا يعبـدهـا. وفي ظني أني لم أقـابـل عـدواً مثلهـا، لكني سأنتصر...»

ومن المؤرخ اللاتيني فوبيسكوس تأكيد آخر، عن نظرة أورليانوس إلى عدوته

الخطيرة، إذ كتب يقول فيها: «قد يضحك البعض، لأني أحارب امرأة. لكن زينب، عندما تحارب، تصبح أفرس من الرجال».

* * *

ويبدو أن أورليانوس كان يهوى المراسلة، فوجه إلى زنوبيا رسالة إنذار، يطلب منها أن تستسلم فردت عليه بجرأة: «إن ما قرأته في رسالتك لم يجرؤ على خطه أحد من قبل. إن الغلبة هي بالشجاعة والاقدام، لا بتسويد الصفحات. تريدني أن استسلم؟ . . أذكرك بأن كليوباترة آثرت الموت على حياة العار والهزيمة».

وغضب أورليانوس، فضيّق الحصار على تدمر، وانصرف الحلفاء عن زنوبيا. ولما علمت بخيانتهم، ركبت ناقة، وتسللت خفية، لتستنجد بملك الفرس. إنما فرسان العدو كانوا لها بالمرصاد. ولما حاولت أن تعبر الفرات في زورق، لحقوا بها، وأعادوها، إلى البر، قسراً، ثم نقلوها إلى تدمر حيث باتت أسيرة القيصر.

وعندما أبصرها أورليانوس، بادرها بالقول: «الآن صرت في قبضتنا، يا زينب. اوأنت من تجاسرت على احتقار قيصر الرومان؟»

فردت عليه بجرأة: «الآن اعترف بأنك القيصر، إذ تغلبت عليّ».

ولم يرحم أورليانوس أتباعها وأمر بقتل مستشاريهم، وفي مقدمتهم الفيلسوف لونجينوس. وثارت تدمر لما حصل. فعاد القائد الروماني إليها، وهدم مبانيها الشامخة، وأسوارها وقلاعها، وتركها، خلفه، دماراً.

* * *

أما المشهد الأخير، فيبزّ أي مشهد مسرحي: لقد أمر قيصر روما بأن يكبلوا الملكة الباسلة، ولكن بسلاسل من ذهب. وساقوها مع أولادها، إلى روما سنة ٢٧٢ م. على مشهد من جماعتها، وذلك شهادة على انتصار أورليانوس. ونقلت

معهـا العربـة المرصعـة بالـذهب، والمركبـة التي أعدتهـا لولـديها حـين يتسلمـان الحكم.

وعاشت زنوبيا، السنوات الباقية من حياتها، أسيرة مكرمة، في قصر يقع في ضـواحي روما. وأنفقت جهـدها ووقتهـا في الاهتمام بأولادها. ويقـول المؤرخ تريبيلوس ان ابنها تيم الله صار خطيباً بليغاً باللغة اللاتينية، وتزوجت بناتهـا من أعيان رومانيين. واستمرت ذريتها حتى أواخر القرن الرابع للميلاد.

* * *

وتكمل حكاية زنوبيا، مجموعة من الأساطير العربية القديمة. فهناك أسطورة حول شعرها، الكثيف والطويل. ويقال بـأنها لقبت الزبـاء لغزارة ذلـك الشعر. وقال ابن الكلبي: «كان لها شعر، إذا مشت جرته وراءها وإذا نشرته، جللها» وكان العرب يضربون بها الأمثال، في الشجاعة وعزة النفس.

ومهـما اختلف الرواة، أو اتفقـوا، عـلى فصـل الحقيقـة عن الأسـطورة، في حكاية زنوبيا، فإن آثارها الباقية، في تدمر، وفي أرجاء مملكتها الشاسعة، تؤكد، بأن امرأة عظيمة، مرت في هذا الشرق العربي، وتركت فوقه بصماتها.

الخنساء

أمّا صخر فجمر الكبد

وأما معاوية فسقام الجسد».



يعبر وجه الخنساء، فوق تموجات الزمن، يجتاز مئات السنين، ليصل إلينا، في صور متعددة، رسمت للشاعرة، من خلال شعرها، وما روي عن حياتها. وأتوقف عند صورتين تلفتان الانتباه:

في الصورة الأولى يطالعنا وجه الشاعرة الشابة، التي شُبّهت بالظبية، لجمالها، ولخنس في أنفها. وهذه صفة جمالية مستحبة، إذ يكون الأنف متأخراً عن الوجه، مع ارتفاع قليل في الأرنبة، وهذا الجمال للأنف، لا تزال المرأة تسعى إليه، في أيامنا الحاضرة، حتى ولو كلفها السعي أن تجري جراحة لأرنبة الأنف.

أما الصورة الثانية فهي للخنساء النائحة أبداً، الباكية، الراثية، المرتدية ثياب الحداد، المرتمية في أحضان الحزن، حتى اليأس.

* * *

لا نعرف، بالضبط، السنة التي ولدتْ فيها الخنساء. لكن المؤرخين اتفقوا على اعتبار منتصف القرن الأول قبل الإسلام تاريخاً لولادة تماضر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد، من سراة سليم، إحدى القبائل التي استوطنت عالية نجد. أي أنها مولودة في النصف القرن الأخير من العصر الجاهلي، كما عمرت

قرابة ربع قرن في الإسلام، وتوفيت سنة ٦٤٦م (٢٤هـ) فهي، لذلك، تحسب في عداد الشعراء المخضرمين وإن كـان معظم شعـرها قيـل في الجاهليـة، ويحمل الطابع الجاهلي، ما عدا القليل منـه، الذي يستشف، في بعض مـلامحه، الروح الجديدة التي أشرقت على صحراء العرب.

* * *

كانت قبيلة سليم التي انتمت إليها الخنساء، إحدى القبائل العربية القوية، المشهورة ببأس رجالها، وعلو مكانتها، بين العرب. وهذا ما جعل الشاعرة تفخر بانتمائها إليها. كـما كان والـدها، رجـلاً محترمـاً، وأخوهـا معاويـة أول فرسـان القبيلة، حتى إذا قتـل، في إحدى المعـارك، برز أخـوهـا صخـر، ليسـود القبيلة ويتقدم الفرسان، مكان أخيه.

* * *

يتفق المؤرخون، على أن تماضر، أو أم عمرو أو الخنساء، كانت ذات شخصية قوية جداً. فقد نشأت في كنف عائلة كريمة، نشأة عز وحرية وثقة بالنفس. وربما فرضت مكانتها على أسرتها، من خلال جمال شكلها، وعزة نفسها، وذكائها الحاد، حتى أن والدها، كان يعود إليها، لأخذ الرأي. لكن أهم قصة تؤكد لنا قوة شخصية الخنساء، تلك التي تروى عن خطبتها في مطلع الصبا.

* * *

لا نعرف الكـثير عن نشأة الخنساء وطفولتها. على أن الرواة، يخبروننا أن حياتها المدونة بدأت بحادث خطبتها لفارس هوازن وسيد بني جشم، دريد بن الصمة.

كان دريد يتنزه على فـرسه، حـين استوقفـه منظر صبيـة، لفت انتباهـه منها جمال الوجـه، وامتشاق القـوام. ويقال ان الفتـاة كانت تهنـأ بعيرهـا (أي تدهن

الجمل بالقطران) وقد ارتدت ثياباً مبتذلة. ولما فرغت، خلعت ثيابها، واغتسلت وهي لا تشعر أن هناك من يراقبها. ولما انتهت مضت لسبيلها.

وظل الفارس المتخفي يلاحقها بنظراته حتى عـرف أنها تماضر بنت عمـرو، وأخت صديقه معاوية، ذات اللقب الشهير: الخنساء. وهو لقب أطلق على عدد من فتيات تلك القبيلة، تحبباً، ولخنس في أنوفهن. لكن تماضر كانت أشهرهن.

* * *

استقبل والد الخنساء دريداً مرحباً ومردداً:

ـ أية رياح ساقتك إلى ديار بني سليم؟ فأجابه دريد:

ـ جئت أخطب ابنتك تماضر. قال الأب:

ـ مرحباً بك. أبا قرة، ابن الكريم لا يطعن في حسبه، والسيـد لا يرد عن حاجته، والفحل لا يقرع أنفه.

ثم سكت الأب لحظة، قبل أن يضيف بشيء من الإحراج:

ـ ولكن لتمـاضر في نفسها، مـا ليس لغيرهـا. وأنـا ذاكـرك لهـا وهي فاعلة.

ثم استأذنه، ودخل على ابنته يناديها مغتبطاً:

ـ يـا خنساء، أتـاك فـارس هـوازن، وسيـد بني جشم دريـد بن الصمـة، يخطبك، وهو من تعلمين. فأجابته:

ـ يا أبت، أتراني تاركة بني عمي، مثـل عوالي الـرماح، لأتـزوج شيخ بني جشم، هامة اليوم أو غداً؟

فرجع الأب إلى ضيفه معتذراً:

ـ يا أبا قره، لقد امتنعت، ولعلها تستجيب، فيما بعد.

لكن دريد لم يكن بحاجة إلى زيادة في الايضاح، إذ سمع جواب الخنساء، فانصرف، دون أن يزيد حرفاً. وقد هجاها بقصيدة تناقلها الناس، وحثها بعضهم على الرد عليه، فقالت:

ـ لا أجمع عليه أن أرده وأهجوه.

هذه الرواية الطريفة، تؤكد لنا أن الخنساء كانت ذات رأي مستقل، وشخصية، قوية، نسبة إلى مكانة المرأة في عصرها، بل في أي عصر.

* * *

بعدها، حققت الخنساء قولها بالفعل، فتزوجت رواحة بن عبدالعزيز السلمي، أحد أبناء العم، ولم تكتب بيتاً واحداً من الشعر في هذا الزواج، وربما كتبت، وضاع ذلك الشعر، أو أن الزواج لم يحرك عاطفتها بما يكفي لتقول فيه شعرها... على أي حال، لم يكن زواجها هذا موفقاً، إذ لم تلبث أن اكتشفت أن زوجها رجل متلاف، شأن الأثرياء، آنذاك، ويبذر ماله على الميسر. وكانت تلجأ إلى أخيها صخر، كلما وقعت في مأزق مالي، فينقذها، ليعود الزوج فيبدد المال، مع الرياح العابرة.

ويروى أنها حين جاءته في المرة الرابعة، تطلب المساعدة، احتجت زوجته فأجابها صخر:

«والله لا أمنحها شرارها وهي حَصان قد كفتني عارها
ولو هلكتُ مزقت خمارها واتخذت من شعر صحارها»

هذان البيتان كانا بمثابة قيد، في عنق الخنساء، حتى نهاية حياتها، كما سنرى فيما بعد.

على أي حال، انتهى هذا الزواج بالانفصال، ورجعت إلى بيت والدها، يصحبها إبنها البكر عبد الله الملقب «أبو شجرة».

* * *

وكان زواجها الثاني من بني العم أيضاً، واسم الزوج مرداس بن أبي عامر السلمي، ولقب بالفيض، لسخائه، وقد ولدت له ثلاثة بنين هم: يزيد، معاوية، وعمرو وبنتا هي عمرة بنت مرداس.

كان الزواج الثاني أفضل من الأول، وقد تأثرت حين توفي زوجها، فرثته بقصيدة، عددت فيها شمائله، غير أنها لم تتطرق إلى وصف حياتها معه، أو ذكرياتها، فبقيت تلك المرحلة في الظل.

* * *

ثم نصل إلى أهم شخصية في حياة الخنساء، والذي كان بالنسبة إليها، أشبه بالبطل في القصص والأساطير. . وهو أخوها صخر. وقد ارتدت علاقتها به ثوب الأسطورة، إذ قلما كرس إنسان، حياته، كلها، في سبيل إنسان آخر، فارق الوجود.

ظلت الخنساء ترثي صخراً طيلة ثلاثين سنة، حتى ارتبط شعرها، بل كيانها، بالاسم الذي خلدته عبر مراثيها.

أما البطل الثاني، فهو أخوها الأكبر معاوية، وقد توفي قبل صخر، وكان أهم فرسان سليم، قادهم في الحرب. وجعل لقبيلته شأناً بين سائر القبائل. وحين قتل، في إحدى الغزوات، أخذ صخر مكانته. . .

ويقول دارسو شعرها، إن الخنساء كانت تقول البيت أو البيتين فقط، حتى كانت الصدمة الكبرى، بموت أخيها، فراحت تنشد القصائد الكاملة.

لكن هذا القول لا يخلو من المبالغة، حين نلاحظ، من روايات المؤرخين والنقاد، أن صيت الخنساء كان قد انتشر من قبل، وفي مرحلة مبكرة من صباها، حين تقدم دريد لخطبتها، وإلا، فكيف نفسر طلب الجماعة منها أن تقف في وجهه وتهجوه وكيف ترد بتلك القوة، والثقة بالنفس؟

* * *

وصفت الخنساء أخويها وصفاً رائعاً إذ قالت: «كان صخر، والله، جنة الزمان الأغبر، وزعاف الخميس الأحمر، وكان والله، معاوية، القائل الفاعل.

قيل لها: فأيهما كان أسخى وأفخر؟ قالت: أما صخر فحرُّ الشتاء، وأما معاوية فبرد الهواء. قيل لها: فأيهما أوجع وأفجع؟ قالت: أمّا صخر فجمر الكبد، وأما معاوية فسقام الجسد».

* * *

من نافل القول، إن معاوية وصخراً هما اللذان حركا عاطفة الخنساء، ولولاهما، لما تفجرت قريحتها بالشعر الذي خلدها بين أكبر شعراء العرب؟ . . بل لولا فقدها لهذين الأخوين؟

لقد قتل معاوية، كما سبق وذكرت، في إحدى غاراته على بني قره وكان من الطبيعي أن يثأر له أخوه الأصغر، صخر، فأغار على الأعداء وقتل دريد، قاتل أخيه، وصار بطل القبيلة، فرفع شأنه، وراحت تتحدث بسيرته الناس، وكانت له غارة أخرى على قبيلة بني أسد بن خزيمة، فدارقتال شديد، وابتعد رفاق صخر وتركوه وحده، فطعنه «أبو ثور» الأسدي في جنبه طعنة قوية، حملها وظل يداويها طوال سنة، حتى قتلته.

وكان هم الخنساء، حسب ما يقول الرواة، أن تعرف كيف كان احتمال صخر لآلامه ومصيبته، أكثر من انشغال بالها على مصيره. وهذا يدلنا على تغلب الكبرياء والمفاخرة في طبعها، على العاطفة، بل ان عاطفتها لهذا الأخ بالذات، كانت من النوع الغريب النادر: فهي لا تستطيع أن تتحمل لوعته، كما لا تقوى على سماع أنباء عن ضعف البطل المغوار وخضوعه للألم.

وهذا يؤكد طبيعتها الشجاعة القوية، ويقودنا إلى وقفة أخرى، تتجلى فيها الشجاعة، وصلابة الإرادة، وتتغلبان على العاطفة والأمومة.

* * *

كبير أولادها عبدالله، «أبو شجرة» إبنها من زواجها الأول، وكان شجاعاً قوياً، أسلم مع قبيلته سنة (٨ هـ). ثم ارتد فترة قبل أن يعود فيشهر إسلامه، ثم يستشهد مع أخوته الثلاثة في وقعة القادسية سنة (١٦ هـ). حين خرجوا مع جيش المسلمين لفتح بلاد فارس.

ويروى أن الخنساء رافقت أبناءها، وكانت تحثهم على القتال بكلام فصيح، وتذكر لهم الجنة فتقول:

«يا بني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله، الذي لا إله إلا هو، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة.

ما هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم. واعلموا أن الدار الآخرة، خير من الدار الفانية. اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون. فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجللت ناراً على أوراقها فتيمموا وطيسها، وجالدوا رسيسها، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والكرامة».

ولما أضاء لهم الصبح، تقدموا الواحد بعد الآخر، وهم ينشدون أراجيز يذكرون فيها العجوز (أمهم) حتى قتلوا. فلما بلغها خبرهم قالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة».

هل نلاحظ مبالغة في الرواية؟ ربما. لكن شعر الخنساء يسند هذه الرواية، فهي امرأة في غاية الشجاعة. وهي حين اعتنقت الإسلام وآمنت، لم تعد إلى التفجع اليائس الذي سجلته في رثاء أخويها. أم أنه العجز، بلغ بها حداً لم تعد معه قادرة على التأثر بالأحداث إلى حد يدفعها لتسجل عواطفها شعراً!..

* * *

يُروى أن الخنساء ظلّتْ تقول البيت أو البيتين، حتى توفي أخوها الأكبر معاوية، فبدأت تكتب قصائد الرثاء.

هذا القول يقبله بعض الباحثين، ويرفضه آخرون لأسباب نوهنا بها، لكن

الذي لا شك فيه، ان المصائب العظيمة هي التي تحرك قريحة الشاعر والفنان، أم أنها التجارب العميقة في الحياة؟ . .

وظلت حياة الخنساء عادية، حتى وقعت الفاجعة الكبرى، وخر الفارس الشجاع معاوية، فتفجرت القريحة بالشعر الباكي. ثم كان موت صخر الضربة الثانية التي لامست الأعماق.

وصخر هو الأخ، وهو شريف قومه، وأحب الأخوين إليها. بل هو سندها وقت الشدة والملجأ الذي إليه تفزع وقت الضيق، فلمن توفر كلامها؟ وكيف لا تسكبه قطرات نارية تحرق أجفانها، وتقرحها ثلاثين عاماً؟خصوصاً وأن هذا ما كان ينتظر منها؛ فالرثاء هو عمود الشعر عند النساء في العصر الجاهلي، وهو تجربة لصيقة بامرأة ذلك الزمان، كما أنه واسطة الشهرة والخلود للقبيلة. فالرجل ينتظر أن تبكيه المرأة وتنوح عليه. والشاعرة الراثية هي لسان حال القبيلة، وكلمتها الدامعة، هي التي تفجر الحزن الجماعي، وتحث القوم على الأخذ بالثأر.

وهكذا يتحول صخر ومعاوية، عبر شعر أختهما، إلى بطلين، وإلى رمز النضال، ترفعهما علماً ليقتدي بهما بنو سليم، كما كانت تنقل ذكرهما معها إلى المواسم والتجمعات، وتجعل القبيلة، تفاخر بشاعرتها المتفوقة.

شعر الرثاء في زمانها كان نوعين: فهو إما للنواح، وإما للإلقاء، أما شعر الخنساء فيقسم إلى قسمين: ما قالته في الجاهلية (وهو الأهم) وعليه قامت شهرتها. ثم شعرها الذي قيل في الإسلام، ويمكن تميزه من تعابير ومفاهيم حملها الدين الجديد لعرب البادية.

* * *

يُروى أن عائشة أم المؤمنين استقبلت الخنساء، وحزنت لمنظرها، حين رأتها حليقة الرأس، ترتدي صداراً من الشعر علامة الحزن والحداد، وتدب من الكبر على عصا، فقالت لها:

ـ أخناس؟ . . أجابت:

ـ لبيك يا أماه! قالت:

ـ أتلبسين الصدار وقد نهى عنه الإسلام؟ فخفضت رأسها وأجابت بأسى:

ـ لم أعلم بنهيه. ثم سألتها عائشة:

ـ ما الذي بلغ بك ما أرى؟ قالت:

ـ موت أخي صخر. وراحت تقص عليها أخباراً عن مآثر أخيها وكرمه وفضله عليها.

* * *

وفي رواية أخرى أن الخنساء نزلت «المدينة» بزي الجاهلية فقيل لعمر بن الخطاب:

ـ لو وعظتها، يا أمير المؤمنين. فقد طال بكاؤها في الجاهلية والإسلام.

فقام عمر، فأتاها وقال:

ـ يا خنساء. . فرفعت رأسها وقالت:

ـ ما تشاء؟ قال:

ـ ما الذي قرّح عينيك؟ قالت:

ـ البكاء على السادات من مضر. قال:

ـ إنهم هلكوا في الجاهلية. وهم وقود اللهب وحشو جهنم. قالت:

ـ فذاك الذي زادني وجعاً. قال:

ـ فأنشديني مما قلت. ولما أنشدته، قال لمن حوله:

ـ دعوها. فإنها لا تزال حزينة جداً.

لكن الخنساء استجابت في النهاية لتعاليم الإسلام، وطرحت النعلين اللذين كانت تعلقهما بخمارها، والصدار، وتركت الشعر ينمو فوق رأسها.

* * *

أما قيمتها الشعرية فيُعبِّر عنها جرير حين سُئِل :

- من أشعر الناس؟ قال :
- أنا، لولا هذه الخبيثة . وهو يقصد الخنساء . أما بشار فكان يقول :
- لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه . قيل له :
- أو كذلك الخنساء، فأجاب :
- تلك، فاقت الرجال .

وهناك قول آخر في تقويم الخنساء : «لم تكن قط امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها» .

ويروى أن النابغة الذبياني كان يجلس حكماً في موسم عكاظ، فتقدم منه الأعشى وحسان بن ثابت وأنشداه شعرهما . ثم جاءت الخنساء، فأنشدت شعراً يفوق شعرهما، وأعجب النابغة فقال لها :

- والله، لولا أن أبا بصير سبقك، فأنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر من بالموسم .

وفي رواية أخرى :

- لولا أن هذا الأعشى سبقك لقلت إنك أشعر الأنس والجن .

* * *

وهذا كله، إن دل على شيء، فعلى التقدير الكبير، الذي كانت تحظى به الخنساء . فقد أنصفها زمانها، ومدحها النقاد القدامى والجدد . واعتبروا قصائدها، والتي لم تتجاوز أطولها خمسة وثلاثين بيتاً، من أعظم ما جادت به قرائح شعراء عصرها، وحتى العصور التي تلت .

كما أنها خلفت في مرثياتها السبعين التي قالتها في أخيها صخر، شعراً لم يقو الزمن أن يقلل من شأنه، أو يؤثر في قيمته .

ليلى الأخيلية

«ولو أن ليلى سلّمت عليّ
ودوني جندلٌ وصفائحُ
«لسلّمتُ تسليمَ البشاشة أو زقا
إليها صدى من جانب القبر صائحُ»



ان يجتاز اسمها تلك المسافة الزمنية، ويبقى موحياً، فهو حقاً اسم جدير بالتخليد.

ليلى الأخيلية: قرأناها شاعرة، كما قرأنا قصائد شاعرها المتيم بها توبة.

وثبت شعرها أمام جرف الزمن. لكن الذي يطغى على الشعر هو حكاية المرأة.

* * *

ولا يسعنا أن نفصل حكايتها عن الزمن الذي أطلعها. ثم أعطاها فرصة الانطلاق، فقول الشعر، فالمجاهرة بحبها لرجل شاعر، اختارته واختارها، في عصر كانت فيه المرأة قابعة خلف الحجب والستائر، وخلف جدران الاقاويل والحكايات.

أي أن امرأة ذلك الزمان، كانت لا تزال عنصراً سلبياً، تتلقى وترد الفعل، توحي ولا تفعل. إنما، كانت في الجدار الكثيف، بعض ثقوب تخترقها النساء، إذا كن شاعرات، أو من مستوى اجتماعي رفيع. وقدمت مثالاً شاعرة كانت لا تزال تعتبر من سيدات الشعر في كل العصور، وأعني الخنساء، التي سبقت الأخيلية إلى قول الشعر ونقلته إلى أرفع المنابر، حين كانت ترتاد سوق عكاظ،

حاملة ثقتها بشعرها، تنافس به جهابذة الشعر في عصرها.

وليلى الأخيلية شاعرة، ولكن من وزن آخر، من لون آخر. وإذا كان رثاء الخنساء لأخويها، سبب شهرتها وخلودها، فإن شعر الرثاء هو ما حمل اسم الأخيلية عبر العصور، ليبلغنا محاطاً بهالة من الشجاعة والوفاء.

* * *

لا نعرف تماماً تاريخ ولادة ليلى بنت الأخيل (بن ذي الرحالة بن شداد بن عبادة بن عقيل) إنما نعرف تاريخ وفاتها كما تناقله المؤرخون ـ أي سنة ثمانين للهجرة، وهذا يعني أن الشاعرة ولدت وترعرعت في القرن الأول للإسلام.

ويتابع المؤرخون وكتاب السيرة وصف شخصية ليلى، فيخبروننا بأنها كانت جميلة، فصيحة، متقدمة بين شعراء العصر الأموي. ولم تتوقف ثقافتها على قول الشعر، بل كانت تحفظ انساب العرب وأيامها وأشعارها.

وهذا يؤكد لنا بأن المرأة العربية آنذاك، لم تكتف بما انفطرت عليه من المواهب، بل كانت تزيد على الموهبة الشعرية المعرفة. وتنهل من كف عصرها العلوم المتوفرة في حينه، وعلم الأنساب واحد منها، كذلك حفظ التاريخ ونقله من جيل إلى جيل.

* * *

إنما هذا كله يبقى ظلالاً للموضوع الأهم خلف شهرتها، وأقصد توبة بن الحمير العقيلي، أحد بني خفاجة. وكان هو يبادلها الهوى. ولم يبق ذلك سراً طي الكتمان، بل جهرت به شعراً تناقلته عنها الألسن، وروي في المحافل، ثم سجل في كتب الأدب ليحفظه بعدها جيل عن جيل.

وكان توبة فارساً شجاعاً كريم الأخلاق، فصيحاً، وشاعراً. ومن بعض شعره في ليلى:

«ولو أن ليلى سلّمت عليَّ ودوني جندلٌ وصفائحُ

لسلمتُ تسليم البشاشة أوزقا   إليها صدى من جانب القبر صائحِ »

* * *

وإذا اعترانا العجب من تناقض الكلمات، في شعر توبة، وتجاذبه بين طرفي الحب والخطر، الحياة والموت، فذلك أن الشاعر كان مقاتلاً، وكان شجاعاً باسلاً، وهذا من شأنه أن يدفعه إلى المغامرة بحياته. كما أنه من أعمق الأسباب التي دفعت شاعرة متميزة باتجاهه، إذ كانت صفة الشجاعة من أبرز صفات الرجل المطالب بالذود عن الحمى.

وحدث ما سبق لتوبة أن توقعه ولو في لمحات الشعر، فقد قتل في إحدى الغزوات، ولما بلغ نعيه ليلى، حزنت عليه حزناً شديداً، وخلعت للتو، زينتها، وارتدت ثياب الحداد، ثم راحت تقول فيه شعر الرثاء. وهو من أجمل ما قالته من شعر.

ويتخلل رثاءها الفخر بشجاعة الفتى، وهذا يذكرنا مرة أخرى، بالخنساء، مع العلم أن الخنساء لم تقل شعرها في الزواج أو الحبيب، بل في الأخ الباسل.

ومن أشهر ما قالته ليلى:

«لبّيك العذارى من خفاجة كلها   شتاءً وصيفاً دائبات ومربعا
على ناشيء نال المكارم كلها   فما أنفك حتى أحرز المجد أجمعا»

* * *

من خلال كلماتها، نعلم أن توبة كان في مطلع الشباب، ولكنه برغم صغر سنة، فقد نال المجد، وقطفه ثمناً لشجاعته وإقدامه.

ونتابع قراءة ملامح توبة، عبر هذه الأبيات الشعرية التي تذوب رقة، فإذا هو:

«فتى كان للمولى سناء ورفعة   وللطارق الساري قرى غير غامر

فتى هو أحيا من فتاة حيية وأشجع من ليث بخفان خادر»

ونحن لا نقرأ ملامح توبة وحسب، بل العادات السائدة في ذلك الزمان، والتقاليد الاجتماعية، إذ كان الشعر يحمل هم الناس، ويسجل الأحداث ويضع أطرها.

ثم نعود ونستأنف القراءة من شعر الأخيلية:

«أقسمت أبكي بعد توبة هالكا وأحفل من دارت عليه الدوائر»

هذا الذي التزمت به الشاعرة، وبقيت وفية لكلمتها، فلم تقل سوى شعر الرثاء.

وكأنها تسمع من يعيب على فتاها موته، فإذا بها تنتفض لتقول:

«لعمرك ما بالقتل عار على الفتى إذا لم تصبه الحياة المعاور»

* * *

ويسافر شعرها عبر الصحراء، ويرويه الرواة، وينتشر اسم ليلى الأخيلية، فإذا هي بطلة. خصوصاً وانها لم تلبث جامدة، مكتفية بذرف الدمع، بل التزمت بخط سار عليه توبة من قبلها، وخرجت في صفوف النساء المقاتلات.

ولا نعلم الكثير عن أخبارها، في المعارك، وأشهر ما بلغنا حكايتها مع الخليفة معاوية. فقد لمحها فوق ظهر الجواد، وظنها فارساً، فأمر أحد أتباعه بأن يلحق به، ويحضره. وجرى رسول معاوية خلف الفارس المزعوم، يناديه، فإذا هو فارسة، وانكشف سر ليلى فواجهته بقولها:

«معاوي لم أكد آتيك تهوى برحلي نحو ساحتك الركاب
تجوب الأرض نحوك ما تأنى إذا ما الأكم قنعها السراب
وكنت المرتجى وبك استعاذت لتنعشها إذا بخل السحاب»

* * *

فارسة وسرعة خاطر؟ . . وبديهة حاضرة، أعجبت معاوية. وكان قد سمع حكايتها مع توبة، فسألها:

ـ ما حاجتك يا ليلى؟ أجابت:

ـ ليس مثلي يطلب إلى مثلك حاجة، فتخيّر أنت.

ويقال بأن معاوية وهبها خمسين من الإبل. ثم، وكأنه شاء استجوابها فسألها:

ـ ويحك، يا ليلى، أكما يقول الناس، كان توبة؟ . . . فقالت:

ـ يا أمير المؤمنين: ليس كل الناس يقول حقا. ثم تابعت بفصاحة:

«الناس شجرة بغي، يحسدون النعم حيث كانت، وعلى من كانت. وتوبة كان سبط البنان، حديد اللسان، شجى للأقران، كريم المخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر».

وتمادى معاوية في معاكستها فقالت شعراً تمدح فيه توبة، فقال لها:

ـ إنك تبالغين. أجابت:

ـ بل أنا مقصرة يا مولاي. وعاد معاوية يسألها:

ـ في أي سن كان؟ . . قالت:

«أتته المنايا حين تمّ تمامه ... واقصر عنه كل قرن يصاوله
وصار كليث الغاب يحمي عرينه ... وترضى به أشباله وحلائله
عطوف حليم حين يُطلب حلمه ... وسم زعاف لا تُصاب مقاتله»

ويبدو أن شعر ليلى أقنع معاوية ونال إعجابه، فأفسح لها المجال كي تمضي.

* * *

وكان لها حوار مع كل من مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان. كما

مدحت الحجاج فقالت:

«إذا ورد الحجــاج أرضاً مـريضــة　　تـتبــع أقصى دائـهــا فـشـفـاهــا
شفـاها من الـداء العضال الـذي بها　　غــلام إذا هــز الـقنــاة سـقــاهــا»

ورغب في محاورتها فقال:

- لا تقولي: يا غلام، ولكن قولي: همام. ثم سألها:
- أي النساء أحب إليك أنزلك عندها؟. . قالت:
- ومن نساؤك أيها الأمير؟. . قال:
- أم الجلاس، بنت سعيد بن العاص الأموية، وهند بنت أسماء بن خارجة الفزرية، وهند بنت الملهب بنت أبي سفره العتكية. قالت:
- القيسية أحب إلي، وتعني هند بنت أسماء.

فلما كان من الغد، دخلت عليه، فقال:

- يا غلام، أعطها خمسمائة. قالت:
- أيها الأمير، احسبها أدما (وتقصد الإبل البيضاء) فقال قائل:
- إنما أمر لك بشاة. قالت:
- الأمير أكرم من ذلك.

ويقال: إنه جعلها إبلاً اناثاً على استحياء، وكان قد أمر لها بشاة أولاً.

وفي مجال آخر، يذكر المؤرخون بأن ليلى هاجت النابغة الجعدي وأثارته، فقال فيها شعراً يهجوها، ويحاول أن يحط من مقامها، ومن بعض قوله:

«ألا حيّيا ليلى وقـولا لهـا: هــلا　　فـقــد ركبـت أمــراً أغــر محجــلا»

و «هلا» هذه تستعمل لزجر الفرس، فثارت الشاعرة وهجته بكلام لا يخلو من قسوة، ومنه:

«أنــابــغ لم تـنــبــغ ولم تــك أولا　　وكنت صنيــا بـين صنيــين مجهــلا»

وبالطبع، حوار النابغة والاخيلية لم يقتصر على هذين البيتين؛ إنما نذكر هذا النموذج، لنشير إلى موقف شجاع وقفته الشاعرة، دون أن تتردد في مواجهة أحد كبار الشعراء في زمانها.

ونحس، ونحن نقرأ سيرة هذه الشاعرة، بأن ما وصلنا عنها ليس سوى إشارات مختصرة، لشخصية هامة، ويبقى أمام الباحثين أن يتوغلوا لاستقصاء الجوانب الخفية، والتي بقيت في الظلام، لأسباب يصعب علينا تحديدها.

ولا أجد خاتمة، لكلمتي عنها، أفضل من هذا البيت الشعري الذي قالته في وصف الحياء لدى أحد الفتيان:

«فتى هو أحيا من فتاة حيية   وأشجع من ليث بخفان خادر»

أروى الصليحية

«يا سيدتي، أبصرتُ في المنام أن في يدي مكنسة أكنس بها قصر الملك علي الصُليْحي».



تـطلع من قلب التاريـخ العربي، أسـطورة مشت فـوق أرض «اليمن» قبـل ألف من السنين.

تلك هي «أروى الصليحيـة» المـرأة التي حكمت اليمن من سنـة ١٠٩٨ ـ ١١٣٨ م (٤٩٢ ـ ٥٣٢ هـ). وقد فرض حكمهـا الهيبة، والاحتـرام، والسيادة، دون أن يفقدها محبة رعيتها، تلك المحبة التي كانت تقرب من العبادة في كثير من الأحيان.

وإذا عـدنا بـالذاكـرة، إلى تلك الحقبة من تـاريخ العـرب، نجـد أن تـولي «أروى» الحكم، كان أقرب إلى الأساطير الخارقة، إذ كانت المرأة، في زمانها، لا تزال محتقرة، راسفة في أغلال الجهل، قابعة خلف كثافة الظلمات.

وأطل وجه «أروى» مثل نجمة مشعة، وسط الظلام الدامس. وأطل ليؤكـد أن المـرأة، إذا تسلحت بـالكفـايـة والعلم وقـوة الشخصيـة، يمكنهـا أن تـذلـل العقبـات، وتنجح في مسعـاها، مهـما كانت الـطرق الموصلة إلى الهـدف، شاقـة وعسيرة.

* * *

ولدت «أروى» في مدينة «عدن»، سنة ١٠٤٦، وكانت لا تزال طفلة، حين توفي أبوها، «أحمد الصليحي» تحت أنقاض منزله المنهار، فكفلها قريبها الملك «علي الصليحي»، وعهد بتربيتها إلى زوجته «أسماء» التي كانت من أقدر نساء زمانها، ذات شخصية قوية، ورأي سديد، وفطنة وشجاعة.

ويروى عن الملك قوله: «يا أسماء، أكرميها، فهي والله، كافلة ذرارينا، وحافظة هذا الأمر على من بقي منا».

وكان يعني بقوله أن «أروى» سوف تكون وفية، وتحفظ الجميل للأسرة التي احتضنتها، ولم يكن الملك يعلم أن كلماته تلك، أقرب إلى النبوءة التي تكفل الزمن بتحقيقها فيما بعد.

* * *

يروي المؤرخون، أن «أروى» جاءت «أسماء» ذات صباح وقالت لها:

- يا سيدتي، أبصرت في المنام، أن في يدي مكنسة أكنس بها قصر الملك «علي الصليحي».

أصغت إليها أسماء بإمعان قبل أن تجيب:

- يا «أروى»... كأني بك والله، قد كنست آل «الصليحي» وملكت عليهم أمرهم.

هذا الكلام، أصبح واقعاً، فيما بعد، عندما توصلت الطفلة اليتيمة «أروى» إلى سدة الحكم.

* * *

كان من الطبيعي أن يعهد إلى «أسماء» لتختار زوجاً لابنها «أحمد المكرم» وأرث العرش، ووقع اختيارها على «أروى»، الفتاة التي تربت على يديها، وخبرت عن قرب حسن أخلاقها، وعمق ذكائها، إلى جمال يلفت الأنظار، كان

يـزيد في قيمـة الصبية، فهي «بيضـاء البشرة، ورديـة الخدين، مـديدة القـوام، معتدلة البدن، كاملة المحاسن، جهورية الصوت وتميل إلى السمنة» وكلها مزايـا محببة في نساء ذلك الزمان.

وقـد تم زواج «أروى» و«المكرم» ولهـا من العمر ثمـاني عشرة سنـة. وجعل الملك الأب مهرها مدينة «عدن». وقد كان زواجاً موفقاً أثمر أربعة أولاد، هم: «علي» «محمد» «فاطمة» و«أم همدان».

* * *

انصرفت «أروى» إلى رعاية شؤون منزلها وعائلتها، وعندما انتقل الحكم إلى يد زوجها «المكرم» أثر وفاة والده، صار يلجأ إليها، ويستشيرها في أمور تخص إدارة الدولة وشؤونها، وذلك لما عرف عنها من صواب في الرأي، وحكمة وتعقل.

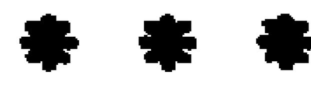
وقد لقبوها «بلقيس الصغرى» نسبـة إلى «بلقيس» ملكة «سبـأ». وبناء عـلى اختيار «أروى»، انتقلت العائلة المالكة من «صنعاء» إلى مدينة «ذي جبلة» لتقيم في قصر «دار العز» شتاء. أما في الصيف، فكانت تنتقل إلى حصن «التعكر».

لم تكن حيـاة «أروى» حياة دعـة واسترخـاء. فهي، منذ فتحت عينيهـا على الوجود، والمعارك تدور بين بني قومهـا، وقد قتـل الملك «علي» والـد زوجها، في إحدى تلك المعارك، وانتقل الحكم من بعد إلى ابنـه «المكرم» الـذي لم يلبث هو الآخر، أن أصيب في معركة «زبيد» إصـابة بـالغة، سببت لـه الشلل، فاحتجب عن الناس، وفوض زوجته إدارة شؤون الدولة.

وهكذا تصدّرتْ «أروى» واجهة الحكم، بعدما كانت تحكم من وراء الستار. وباتت هي المنفذ الأول، بعد أن كـانت مستشارة زوجهـا. وازداد شأنها حين توفي الزوج، وفوضها الخليفة الفاطمي «المستنصر» بتصريف أمور الدولـة، والوصاية على ابنها «علي» ولي العهد، والذي لم يكن يجاوز العاشرة من عمره.

كان الخليفة يعـرف «أروى» جيداً، ويعلم أنها «أمـرأة فاضلة، ذات نسـك

وورع، وفضل وكمال عقل، وعبادة وحلم. . . وهي قارئة كاتبة، تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ وأيام العرب «كما كانت متبحرة في علوم الدين. وهذا ما جعله يخلع عليها لقب «سيدة ملوك اليمن» و «ولية أمير المؤمنين». وهما لقبان يندر أن تحصل عليهما امرأة.



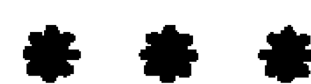
وارتفعت أروى إلى مستوى المسؤولية، فبدأت أمور المملكة تنتظم حال تسلمها زمام الحكم. لكن الإرث الذي انتقل إليها مع الحكم كان مثقلاً بالديون. «فسعيد الأحول» قاتل الملك الكبير، والد زوجها، ثم قاتل زوجها من بعد، كان لا يزال على قيد الحياة، وتصدت له في إحدى المعارك وهزمته. لكن ذلك لم يرح بالها نهائياً.

فوضعت مع قائد جيشها خطة تمكنت بواسطتها من استدراج عدوها والقضاء عليه، مع معظم أفراد جيشه.

لكن الأمور لم تستقر باختفاء «سعيد الأحول» عن المسرح. إذ بدأت منازعات «الصليحيين» «والزواحيين» فشغلت الملكة بذلك فترة من الزمن، ثم تمكنت من إنهاء الخلاف، بما لها من حكمة وجدارة في إدارة الشؤون السياسية.

والمرأة، التي كانت تسير من نصر سياسي إلى نصر، كانت في حياتها العائلية، تتلقى الكارثة تلو الأخرى. فبعدما فقدت زوجها توفي ولداها «محمد» و «علي» وبقي لها من أولادها ابنتان.

هذه الكارثة العائلية، أيقظت الطمع في صدر السلطان الصليحي «سبأ» المتربص بها، فجاء يطالب بحقه في تولي أمور الدولة. لكن «أروى» خيبته، فلجأ إلى وسيلة أخرى، لينال مبتغاه.



اعتقد «سبأ» أنه يتمكن من حل المشكلة بالزواج من «أروى». لكنها

رفضت طلبه مرة أخرى، فجمع جيشاً وقصدها، وفي نيته أن يذر الرعب في قلبها، ويظهر تفوقه عليها، فترضخ.

لكن «أروى» لم تصمت له، فجمعت جيشها بالمقابل، وكادت المعركة أن تقع بين الصليحيين لو لم يتدخل خال الملكة، «سليمان بن عامر الزواحي»، فأنقذ الموقف، حين طلب إلى السلطان «سبأ» أن يتصل بالخليفة ويأخذ رأيه في حل هذه المشكلة.

فأذعن «سبأ» للنصيحة، وتخلى عن أسلوبه العسكري، فبعث إلى الخليفة رسولين.

* * *

اقترح الخليفة أن يعقد زواج «أروى» على السلطان «سبأ» كي تحل المشكلة، وبعث إلى الملكة برسالة خاصة، يطلب إليها أن ترضى بهذا الزواج.

وقد عارضت «أروى» طلب الخليفة، بادىء الأمر، لكنها لم تلبث أن رضخت، أمام الضغوط السياسية، وعقد الزواج... وكان أطرف زواج في تاريخ الملوك.

بقيت «أروى» في قصرها «دار العز» بعد عقد الزواج. وقصدها السلطان سبأ فلم تقابله، واكتفت بإرسال جارية من جواريها. وثارت كرامة السلطان، فأعاد الجارية مزودة برسالة تحمل ثورة نفسه الأبية، وردود فعل كرامته المهانة. لقد أدرك أن أروى قبلت به زوجاً سياسياً نزولاً عند طلب الخليفة، لكنها رفضته كرجل يكون زوجها في المعنى الشرعي.

وهكذا قضى ليلة واحدة في أحد أجنحة القصر ليوهم الناس بأن الزواج كامل، ثم غادره مع فجر اليوم التالي وأقام في حصنه «الأشيح». وظل سبأ الزوج السياسي، يمد يد العون إلى «أروى» حتى وافاه الأجل.

لقد نجح هذا الزواج في تهدئة الأوضاع لفترة من الزمن، لكن بعد وفاة

«سبأ» خرجت «صنعاء» وضواحيها عن مملكة الصليحيين. ولم تسع «أروى» إلى استعادتها، بل وجهت اهتمامها إلى تثبيت ما بقي من المملكة، وظلت في الحكم حتى وافاها الأجل، وكان لها من العمر اثنتان وتسعون سنة. ودام حكمها ما يقارب الأربعين سنة، وبوفاتها انتهى حكم الصليحيين في «اليمن».

ومما يجدر ذكره، أن «أروى»، إلى جانب حزمها السياسي، اهتمت بالمشاريع العمرانية والاقتصادية، واستعانت بمستشارين من الدول الأخرى، على غرار ما يحصل في عصرنا الحاضر، وأقامت شبكة مواصلات، وبنت المدارس، والمساجد، وجرّت المياه إلى القرى والمدن. وعرف عنها احترامها لإيمان الغير من المذاهب الأخرى، إذ تركت لكل فئة، الحرية في ممارسة معتقداتها الدينية.

وقد كتبت الملكة وصيتها قبل وفاتها بسنتين، وفيها تعدد ثروتها الطائلة، وكنوز التاج النادرة وقد وهبتها بعد وفاتها «قرباناً تقربت به إلى ولي الله الإمام الطيب أبي القاسم، أمير المؤمنين، لما ترجوه من ثواب الله، وتأمله من رضوانه، والزلفة لديه، ولتكون يوم الفزع الأكبر من الآمنين».

من وصيتها:

«.. وأوصت، متى حدث لها حدث الموت، الذي جعله الله حتماً على عباده، وساوى بين القوي والضعيف، والمشروف والشريف، عدلاً في قضيته، ونفاذاً لحكمه في بريته، أخرج عنها، من جميع تركتها، جميع الأشياء المسلمة الموصوفة في هذا الكتاب وهي الأشياء التي:

منها عصابة ذهب كبيرة مفصصة، واسطتها ياقوتة حمراء، ويليها من يمين ويسار، درتان، ويليها ياقوتتان زرقاوان، ويلي هاتان درتان لطيفتان، يحيط بالجميع من ذلك خيطا لؤلؤ، أحدهما لؤلؤه لطيف، عدده مائتا حبة وحبة واحدة، والآخر لؤلؤه لؤلؤ كبار، عدده مائتان لؤلؤة، ولؤلؤتان وزن جميع ذلك سبعون مثقالاً.

ومنها عصابة ذهب بيضاء، فيها مائة حبة لؤلؤ، وست وعشرون حبة لؤلؤ مفصصة، واسطتها لؤلؤة لُطيفة، ويليها من يمين ويسار فصان أحمران، ويلي هذين الفصين فصوص حمر، وزرق، وخضر، وزن الجميع من ذلك ثلاثة وأربعون مثقالاً.

ومنها عصابة ذهب أيضاً، منجمة بلؤلؤ، في واسطتها فص ياقوت أزرق، وثلاثة فصوص عن يمينه ويساره، حتى انتهى إلى فصين أخضرين في الطرفين، عدد لؤلؤه مائة لؤلؤة، واحدة اثنتان وثلاثون لؤلؤة وزن الجميع من ذلك تسعة وثلاثون مثقالاً.

ومنها عصابة ذهب أيضاً، مفصصة بفصوص منجمة بلؤلؤة، قد انقطع من فصوصها فص، عدد لؤلؤها مائة لؤلؤة واحدة وست وعشرون لؤلؤة، وزن الجميع من ذلك ثمانية وثلاثون مثقالاً.

ومنها قبلة لؤلؤ، عدد لؤلؤها مائة لؤلؤة، وتسع عشرة لؤلؤة بفرائد ذهب، وزن الجميع أحد عشر مثقالاً.

ومنها ست وتسعون درة، من جملة ذلك، عشرون درة علامية، وإحدى وتسعون فريدة ذهب، وزن الجميع من ذلك أربعة وثلاثون مثقالاً.

ومنها ست عشرة ضبية بفرائد ذهب، وخيوط ذهب، عدد لؤلؤها مائتا لؤلؤة، وثمان وأربعون لؤلؤة، وزن جميع ذلك، ثلاثة وثلاثون مثقالاً ونصف مثقال.

ومنها اثنان وعشرون لوح ذهب ولاجستان، في الجميع من ذلك مائة حبة واحدة، وثمان وتسعون حبة لؤلؤ بفرائد ذهب، وزن جميع ذلك خمسون مثقالاً.

ومنها ثلاث وعشرون ضبة أيضاً، بفرائد ذهب مفكن بخرز أخضر، عدد لؤلؤه ثلاثمائة وثمان وستون لؤلؤة، وزن الجميع أربعة وعشرون مثقالاً.

خولة بنت الأزور

«أيها الأمير،

إني لم أعرض عنك، إلاّ حياءً منك».



أسطورة تزحف من بطن التاريخ العربي، وتصل إلينا عبر الحكايات وما حفظه الرواة: خولة بنت الأزور، الفارسة العربية الشجاعة.

برزت في مرحلة دقيقة من التاريخ العربي، وفي فترة احتدم فيها الصراع بين الجيش العربي وجيوش الروم. وقد انتدب الخليفة آنذاك، القائد الشهير خالد بن الوليد، ليكون على رأس المعركة الدائرة في ديار الشام، وذلك لما أظهره من كفاية في الحروب.

* * *

وكان خالد بعيداً عن تلك الساحة، ومنشغلاً في مقاتلة الفرس على الجبهة الشرقية. وقد استدعي على عجل، فلبى النداء، وقطع الصحراء في مدة عشرة أيام. وهذا رقم قياسي في السرعة نسبة للمواصلات المعتمدة في ذلك الحين.

وحين بلغ ناحية دمشق، بدأ يجمع القوات، ولم تكن لتزيد على الخمسين ألفاً، ليواجه بها جيوش الروم، وكان عددها يتجاوز المائتي ألف.

هذا هو التاريخ، وفوق صفحته تكتب خولة قصة البطولة. فقد كان لها أخ يدعى ضرار. ولم يكن في مركز القيادة، إنما اشتهر ببسالته، ومقدرته النادرة على

القتال، فهو، على ما يخبرنا الرواة، إذا استل سيفه، واعتلى صهوة جواده، بعث الرعب في نفوس الفرسان وباتوا يفرون من دربه في كل اتجاه.

وعرف عن ضرار أنه لم يكن يرتدي درعاً يصد عنه الضربات، أو خوذة تحمي رأسه، بل كان يهبط ساحة الوغى، عاري الصدر أشعث الشعر، لا يهاب الموت.

* * *

أما خولة، فلم تكن تقل عن أخيها شجاعة. والذي ساعدها في إبراز تلك الشجاعة، ووضعها على محك التجربة، أن القائد الكبير، خالد بن الوليد، دفع المرأة لتشارك القوات المحاربة، في القتال، وتضميد الجراح وإعداد الطعام.

وكانت خولة امرأة جميلة، ذكية وباسلة. وهذا ما جعلها تتبوأ مركز القيادة النسائية وتبث الحماسة في صدور رفيقاتها، فيقدمن على خوض المعارك دون تردد أو وجل، وكأنهن متمرسات في القتال منذ عهود بعيدة.

وفي أوج احتدام المعارك تبلغت خولة نبأ اعتقال أخيها في وقعة أجنادين، شرق مدينة القدس.

ويحدثنا المؤرخون أن القائد كان قد سار في طليعة جنده، لإنقاذ ضرار. وبينما هو في الطريق، مر به فارس «معتقل رمحه، لا يبين منه إلا الحدق، ويقذف بنفسه لا يلوي على ما وراءه، حتى أدرك جند الروم».

ونتابع الرواية التي تقرب من الأسطورة: «تساءل خالد من يكون الفارس الملثم؟... ثم لحقه مع جنده حتى أدرك جند الروم. وكان الفارس يهاجم أعداءه، ويصيح بهم صيحات مرعبة، ويحطم مواكبهم، ويجول بينهم، ويضرب بسيفه في كل اتجاه، حتى قتل منهم عدداً كبيراً...»

بعض الجنود ظنوا الفارس خالداً وقد تخفى حتى لا يلحظه العدو. بينما القائد نفسه كان في حيرة من أمر هذا الفارس العجيب.

وسأله رافع بين عميرة:

ـ من الفارس؟ فأجابه خالد:

ـ والله لأنا أشد إنكاراً وإعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائله.

وكانا يتابعان الحديث، حين ظهر الفارس «مثل الشهاب الثاقب، والخيل تعدو في أثره، وكلما اقترب واحد، ألوى عليه وجندله».

ولما التقى جنود خالد، التف هؤلاء حوله، يسألونه عن اسمه: ويقال بأن خالداً ناشده ليرفع اللثام. ولما ألح عليه قال له:

ـ أيها الأمير، إني لم أعرض عنك إلا حياء منك. فأنت أمير جليل، وأنا من ذوات الخدور، وبنات الستور، وإنما حملني على ذلك أني مسحوقة الكبد، زائدة الكمد.

* * *

شجاعة قلب، وفصاحة لسان؟!. والقائد يزداد عجباً، ويطلب من الفارس أن يكشف عن حقيقته. وهكذا أسقط في يد خولة فقالت:

ـ أنا خولة بنت الأزور أيها الأمير. كنت مع بنات قومي، حين أخبروني بأن أخي أسير فركبت، وفعلت ما رأيت بأم عينك. فصاح خالد في جنده، كي يحملوا معها ويتابعوا القتال، كي ينقذوا أخاها.

* * *

ولخولة موقف آخر من مواقف البطولة والشجاعة والدهاء. فقد أُسرت مع عدد من النساء في موقعة صحورا، فقامت تخطب فيهن، وتدعوهن إلى القتال، حتى لا يقعن جاريات في أيدي الأعداء.

وانبرت لها إحدى النساء، واسمها نويرة فسألتها:

ـ وما ترانا نفعل، يا أختاه؟.. ونحن لا قدرة لنا على القتال، ولا سلاح

بين أيدينا؟ . . . فردت خولة:

ـ لكننا لا نعدم الحيلة. إفعلن ما أوصيكن به. قالت نويرة:

ـ نفعل ما ترتئين. فنحن نفضل الموت على الأسر.

ـ إذن، إفعلن ما أقترح عليكن. خذن أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب، لنحمل على هؤلاء اللئام، فلعل الله ينصرنا.

قالت لها عفراء بنت عفار:

ـ والله ما دعوت إلا إلى ما هو أحب إلينا مما ذكرت. . .

ثم تناولت كل واحدة منهن عموداً من عمد الخيام، وألقت خولة على عاتقها عمودها، وسارت خلفها النساء. فقالت لهن:

ـ لا ينفك بعضكن عن بعض. وكن كالحلقة الدائرة، ولا تتفرقن، فيقع بكن التشتت، واحطمن رماح العدو واكسرن السيوف.

ويعتقد الرواة أن اقتراح خولة كان خطة حربية، لا تقل دهاء وذكاء عن خطة كبار القادة، خصوصاً وأنها لجأت إلى الحيلة، فأرسلت بعض الفتيات لكي يتوددن إلى الحراس، بينما قامت هي وبعض رفيقاتها، بالهجوم عليهم، وانتزعن منهم سلاحهم، ثم هجمن جميعهن على مركز القائد الرومي، وكان لاهياً مع رفاقه، غير مبال بأولئك النسوة المعتقلات.

وبالطبع، كان الهجوم مفاجأة، وراحت النساء يضربن كل من طلع في الدرب من الجنود. وأوقعن في صفوفهم البلبلة، والارتباك.

ويرى بعض المؤرخين، أن هذه الهجمة التي جاءت من حيث لم يحسب العدو، ساعدت آنذاك في تحرير دمشق. وخرجت خولة من تلك المعركة مظفرة وهي تقول:

نحن بنات تبع وحمير   وضربنا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تسعر   اليوم تسقون العذاب الأكبر

وماذا عن ضرار؟

طبعاً، علم بأن أخته وقعت في الأسر، وقبل أن يتبلّغ خبر بطولتها، تحرك مع جماعته، لتخليصها، وخرج الجيش العربي من تلك المعركة منتصراً، وتابع مسيرته نحو حمص وحماه. لكن ضراراً وقع في مكمن نصبه له أعداؤه في مكان يعتقد أنه مرج دابق. ولما علمت خولة بذلك حاولت أن تساعده، لكن سبقها خبر مقتله، فرثته بقصيدة من حرقة القلب ولوعة العاطفة:

«ألا مخبر بعد الفراق يخبرنا فمن ذا الذي يا قوم أشغلكم عنا
فلو كنت أدري أنه آخر اللقا لكنا وقفنا للوداع وودعنا
ألا يا غراب البين هل أنت مخبري فهل بقدوم الغائبين تبشرنا
لقد كانت الأيام تزهو لقربهم وكنا بهم نزهو وكانوا كما كنّا
سلام على الأحباب في كل ساعة وإن بعدوا عنا وإن منعوا منا»

ولها في رثائه قصيدة أخرى تذكرنا بتلك الشاعرة الكبيرة الخنساء، ورثائها لأخويها. وتفجر الشعر، يشير إلى أن المرأة، كانت على جانب من الذكاء ورهافة الحس. أي أنها جمعت في شخصيتها، الاقدام والشجاعة، ثم الشعور الرقيق، والحس المرهف. وهذا دليل غنى في نفسها، كما أنه إشارة إلى الوجوه المتعددة التي كانت تطل بها المرأة، على العالم، في زمن موغل في القدم.

* * *

أما قصيدة خولة الرثائية في أخيها فنجتزىء منها بضعة أبيات:

أبعد أخي تلذ الغمض عيني فكيف ينام مقروح الجفون
سأبكي ما حييت على شقيق أعز عليّ من عيني اليمين

هذا كل ما بلغنا من حكاية خولة، التي سجلت بطولة خارقة للمرأة العربية، وبرهنت أن النساء، إذا أعطين الفرصة للعمل والمشاركة في أي مجال، لا يتخلفن، ولا يقصرن. وبإمكان الواحدة منهن أن تكون رفيقة الرجل، حتى

في أعنف الأزمات، وفي أصعب المواقف.

ويكتفي الـرواة من سيرة خـولة بهـذا القدر. فهم لم يخبـرونا كيف عـاشت البـطلة بعد أخيهـا، وفي أيام السلم. ولا نـدري إذا تزوجت أم بقيت عـزباء ؟ وهل تابعت قول الشعر، أم اكتفت بالزهيـد الذي وصلتنـا أخباره؟ وقـد توفيت في عهـد خلافـة عثمان بن عفـان. أي في القـرن الأول الهجـري. لكنهـا بقيت مثـالاً خارقـاً للشجاعـة، وظلت بطولتهـا تلهم الشعراء والكتّـاب، حتى يـومنـا الحاضر.

وَلاّدة بنت المستكفي

«... وبي منكَ ما لو كان بالشمس لم تلح
وبالبدرِ لم يطلع وبالنجمِ لم يسْرِ».



صعب أن تكتب بالنثر حكاية قصيدة. إنك، حينذاك، تشعر بأن الكلمات تفقد بهاءها، وتهرب منها الألوان. وولّادة هي تلك القصيدة الأندلسية الرائعة.

نطالعها من بعد ألف عام، ويشرق وجهها، بـل يشع، مثـل نجوم الليـالي الأندلسية الصافية... مثل تدفق الجمال بين الخمـائل والقصـور، وفيض الشعر النبيل، من قرائح النابغين والنابغات الذين طبعوا تلك الحقبة الفريدة في تـاريخ العرب، بطابع خاص، ومميز، عجز مـر السنين، عن محـو آثاره، أو التقليـل من أهميته.

* * *

ولّادة، بنت المستكفي بالله، ولّادة، الأميرة، الشاعرة، صاحبة أول صالون أدبي في الأندلس.. امرأة رائعة، من عصر فريد.

ثم ولّادة العاشقة... الهـائمة في حب أمـير نبيل، لُقب بـذي الوزارتـين: السيف والقلم.

كـان يرتـاد ناديهـا الأدبي، وسرعـان ما أولـع بها، ومن خـلال المساجـلات الشعرية بينهما، انبثقت إحدى أروع قصص الحب في تاريخ العرب.

في قرطبة أقامت، وفيها تألقت. وكانت قرطبة مدينة الحضارة والبهاء. فالعرب في أوج عزهم، والسيدة الأميرة حاضرة في ذلك المجتمع الذي حمل من التراث العربي بذوراً، وجدت لها، في التربة الأندلسية، أرضاً خصبة، فنمت، وترعرعت، وأتت خير الثمار.

ومثلما عرف الإنسان العربي حياة جديدة، في رحاب تلك البلاد، فإن الشعر أيضاً، انتفض، وخلع عن عاتقه ثقل السنين، وقيود التقليد، وأطل جديداً، لطيفاً، مشبعاً بالحياة، والمرح، والرقة والانتعاش.

هذا النسغ الذي سرى في مجرى الدماء الشعرية، لا يزال حياً حتى يومنا هذا، ولا تزال نكهته العذبة مستساغة وكأنه يتغذى بالزمن ولا يخضع له.

* * *

من خلال قصة ولّادة، نستطيع أن نقرأ حكاية المرأة في ذلك الزمان، خصوصاً المرأة الأرستقراطية، المنتمية إلى الطبقة الحاكمة. فالمؤرخ ابن بسام يقول فيها:

«وكانت من نساء أهل زمانها، واحدة أقرانها، حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر. وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر. يعشو أهل الأدب إلى ضياء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها. تخلط بعلو نصاب، وكرم أنساب وطهارة أثواب...».

* * *

وقد رسم غيره من المؤرخين، الصورة ذاتها، وبكلمات مختارة. ذلك أن المرأة التي تميزت بالذكاء والجمال والثقافة والشعر والأدب، كانت منارة في محيطها. حملت إلى منتداها، معطياتها الغنية.. ذلك المنتدى الذى كان «ملعباً لجياد النظم والنثر»... وخير اللاعبين، كان الوزير الذي هام بها، وراح ينظم

فيها القصائد، فلا تتهرب أو تتوارى عن الأنظار، كما عرف عن المرأة في التاريخ، بل كانت، شأن النساء المرفهات في زمانها، ميالة إلى الشعر، لا تخجل من التشبيب بمحاسنها، بل تتصدى للرجل، تقارعه الحجة بالحجة، وتواجه شعره بشعر من إبداعها. وأسقط في يد أبو الوليد ابن زيدون، فهام بها. وكان من كبار الشعراء، رفيع الشأن يتحلى بالشجاعة والنبل، وخفة الظل، وبراعة الحديث، وهي بعض الصفات المحببة في رجل ذلك الزمان. فاحتل المقام الأول في قلبها، ولما بادلته الحب والشعر، أذكى ذلك نار الحسد في نفوس من كانوا ينافسونه على قلبها، فسعوا إلى إفساد العلاقة بين المحبين... وهذا كله مسجل شعراً، في قصائد الغزل والعتاب واللوم، وكل ما يمكن أن تحمله الكلمات بين المحبين، في حالات الرضى والغضب.

* * *

قال ابن زيدون في ولّادة أروع شعره. بل إن غزله وحنينه، وفراقياته طبعت شعره وشخصيته بطابع ميزه عن غيره من شعراء عصره. وهل هناك من قرأ شعراً بالعربية، دون أن يمر بقصيدته الشهيرة، والتي مطلعها:

«أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا»

إن قلوب العشاق تهتز حتى الساعة وتمطر عيونهم دموع الحنين، وهم يعبرون مع الشاعر مضيق التجربة القاسية، والتي طردته من منتدى أميرة قلبه.

* * *

ولا بد لنا من العودة إلى المساجلات بين الشاعر والحبيبة، لنرى كم أن المرأة التي أحبها كانت منطلقة، سيدة نفسها وكلمتها. وكم كان ناضجاً الشعر الذي جعلته حواراً بينهما، بعدما نشرت مقاطع منه بالذهب فوق طرازها الأيمن، وفوق طرازها الأيسر. والطراز هو مثل الشال في لغة الزي العصري، وكان لباس الأميرات في حينه. وقد كتبت ولّادة الجريئة، على الجانب والأيمن:

«أنا والله أصلح للمعالي ... وأمشي مشيتي وأتيه تيها»

أمكّن عاشقي من صحن خدّي   وأعطي قبلتي من يشتهيها

لا، لم تكن متواضعة، ولا هي ادعت التواضع، وإن كان المؤرخون يؤكدون على عفة أخلاقها، برغم الانفتاح المأثور عنها. وإن التصرف العفيف، لم يمنعها من أن تكتب على الطراز المسدل فوق القلب شعراً.

وإن كان شعرها هذا يبدو مستهجناً اليوم، فإنه لا شك يشير إلى ما بلغته المرأة العربية في الأندلس من الاستقلال والسيادة وجرأة التصرف.

* * *

هذه الشاعرة الشجاعة، لم تكن تتهيب أن تبعث إلى الحبيب رسالة شعرية تقول فيها:

«ترقب إذا جن الظلام زيارتي
فإني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان
بالشمس لم تلح
وبالبدر لم يطلع
وبالنجم لم يسر».

وماذا يقول هو لدى الوداع؟

رائعة أخرى من روائعه لا تزال تلهم الشعراء حتى يومنا الحاضر:

«ودع الصبر محب ودعك   ذائع من سره ما استودعك
يا أخا البدر سناء وسنا   حفظ الله زماناً اطلعك
إن يطل بعدك ليلي فلكم   بت أشكو قصر الليل معك»

ويقول بعض المؤرخين والنقاد، ومنهم كرم البستاني، أن أحمد شوقي ربما استوحى منها، قصيدته الشهيرة:

«ردت الروح على المضني معك   أحسن الأيام يوم أرجعك»

وتقرأ ولاّدة ما خطه قلم الحبيب، فترد بشعرها الرقراق:

«ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيل
فيشكو كل صب بما لقي
وكنت أوقات التزوار في الشتا
أبيت على جمر من الشوق محرق
فكيف وقد أصبحت في حال قطعة
لقد عجل المقدور ما كنت أتقي
سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً
بكل سكوب هاطل الوبل مغدق».

* * *

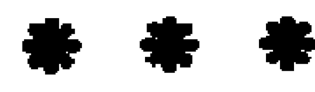
لماذا رحل ابن زيدون، إذا كانت هذه حالها وحاله؟ هناك عدة حكايات تروى عن الأسباب التي ضربت العلاقة بين المحبين. فقد جاء من يخبر ولاّدة أن ابن زيدون الذي ترفعه فوق عرش قلبها، وتفتح له صدر صالونها الأدبي، مولع بجاريتها الزنجية. فاستشاطت غضباً لا غيرة وحسب، بل كبراً وأنفة. أويجوز أن يحبها ويحب جاريتها؟ . . في أية زاوية يحشرها؟

وتثور عليه. لكن ثورتها لم تجرف كل الحنان والحب. فهي تكتب تعاتبه، وإنما بكلام لا يخلو من الرقة، بل الرجاء الذي يفضح حالها معه:

«لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا
لم تهوَ جاريتي ولم تتجبر
وتركت غصناً مثمراً بجماله
وجنحت للغصن الذي لم يثمر
ولقد علمت بأنني بدر السما
لكن دهيت، لشقوتي، بالمشتري».

وقد زادها ألماً سيل من الوشايات راحت تنهال فوق رأسها، وكلها تشير

بأصبع الاتهام إلى الحبيب الذي لم يرع العهد، ولم يحفظ الود. وفي مقدمة أولئك ابن عبدوس، وزير ابن جهور، الذي لم يخف منافسته لابن زيدون، على قلب ولّادة. ومثلما تحفر السوسة في جذور الشجر، حتى تنخره وتذبل الأغصان، هكذا راح الكلام المحمل بالسموم، يفعل في نبتة الحب اليانعة، حتى جردها من رونقها، وتركها عرضة للعواصف وتقلب الأمزجة، ثم ربطها بالتيار السياسي، فكان لا بد من نفي الوزير واقصائه عن قرطبة، وعن مدى سمع الحبيبة وبصرها.



والمرأة التي كانت «واحدة زمانها، والمشار إليها في أوانها» كانت لها ثورات شعرية جامحة، حين تشعر أن كرامتها أهينت، فتنهال على الحبيب بالهجاء والتجريح، وتلقبه «المسدس» وتقول فيه:

«إن ابن زيدون على جهله   يغتابني ظلماً ولا ذنب لي»

وتتابع الهجاء بمرارة تجعل المؤرخين والنقاد يشكّون في انتساب هذه اللهجة إلى من عرفت برقة الكلام وسمو الروح.

لكن من يستطيع أن يجزم بحكم قاطع على ردود فعل المرأة إذا ما جرحت كبرياؤها؟.. وإذا اكتشفت أن من أحبها وأحبته يفضل عليها جاريتها السوداء؟ أم أن هذه القصة من إبداع الخيال؟ بل من كلام الوشاة؟



لا نستطيع أن نصدر حكماً بالنفي أو القبول من بعد ألف سنة. ونأخذ القصة مما وصلنا على ألسنة الرواة والنقاد، وهو، بالطبع، يتناقض كل التناقض مع قولها:

«سلْني حياتي أهبْها   فلستُ أملكُ ردّك»

ولكن من يمكنه أن يرصد تقلبات مزاج المرأة؟.. والمرأة الشاعرة بخاصة؟...

* * *

وهكذا انتهى الحب الذي كان كبيراً، وغذى قريحة الحبيبين، وأعطى أعذب الشعر.. انتهى هباء، ولم يعرف عن ولّادة أنها تغزلت بغير ابن زيدون، وإن كانت لها قصائد أخرى، فهي ليست الأشهر في شعرها.

كذلك لم يعرف عنها أنها تزوجت من بعده، بل عاشت وحيدة وعمرت، حسب ما أورد «ابن بشكوال» في كتابه «الصلة» إذ قال: إنها عمرت طويلاً، ولم تتزوج قط، وقيل ماتت سنة (٤٨٠ أو ٤٨٤ هـ).

أما المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون فلا يستبعد أن تكون فكرة الصالون الأدبي النسوي في فرنسا، قد تسربت من الأندلس. وبذلك تكون ولّادة رائدة الفكرة في الغرب، مثلما كانت «علية» رائدتها في المشرق العربي فترة العصر العباسي. وهذا إن دل على شيء، فإنه دون شك، دليل واضح على المنزلة التي بلغتها المرأة في تلك الحقبة من تاريخ العرب.

كذلك تعكس ولّادة صورة المرأة الأندلسية التي عرفت التألق الحضاري والانعتاق الفكري، واختارت الشعر، أحد أرقى وسائل التعبير، اختارته وسيلتها لتعبر عن خلجات النفس.. عن الشوق والوجد، ولوعة الحب والفرح والحزن. ولم تكن تحس بأي نقص حيال الشعراء الرجال في عصرها، بل كانت تقف مساوية لهم، تخاطبهم بلغتهم، وتنافسهم في كل ما يفعلون... هذا في حين كانت المرأة الأوروبية في ظلام الجهل... غافية خلف جدار التاريخ.

الست نسب

«إنها أجمل صفحة في تاريخ أميرات لبنان».



حُكْمُ الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير صفحة مشرقة، في تاريخ لبنان، لم يستطع مرور الزمن أن يخفف من تألقها وبهائها. على العكس، فإننا، في هـذه الأيام الحالكة من تاريخنا، نتأمل في الماضي، ونتحسر على أفول الكـواكب، التي تركت في عيوننا، بعضاً من شعاعهـا، قبل أن تتوارى خلف بوابة الأبد.

* * *

وإذا شئنـا أن نبحث عن السر، بل عن خميـرة نجـاح فخـر الـدين، فـإننـا نواجه، دون شك أو ريبة، صورتها الجميلة: نسب التنوخية.. أجمـل صفحة في تـاريخ الأميـرات. والدة فخـر الدين.. «الست الكبيـرة»، حسب مـا سمـاهـا مواطنوها في زمانها، و«السلطانة» كما لقبها المؤرخون الأجانب.

من أين استمدت المرأة قوتها؟.. وما هو سرها؟ وكيف استطاعت، في تلك المـرحلة البعيدة من تـاريخنا الشـرقي، كيف استطاعت أن تـطبـع وجههـا فـوق صفحة الأحداث الجسام؟

* * *

أول من لفتني إلى أهميتهـا، عدا السـير والقصص المكتـوبـة، المؤرخ الكبـير

يوسف ابراهيم يزبك، وكان يحمل تقديراً خاصاً لابنها، حاكم لبنان النزيه. لكنه كان يرى فيها صورة المرأة القوية، الحكيمة، والناضجة. وعزا نجاح ابنها، في كل تحركاته، إلى آرائها السديدة، وإدارتها الفريدة، ونفاذ بصيرتها، وصفاء سريرتها.

وبالطبع، لم يخالفه المؤرخون، الذين جاؤوا قبله، أو بعده. فهناك اتفاق معقود، بين سائر الأقلام، حتى تلك التي صورتها روائياً، على أن «الست نسب» سيدة عظيمة، وهي تستحق منا، لا كتابة السيرة، وحسب، بل إبرازها بأحرف من نور، وذرها في عيون الناشئة، علامة تفوق، في عصر، هو كغيره من عصور السياسة في هذه البقعة من الأرض، متفجر بالأحداث، حافل بالدسائس، والحروب الصغيرة والكبيرة.

* * *

والست نسب من آل تنوخ. ولدت في عبيه، سنة ١٥٤٦ م حسب تقدير المؤرخين، الذين لم يهتدوا إلى اسم والدها، ولم يذكروه. إلا أنهم سجلوا لنا اسم أخيها الأمير سيف الدين، وأخبرونا بأنها نشأت نشأة كريمة. وكانت على جمال في الوجه والقد، ذات مهابة وجاذبية، وأخلاق سامية، وذكاء ينفذ من عينين دائمتي اليقظة. إلى ذرابة لسان، وفصاحة ومنطق وحسن تدبير. أي أنها كانت المرأة الكاملة، المثالية، لزمانها، ولكل زمان.

* * *

ونحن لا نعلم تماماً كيف نشأت تلك السيدة، وأين تعلمت، لكنها بالطبع، اكتسبت الكثير من الصفات التي ذكرنا، عن طريق التعلم والتربية، تلك التربية التي أهلتها لأن تقترن بحاكم الشوف في حينه، الأمير قرقماز معن، ابن الأمير فخر الدين الأول، والذي خلع عليه السلطان العثماني سليم لقب «سلطان البر». تم الزواج بينهما سنة ١٥٧٠، وأنجبت نسب ولدين: الأمير فخر الدين، والأمير يونس.

لكن أيامها لم تكن كلها أفراحاً. وقد عاشت فترة قصيرة جداً في طمأنينة العائلة، وكنف الزوج، قبل أن تهب عاصفة عنيفة، مزقت أشرعة السفينة، ودعت المرأة إلى لون جديد من القيادة.

* * *

حدث ذلك في غفلة من الزمن، وبينما كانت جماعة تنقل الأموال الأميرية المحصلة من هذه البلاد في طرابلس، وتتجه بها إلى مقر الباب العالي في الآستانة، هاجمها اللصوص، في جون عكار، وسلبوها الأموال. ووجهت التهمة فوراً إلى حكام المنطقة آل سيفا، وحكام كسروان آل عساف، وحكام الشوف آل معن.. ومع التهمة هاجمت جيوش السلطان، ومن كل الجهات، مركز الحكام. الثلاثة، وراحت تفتك بالناس، وتحرق المدن والقرى، وتسلب وتنهب، ولا تغادر المكان قبل أن تمحو معالمه. وقاد الحملة إلى الشوف إبراهيم باشا، والي مصر، فأنزل بالشوفيين الويلات، دون أن تثبت عليهم أية تهمة. ويسجل التاريخ أحداثاً لا يصدقها العقل، عن الوسائل الانتقامية الرهيبة التي لجأ إليها ذلك الوالي. وبالطبع، كان مطلبه الأهم حاكم الشوف، الأمير قرقماز، الذي توارى واختبأ في شقيف تيرون قرب بلدة نيحا. وهناك روايتان لسبب وفاته: احداهما تقول: إنه أصيب بمرض من شدة تأثره على ما جرى لشعبه وبلاده، والثانية تخبرنا بأن الباشا اهتدى إلى مكانه، وأمر بأن يوقد حطب أخضر، في باب المغارة، فامتلأت بالدخان، ومات الأمير مختنقاً.

* * *

ولم يكن أمام الزوجة المفجوعة، سوى خيار واحد لتنقذ ولديها، وكان فخر الدين في الثانية عشرة، بينما يونس لا يجاوز العاشرة من عمره... واختارت تهريبهما إلى مكان لا يخطر في بال المتسلط الرهيب. وهكذا عهدت إلى أحد أخصائها من مشايخ بني هرموش أن ينقل الولدين، بحذر شديد، إلى المنطقة المسيحية، وهذا ما فعله الشيخ، وفي طريقه مر بانطلياس، وصادف صديقاً له،

اشتهر بطيب أوصافه، هو الشدياق ابراهيم، ابن الشدياق سركيس الخازن. . . من الضروري أن أذكر الاسم كاملاً، إذ كان لهذا الرجل، الفضل الأول، في حماية الأميرين، وحملهما فوق عبّارة السلامة، ريثما تمر عاصفة العنف وجنون الثورة. ولما شعر الخازن بأن البلدة الساحلية قد تكشف سر الولدين، انتقل بهما إلى برج بحرصاف، قرب بكفيا. لكنه أحس، بأن المكان ليس أميناً مثلما يشاء، فعاد وانتقل بهما إلى منطقة منفردة، كثيفة الأشجار في قلب كسروان، وتدعى بلونة.

واستأجر بيتاً من امرأة متقدمة في السن اسمها غضية، وبدل اسمي الأميرين فكان ينادي الأول فخر والثاني يونان مدعياً بأنهما ولداه.

وقد سهر على تربيتهما والعناية بهما، بكثير من المحبة والإخلاص. وكانت الأم الأميرة، تزورهما، متنكرة، كي تحظى بمشاهدتهما، وتطلع على حالتهما الصحية والتربوية، ثم تعود إلى مقر اختفائها في الشوف.

* * *

ظلت الأميرة تعيش هذه الحالة من التشرد والقلق، دون أن تفصل وعيها عن سير الأحداث السياسية، حتى سنة ١٥٩٠ حين ارتحل إبراهيم باشا عن الشوف واستقر الوضع السياسي إلى حد ما، وصفا الجو، فبات بإمكانها إرجاع ولديها إلى مقرهما، في دير القمر. وقد عهدت إلى أخيها سيف الدين أن يدربهما في شؤون الفروسية، وأساليب الحروب والحكم.

لم تفقد المرأة أملها لحظة، بأن ما فات، يمكن تعويضه، ما دام العنصر البشري موجوداً، وهو من أحب العناصر إلى قلبها: بكرها من الزوج الذي أحبته، وذاقت مر الحزن على فراقه المأساوي.

وكان يوم تسلمه زمام الحكم يوماً مشهوداً، «فقد جمع خاله أكابر البلاد وأعيانها في سهل السمقانية، بين بعقلين ودير القمر، وطلب منهم إقرار توليته سدة الحكم وراثة عن أبيه، ففعلوا. . .».

كان فخر الدين، آنذاك في الثامنة عشرة من عمره. وقد أبدى جميع مواطنيه، ارتياحاً لتسلمه زمام الحكم، بعدما مر بهم من جور وظلم على أيدي رجال السلطان العثماني.

وظل الخال يساعد الحاكم، ويسانده بالمال والرجال. أما الأميرة نسب، فلم تغفل ابنها لحظة. وقد اعتاد أن يستشيرها في كل شاردة وواردة، إذ وجد عندها، الرأي الصائب، والحكمة في تدبير الأمور، وبالطبع الإخلاص، إذ لا تتوخى من مساعدتها له، سوى مصلحته، ومصلحة البلاد والشعب.

وكانت واعية، ان الساحة ليست فارغة تماماً، كي يجول فيها ابنها، بحرية، وطمأنينة، فقد كان هناك حاكمان ينافسانه، بل يناصبانه العداء؛ وينتظران أول فرصة للانقضاض عليه، وهما: الأمير منصور بن الفريخ حاكم البقاع - ويوسف باشا سيفا حاكم عكار. لذلك راحت هي تدير دفة الحكم، من ورائه، وبكثير من الحنكة والدهاء والذكاء. وحسب ما روى المؤرخون، فقد أظهرت الأميرة نسب مقدرة خارقة، في إدارة شؤون البلاد، وسط وضع متفجر، وأعاصير، تتربص بها، إلى أن اطمأنت إلى عودة الأمور إلى حالة مرضية من الأمن والاستقرار.

وكتب الرحالة الانكليزي جورج ساندس عنها يقول:

«إن ولدها لم يكن يشرع بقتال، ولا يقدم على عمل عظيم، إلا بعد أن يسترشد بحكمتها، ويأخذ برأيها.

أما سانتي، وهو مهندس البعثة التي حضرت من توسكانة، فكتب في مذكراته: ان الأمير فخر الدين يقرر ما يخطر له، مستلهماً رأي والدته».

لقد أحبها ابنها الحاكم، واحترمها بل صار يُضرب المثل بتقديره لها. وحتى بعد ما أصبح في عزه وجبروته، ظل الابن المطيع؛ اشارة منها، كانت كافية لتنزله عند إرادتها.

طبعاً هذا لا يقلل من قيمة فخر الدين أو ينقص من شأنه، إنما يعكس العلاقة الطيبة، التي كانت تربطه بامرأة محصنة بالحكمة والذكاء، تعلمت دروسها بأقسى الأساليب. وخبرت الناس، والحكام منهم ومطامعهم بصورة خاصة، ونقلت لابنها، خلاصة تجاربها، كي يفيد منها، ويتجنب السقوط في الخطأ.

ويذكر أنها هي التي أوعزت إليه باستخدام آل الخازن ـ وقد تربى على يد أحدهم ـ في أهم دوائره. كما استقدم العديد من النصارى، إلى الشوف، بناء على طلبها، ونزولاً عند رغبتها، وذلك للانتفاع من إخلاصهم له، ونصرته في حروبه. وكان لها هدف أبعد من المصلحة الشخصية، إذ شاءت بذلك ضمَّ جناحي لبنان في وحدة وطنية، تحت حكمه. وهذه الخطوة، كانت في مقدمة الأعمال التي رفعت شأنه، وأكسبته السؤدد والعظمة. وجعلت اسمه ينتشر مقروناً بصفات العدل والوطنية.



ويروي أحد المؤرخين، بأن الأمير فخر الدين، لشدة إيمانه بوالدته، كان يعتقد بأنها صاحبة الهام علوي، وبإمكانها التنبوء بالمستقبل. وكانت لها براعة خاصة في علم النجوم والأفلاك. أي أنها وظفت ذكاءها كله، ووضعته على خط تقدمه. لذلك ظلت ملجأه والبركة التي منها يستلهم القوة والوحي، والطاقة التي تمده بالثقة، وتشد أزره في الشدائد.

وبإرشادها، أخذ الأمير يوسع حدود دولته. فبعد توحيد لبنان، راح يوحد سنجقيات وبلداناً أخرى في فلسطين وسوريا. وكانت، قبل أن يتولى أمرها، في حالة من البؤس والفوضى، فحسن أوضاعها، وجعلها ترتع في البحبوحة والازدهار، والأمن والحرية. وفي أيامه وصلت حدود حاكميته من حلب شمالاً، حتى رمال مصر جنوباً. ولم تكن السيدة الكبيرة تفارق ابنها، بل تحثه دائماً ليحسن رعاية الأهلين، ويسهر على راحتهم، وجباية الأموال الأميرية، وإرسالها

في وقتهـا إلى الآستانـة، مما جعـل الباب العـالي يشمله برضـاه، ويطلق يـده في تدبير ولايته الواسعة. وهذا أمر هام جداً، حين نفكر كيف كانت الامبـراطوريـة العثمانية تتعـامل مـع أتباعهـا. وبفضل هـذا النجاح السيـاسي والاداري، خلع عليه الباب العالي لقب «سلطان البر» مثلما لقب جده من قبله.

* * *

لكن العيون الحاسدة لا تنام. وهذا ما حصل مع فخـر الدين. فقـد بدأت أعين منافسيـه تراقبـه، وتحاول الإيقـاع به. فتـوصلوا إلى إقناع السلطة العليـا، بأن الأمير اللبناني، سوف يرفع عليها راية العصيان، فأمرت بتجريد حملة قوية، تهاجمه من البر والبحر، وعهدت بقيادتها إلى أحمد باشا حـافظ والي دمشق، وكان من ألد أعدائه، وينتظر فرصة كهذه، كي يحطمه.

ولكن عين الأم الساهرة، التقطت الخبر، وأشارت على ابنها بـأن يبتعد عن الساحة، ويتوجه إلى توسكانـا كي يباحث أمـراءها بشـأن مساعـدته. وقـد تولى الحكم أثناء غيابه أخوه الأمير يونس وابنه الأمير علي لكن الحاكم الفعلي كان الأم القديرة.

* * *

أثناء غياب فخـر الدين، زحف الحـافظ على البـلاد بخمسين ألف مقـاتل. لكن الشعب قاوم بضراوة، طيلة ثلاثة أشهـر. وحنق الباشـا، فأفلت رجـاله في الشـوف، ليمعنوا فيـه تقتيلاً وتخـريباً. وسـاعده في مهمتـه يوسف بـاشا سيفـا، الحاكم الأخير، الغيور من نجاح فخـر الدين. ووصلت بهم أحقـادهم إلى قصر الأمير، فحاولوا أن يدمروه، مثلما فعلوا بالقرى، ومساكنها.

وعندها اجتمع مشايخ الشوف وأعيان القوم في ديـر القمر، وقـر رأيهم على أن هنـاك شخصاً واحـداً، يمكنه انقاذ بـلادهم من الـدمـار النهـائي: هـذا الشخص هـو الست الكبيـرة نسب. كلفـوهـا بمقـابلة الحـافظ، وتـدارك الأمـر بحكمتها، ولباقة سياستها. ونزلت عند طلبهم، فتوجهت إلى مقـابلته، يـرافقها

ثلاثون من المشايخ. وحين التقته، أثارت إعجابه، بل أذهلته بما أبدت من جرأة ومنطق وحكمة، وشجاعة. وعاتبته على أعماله، بأسلوب لطيف، كان له أبلغ الوقع في نفسه. ثم عرضت عليه دفع ثلاثمائة ألف غرش، مقابل أن يوقف الحرب، ويترك الناس في أمان.

وكان الحافظ قد سئم الحرب، فقبل بالعرض، وانصرف عن لبنان، ساحباً معه حلفاءه.

وهكذا، نجحت الست نسب بإنقاذ البلاد من الخراب المحتم، بفضل حكمتها، وحسن سياستها.

* * *

ويذكر سانتي: أن الأميرة، حين دخلت على الحافظ، أنّبته بجرأة على تعمده إهلاك رعايا السلطان، وتخريب البلاد، التي تدفع الجزية لخزانة الدولة.

وكانت دائماً، وفي جميع مواقفها، تستخدم المنطق، والدهاء، وتضرب على وتر يشعر به غريمها، فيستسلم، وينزل عند رغبتها.

* * *

ولم يكن في حوزة الست نسب الكمية الكاملة من المال. فكتبت صكوكا بالدين الباقي، لكن الوالي، لم يؤمن لها. ونقلها إلى دمشق، حيث بقيت رهينة، في قلعتها، إلى أن يوفى المال. وفي رواية أخرى أن ولدها يونس دفع المال مضاعفاً، لكن الحافظ لم يطلق سراحها، وربما كان يخشى بأسها. وهكذا ظلت سجينة القلعة إلى حين عزله، وتسلم جركس محمد باشا مقاليد الحكم، وكان صديقاً لفخرالدين، فما كاد يتسلم زمام الأمور، حتى أطلق سراحها، وأعادها إلى دير القمر، محفوفة بالكرامة، والتقدير. كما سلمها رسالة إلى ابنها، يؤكد له فيها رضا السلطان الأعظم. لكن فخر الدين ظل مشككاً بصدق الرسالة، إلى أن تسلم من أمه الرسالة التاريخية التالية:

«إننا بقينا محبوسين في قلعة الشام إلى أن منَّ الله علينا، فأطلقنا الحكام وعدنا إلى دير القمر. . . وأنا اليوم امرأة كبيرة. أريد منك أن تجيء، لأراك قبل موتي. . .».

واستحلفته بتربيتها له، كي يعود إليها، فنزل عند رغبتها. ويلاحظ قارىء الرسالة أن الأميرة تعتمد صيغة الجمع، حين تتحدث في السياسة مع ابنها. لكنها تعود إلى صيغة المفرد، عندما تخاطبه مخاطبة الأم لابنها. . وهذا من بعض ذكائها وحكمتها.

* * *

يشهد الأب روجيه الفرنسيسكاني، وكان طبيب فخر الدين، في كتابه «الأرض المقدسة» بأن الأمير فخرالدين كان ضالعاً في معرفة النجوم، والفلسفة الخفية التي أخذها عن أمه.

وهذه واحدة من عدة شهادات، لمؤرخين، وعلماء، في عظيم صفات المرأة، ومسلكها. وقد عاشت حتى سنة ١٦٣٣ وتوفيت عن عمر يناهز السابعة والثمانين، عاشته في النضال، والعطاء، وفي توجيه ابنها، الذي حزن عليها حزناً شديداً، واعتبر غيابها شؤماً حل به، إذ كانت في حياتها، بركة عليه، ومرشدة مخلصة. وكان تشاؤمه في محله، فمع غيابها، بدأ نجم سعادته بالأفول، وبعد مرور سنتين على رحيلها، نزلت به نكبة عظمى، إذ حل عليه غضب السلطان، فاعتقله مع أفراد عائلته، ثم أمر بقتلهم جميعاً.

وردة اليازجي

«يا وردةَ التركِ إني وردةُ العرب

فبيننا قد وجدنا أقرب النَّسَبِ».



أتأمل صورة قديمة لها. هي الصورة الوحيدة التي بلغتنا، حاملة بعضاً منها. والصورة فقدت ملامحها، لكثرة ما تنقلت فوق صفحات الكتب والمجلات، السيدة جالسة بوقار. ثوبها الأسود الفضفاض يغطي جسمها حتى أخمص القدمين، وفوق الرأس ارتفع الطربوش، نموذج لما كانت ترتديه سيدات زمانها. والوجه يحتفظ بمسحة جمال، برغم إساءة غير مقصودة من المصور. وأجمل ما في ذلك الوجه العينان الذكيتان.

تلك هي اليازجية، أو وردة اليازجي، سليلة أسرة العلم والأدب في مطلع عصر النهضة. والسيدة الأولى من تلك الحقبة، التي تجرأت أن تخرج من جلدها، وتعبر بواسطة الكلمة المكتوبة، (والمكتوبة شعراً) عن أحاسيس تمر بها، أو مناسبات تعترضها، وتكون هي شاهداً عليها.

* * *

بقي لنا من آثارها ديوان شعر عنوانه «حديقة الورد». وربما اقتبست العنوان من اسمها، أو انسجاماً مع تقليد اعتمده معظم الشعراء اليازجيين، وهو ذكر الورد في قصائدهم.

فمن ديوان لأخيها خليل قوله:

«الا روِّحوا روحي برائحة الورد فقد جاءنا فصل الربيع من البعد»
«لله ورد ليس يبرح ناضرا فلم يك مختصاً بشهر له فرد»

أما ابن شقيقتها الشيخ نجيب الحداد فيتغنى بالورد، وبوردة بالذات في ديوانه «تذكار الصبا» فيقول:

«لشخصك من زهر الربى لقب الورد وهيهات ما للورد حسنك في الود»
«فللورد شهر واحد ثم ينقضي ووردك باق لا يزول عن الخد»

وقرّظ شقيقها العلامة إبراهيم ديوانها بقصيدة قال فيها:

«هذي حديقة ورد عز جانبها وحبذا روض ورد يفرج الكربا»

وتقول وردة في الأميرة تاج الشهابية:

«هذه حبيبتنا التي عادت وقد عدنا بمنظر حسنها نتمتع
الورد عادته يزور محبة والبدر عادته يغيب ويطلع»

وفي أية حال، كان الديوان، إضافة جديدة إلى التراث اليازجي. وبرغم كونه الأثر الوحيد المتحدر إلينا من الست وردة فإن سيرة حياتها تكاد تقنعنا بأنه ليس الأهم في سلسلة عطائها...

فحياتها الشخصية كانت قصيدة رائعة، وإن لم تدون بكلمات.

* * *

ولدت وردة في العشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٨٣٨، في بلدة كفرشيما الواقعة على مشارف بيروت. ثم لم تلبث أن انتقلت مع عائلتها إلى بيروت. وهنا أولاها أبوها اللغوي الكبير الشيخ ناصيف اليازجي كل اهتمامه، وذلك بعدما اكتشف لديها نباهة مميزة، وميلاً إلى استيعاب العلم والأدب. وأشرف بنفسه على تعليمها اللغة العربية، معتمداً في ذلك كتابيه «فصل

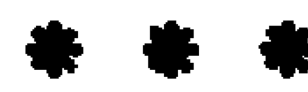
الخطاب» و«نقطة الدائرة».

وعهد بها إلى إحدى المدرسات، فتعلمت على يديها اللغة الفرنسية. وكان أبوها، كلما غاب عن المدينة، تعمد مراسلتها شعراً، فترد هي على خطابه بالشعر أيضاً. ثم صار يعتمد عليها في الرد على رسائل بعض الشعراء. وكانت وردة قد بدأت تقرض الشعر وهي في الثالثة عشرة من عمرها. ولما نضجت، وأصبحت متمكنة من لغتها، بدأت تدرّس في أحد المعاهد الأهلية، كما كانت تساعد في تربية اخوتها الاثني عشر، وهي رابعتهم.

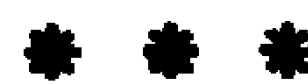


بعدما تزوجت وردة، ظلت محافظة على هندامها، تأتزر حين تغادر البيت، وتعتمر الطربوش، وفي جلساتها الاجتماعية «كانت تشرب القهوة على وقع نفير الماء المعطر في قلب النارجيلة وتنتسب لأسرة أبيها، على الطريقة العربية».

هذا ما ذكرته عنها كاتبة سيرتها مي زيادة. وأتوقف عند العبارة الأخيرة لأهميتها، إذ إن الاحتفاظ باسم العائلة كان يعطي المرأة لوناً من الاستقلال الذاتي، ويلغي عنها التبعية التي نعرفها اليوم، والتي باتت تقليداً من جملة التقاليد الواردة علينا من الحضارة الغربية.



وأبوها، الشيخ ناصيف لم يكن الشخصية الأدبية الوحيدة التي أثرت في وردة، فهناك الاخوة، وكل واحد منهم ينظم الشعر، كما أن أحدهم (إبراهيم) كان من أعظم علماء اللغة العربية، لا في عصره وحسب، بل وفي العصور السابقة، واللاحقة. وقد ساهم في إحياء تلك اللغة، وإخراجها من عهد الانحطاط إلى نور التجدد والتطور.



بفضل هذه البيئة الراقية كانت الشاعرة تفتح أقنية على العالم، وعلى شعراء

وعلماء عصرها، فتجلس في مجالسهم، وتقارعهم الحجة، بل وتعارض بعض شعرائهم، كما حصل مع ابن زريق البغدادي حين عارضت قصيدته بقولها:

«صب جرت كغوادي السحب أدمعه وجدا وذابت من الأشواق أضلعه»

لكن معظم قصائد الديوان لم تأخذ هذا المنحى الشعري، بل إن أكثر ما كتبته يدور في فلك المجاملات والمناسبات الاجتماعية وربما انصرفت إلى ذلك لكونه السبيل الوحيد لولوج المرأة مجالاً من مجالات التعبير.

وقد تكون طبيعة وردة المحافظة هي التي أثرت في توجيه شعرها نحو المجرى الذي اتخذه.

وسوف أعود إلى الكلام على شعرها. بعد استكمال سيرة حياتها. ففي سنة ١٨٦٦ تزوجت وردة من المعلم فرنسيس شمعون، وأنجبت منه خمسة أولاد، صبيين وثلاث بنات. ومثلما اعتنت بتربية إخوتها وجّهتْ اهتمامها الى تربية أولادها، وقد أصبح أحدهم (سليم شمعون) طبيباً مشهوراً. كذلك بقيت تعمل في التدريس، برغم كبر العائلة، وحجم المسؤولية الملقاة عليها. وأحسب أن العمل التربوي في حينه، كان أقرب إلى الرسالة، منه الى مهنة يعتمدها المرء في تحصيل رزقه.

* * *

ومع أن وردة أمضت ردحاً من الزمن فوق أرض وطنها لبنان، إلا أنها انتقلت سنة ١٨٩٩ إلى الاسكندرية بصحبة ولدها الطبيب، وابنتها لبيبة وعاشت في مصر حتى آخر يوم في حياتها.

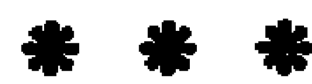
ولم تكن شاعرتنا، معزولة أو بعيدة عن الحركة الأدبية التي نهضت في مصر، على أيدي المفكرين والكتّاب والصحافيين اللبنانيين، الذين هاجروا إليها. إلا أن وردة من رعيل أسبق، وربما لامست أطراف تلك الحركة ذات الشأن، دون أن تكون فاعلة في أساسها. ويعود ذلك إلى تقدمها في السن، وكانت قد

جاوزت العقد السادس من العمر، أو إلى شخصيتها المتسمة بالمحافظة على التقليد.



قبل الولوج في عالم وردة الشعري، لا بد لنا من استكمال الصورة الإنسانية. فالمرأة التي عاشت متميزة عن نساء عصرها، بامتلاكها ناصية اللغة، ثم بحرية التعبير عن خوالج النفس، لم تعرف المناسبات البهية، وربما كانت حدود الزمن ضيقة من حولها، فلا تفتح أمامها سوى أبواب معروفة، يمكنها أن تسطر تحتها، ما يجول في خلدها.

ولأن شخصية الشاعرة كانت شديدة التحفظ، حسب رأي مي زيادة (وقد عرفتها في أواخر أيامها) فقد كان هذا سبباً لتمسكها بالتقليد في شعرها كما في حياتها... أي أن وردة التي تعتبر رائدة شعر زمانها، لم تكن صاحبة شخصية تغييرية، بل أخذت ما توفر لها من وسائل، وعملت بها، فلم تبتكر، ولم تخترق الحواجز الناهضة في وجهها، بل قادت سفينتها الشعرية بهدوء، وبشيء من السطحية، دون أن تجتهد لبلوغ الأعماق البعيدة، حيث تختبيء لآلىء الشعر في أصداف مرصودة.



من جهة أخرى، كانت وردة تعيش وسط قبيلة ، هي واحدة من أفرادها. ومعظم أفراد قبيلتها، متفوقون، وبالتالي، يرخون ظلالهم عليها. ترى، أو يكون هذا سبباً للبقاء في خانة التقليد... والالتصاق بالمألوف المريح؟..

كما أن الحياة لم تمن على الشاعرة بمناسبات رائعة، وخارجة على المألوف. وقد فجعت بموت عدد كبير من أفراد أسرتها، من أشقاء، وشقيقات. ثم توفي والدها، وزوجها وبعده، ابنتها، وابنها. ولم يبق من العائلة الكبيرة سوى ابنها الطبيب، فتعلقت بذراعه، وهي تعبر العقد السادس من العمر، ورحلت إلى

مصر. ومن هنا، كان معظم الشعر الوجداني الذي ضمه ديوانها، رثاء في الأحباء الذين رحلوا، لكنه ظل بعيداً عن رثاء عرفت به شاعرة سبقتها ببضعة قرون، وأعني الخنساء.

* * *

يمكننا أن نصنف قصائد «حديقة الورد» تحت عناوين بارزة أولها: ورود المجاملات. وأبرز قصائد هذا اللون تلك التي تستهل بها ديوانها وتخاطب عبرها شاعرة سورية معاصرة اسمها وردة نقولا الترك فتقول:

«يا وردة الترك إني وردة العرب   فبيننا قد وجدنا أقرب النسب»

ثم تكر مسبحة المواضيع، من استقبال صديقة عادت من سفر، إلى وداع نسيبة، أو مديح ملكة أو أميرة أو سيدة مجتمع.

وقد تأخذ مناسبة انتقال إحدى الصديقات إلى منزل جديد، أو ولادة طفل، أو تنصيره، لتكتب في ذلك قصيدة. وشعرها في هذا المجال، يكاد يكون خريطة، ترسم فوقها التحرك الاجتماعي لنساء زمانها، مع الحدود طبعاً.

ثانياً: شعر النقد والتقريظ، وأشهره معارضتها للشاعر ابن زريق، وقد ورد ذكرها، ثم تقريظها لتاريخ الصحافة العربية، من تأليف فيليب دي طرازي.

إنما كلمة تقريظ تبدو فضفاضة إلى حد ما، إذ إن الشاعرة كانت تميل إلى المديح، تماماً مثلما امتدحت بعض الحكام والمبعوثين.

* * *

وتبقى أهم مجاملاتها الأدبية، المراسلات التي دارت بينها وبين الشاعرة المصرية عائشة التيمورية حين أصدرت الأخيرة ديوانها «حلية الطراز» إذ تقول فيها:

«قد أعاد الزمان عائشة فيها   فعاشت آثار علم قديم...»

«يـا نسمـة من أرض وادي النيـل وردت فـأطفـأت بـالسلام غليـلي
نـفحـت بـلبنـان فـفـاح أريجـهـا سحـراً بأشجى من نـسيـم أصيـل»

* * *

ثـالثـاً: شعـر المودة والشـوق، وكـانت تضعـه تحت عنـاوين مـوجهـة إلى صـديقـات، بينـما يفضـح محتـواه السر المبـطن. ولا نلوم الشـاعـرة عـلى هـذا «التهريب» الذي لا بد منه، كي لا تدفع أتاوة عصرها.

ونتساءل مع مي زيادة «أيمكن أن يكون هذا الكلام موجهاً إلى صديقة وفيـه تقول:

«رحل الحبيب وحسن صبري قد رحل وتقـر عيني بـاللقـا قبـل الأجـل
يـا غـائبـاً والقـلب سـار بـاثـره شـوقي مقيم في فـؤادي كـالجبـل
إن كنت غبت عن العيـون مهـاجـراً فجميـل شخصك في فؤادي لم يـزل»

ثم نحسها ترحل إلى أسلوب الشعراء القدامى في مخاطبة الحبيب:

«يـا راحـلاً أضحى فـؤادي عنـده وبقيت من وجـدي أراعي الأنجـما»
«جز يا نسيم عـلى وادي النقا سحـراً وسل عن الصحب هل تلقى لهم خبراً»

وسوى ذلك من الشعر الوجداني المكتمل في بنـائه الشعـري واللغوي؛ غـير أنه لا يحمل ملامح التجديد، بل يذكرنا، مع كل نغمة، بقصائـد كتبها شعـراء العصور الغابرة».

* * *

رابعاً: شعر الحزن والأسى.

إن شعر التأبين والرثـاء يستأثـر بالجـزء الأكبر من ديـوان وردة، وهي، وإن كـانت تنهج فيـه النهج التقليـدي الذي عـرفه شعـراء عصرهـا، فتضع تـواريخ الـوفيات والأضـرحة، إلا أن العـاطفة تعـود صادقـة في رثـاء الاخـوة، والـزوج

والابن. وتبدأ بالحكم الشائعة في فلسفة الموت، والعجز عن قهره، إذ أنه لا يرحم أحداً، ولا يوفر مخلوقاً، مهما سمت مرتبته وعلا مقامه. ومع أننا نجد هذه الفلسفة لدى شعراء سبقوها، إلا أن تجربتها القاسية مع الموت، والتي تكررت عدة مرات في فقد أعز الناس إليها، جعلتْها تصنف شاعرة رثاء عصرها. فقد رثت اخوتها الستة، وأختها، ثم والدها وزوجها، وولدين لها وبنتاً. وهذا نموذج من مطلع قصيدة في رثاء أخيها حبيب:

«يا عين وردة في الأسحار والأصل   ابكي لفقد حبيب عنك مرتحل»

وتأتي على ذكر أخيها فارس وكان قد سبقه فتقول:

«يا فارس اليوم أبشر قد أتاك على   قرب حبيب فلا تشكو من الملل»

ومن رثائها لأبيها الشيخ ناصيف هذه النبذة الفلسفية:

«حياة الحزين القلب موت وموته   حياة يلاقي عندها الراحة الكبرى»

ثم تتذكر مكانته الأدبية فتسجلها:

«أيا علم الشرق المبجل، والذي   أقرت له بالفضل كل الورى طرا»

حين فقدت زوجها، كانت وردة قد تمرست بالحزن، وذاقت العديد من كؤوسه:

«نكبة عند نكبة عند أخرى   كاتصال الأسباب بالأوتاد
وأبى الدهر أن يمن بنظم   غير نظم الرثاء والتعداد»

كم هي كبيرة لوعة الشاعرة!.. كم هو عظيم وجدها!

لكن ذروة الفجائع هي في فقدها أولادها. فهي هنا تتخلى عن كل فلسفة أو تأمل، وتطلق الكلام المباشر كالسهام:

«بأي فؤاد بعدك ابتغي السلوى   وأنت فؤادي في التراب له مأوى
أرى نار قلبي كل يوم وليلة   تزيد لهيباً كلما زدت في الشكوى

لفقــد أميني، بــل حبيبي ومـهجـتي   وريحان روحي من غدوت بـه نشوى»

ويتبدل النغم وهي ترثي أخاها الشيخ إبراهيم، وكان آخر من فقدت، فهو ليس الأخ وحسب، بـل العلامـة اللغوي، وصـاحب الشهرة الـواسعة، ومبعث الفخر لها.

وهي هنا تقترب من الخنساء، بل تتشبه بها في بعض أبياتها:

«فــارقتني يـا شقيق الــروح مبتعــداً   فــما حيــاتي وأنت عـني مبـتـعــد؟
يـا قـائــل القـول مــا زلت بـه كلم   وصـاحب الـرأي حقــاً ليس ينتقـد»

إلى أن تقول، وقد تصورت أنها تجاوزت الخنساء حين رثت أخاها:

«يا صخر، بنت الشريد اليـوم منتشر   لهــا عليـك قــواف في الهـوى شــرد
هيهات ما فقدت صخري ولا نظمت   دمعي، ولا وجـدت خنساء مـا أجـد
بكت وحيــداً، وأبكي ستــة ذهبــوا   لكـل محمـدة بـين الـورى وجـدوا».

* * *

ونتسـاءل: هل خلفت وردة اليـازجي نثراً؟ أم أن كتـابتهـا اقتصـرت عـلى الشعر وحده؟

ما نعلمه عن ذلك، وصلنا عن طـريق نصير المـرأة جورج نقـولا باز. فهـو يقول ان اليازجية نشرت بعض المقالات النثريـة في الصحف والمجلات الصـادرة في أيامها، وكانت على جانب من الدقـة والرزانة. لكن نثرهـا، على مـا يبدو، لم يكن في أهمية شعرها، لذلك لم تكترث هي لجمعه، كما فعلت في ديوانها «حديقة الورد» الذي طبع ثلاث مـرات في حياتهـا، مرتـين في بيروت سنـة ١٨٦٧ وسنة ١٨٨٧ ومرة في مصر عام ١٩١٣.

وأخيراً لا بد من تسجيل التقدير الخاص الذي جهرت به الأديبة مي زيـادة حـين سجلت سيرة الشـاعرة في محـاضرة ألقتهـا في شهر أيـار من سنة ١٩٢٤ في

القاهرة، ثم نشرتها تباعاً في مجلة «المقتطف»، ورصدت ريعها لمساعدة منكوبي الحرب في وطن وردة وذلك أثر الحرب العالمية الثانية.



كذلك رسخت الأديبة املي فارس إبراهيم صورة اليازجية في الأذهان عبر دراسة رصينة نشرتها في كتابها «أديبات لبنانيات». وقد تجاوزت مي إذ ذهبت إلى النقد والتقييم الأدبي لشعر اليازجية.

ومهما قيل في صاحبة «حديقة الورد» تبقى هناك حقيقة لا يستطيع أحد تجاهلها، وهي كونها أول رائدة من رائدات عصر النهضة، لا في لبنان وحسب بل وفي العالم العربي.

وتقضي العدالة، إذا شئنا إصدار حكم على شعرها، أن نبقيه ضمن إطار عصره، ومعطيات ذلك الزمن.

واليازجية التي تركت لنا حديقتها الملونة، توفيت في مطلع سنة ١٩٢٤، في مدينة الاسكندرية مخلفة لمن جاء بعدها، مثالاً يحتذى في السعي، والمثابرة، والشجاعة في مواجهة الحياة، مهما قست.

واثر وفاتها، تنادت نخبة من سيدات لبنان إلى الاكتتاب من أجل رسم صورة زيتية للشاعرة، علقت في دار الكتب الوطنية، وكانت أول أديبة تحظى بهذا التقدير.

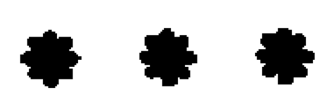
عائشة تيمور

«ظهرتْ بشارة،
وبارقة نور في ليلٍ دامس».



حين ولدت عائشة تيمور، كانت شمس جديدة تشرق على بلادها، وبوادر نهضة تتململ في مجتمعها، حاملة الوعود والأحلام.

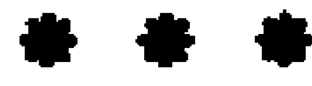
وقبل تلك المرحلة المبكرة من تاريخ النهضة النسائية، لم يكن مألوفاً أن يرتفع صوتُ المرأة، ليخرج عن حدود معلومة، أو يتخطّى دوائر رسمَتْها الأجيال والتقاليد، حول الكيان الأنثوي. لذا، يتساءل الباحثون، الذين حاولوا دراسة التيمورية وأدبها: من أين جاءتْ عائشة بتلك الأفكار المتقدّمة على زمانها؟ . . وكيف توفر لها ذلك الوعي المبكر لوجود المرأة، في حين أن معاصرات لها، اكتفينَ بقبول الدور المعدّ لهنّ سلفاً، ورضخن لمشيئة سبقتْ ولادتهن! . .



وبالطبع، حاول الباحثون، وكتّاب السيرة، أن يردوا على الأسئلة المطروحة، من خلال سلوك المرأة وأعمالها وآثارها الأدبية، شعراً كانت أم نثراً، كما عاد بعضهم الى التاريخ، يستفسره ويحلل وينبش الخلفيات التي مهّدت لولادة هذا الحدث الهام على خط مسيرة المرأة العربية.

وفي طليعة المهتمين بعائشة وأدبها، أديبة أخرى، كانت هي أيضاً، رائدة في

أيامها، وأعني مي زيادة، ولها الفضل في إحياء شخصية ثلاث نساء سبقْنها أو عاصرنها، وكنّ العلامات المشعّة على طريق الإنارة وهنّ: وردة اليازجي، باحثة البادية، والتيمورية؛ وفي رأيها أن الأخيرة «تفرّدت صورتها أمامي إذ لم يقم على مقربة منها صورة تشبهها ولو شبهاً بعيداً. . .».



إذن، هذه هي عائشة، المميّزة، المتألّقة. وقد وُلدت سنة ١٨٤٠ بمدينة القاهرة. وهي ابنة إسماعيل باشا تيمور، المتحدّر من أصل كردي. وأبوه كان ضابطاً من رجال محمد علي وقد ساعد في استئصال دولة المماليك، حتى صار من خاصة الوالي. وترقّى في المناصب، حتى وصل الى رتبة محافظ. لكن الابن اهتم بالأدب أكثر من اهتمامه بالحرب. وإن بقي في السياسة، ومن المقربين من البلاط، حتى أصبح رئيس الحاشية الملكية. وقد تزوج امرأة جركسية معتوقة. وعائشة وُلدت قبل وفاة محمد علي بتسعة أعوام، وتوفيت في الثاني من شهر أيار سنة ١٩٠٢ وبعد تولية عباس الثاني بعشرة أعوام. وتكون شهدت التطور السياسي والاجتماعي في مصر على عهد أربعة وُلاة وثلاثة خديويين.

هذه لمحة تاريخية مختصرة، لربط المرأة بزمانها، وهي التي كانت وثيقة الصلة بأرباب الحكم، تُدعى إلى القصر في المناسبات الاجتماعية، خصوصاً حين تكون زائرات ربة القصر أجنبيات، فتتولّى أمر الترجمة إذ كانت تُجيد ثلاث لغات.

وكان تحرّكها في الوسط الأرستقراطي طبيعياً، لولا المزاج الشخصي، الذي جعلها تنفر من كل قيد، وتميل إلى أجواء حرّة، تُتيحُ لها فرصة التأمل، والتفكير والكتابة.

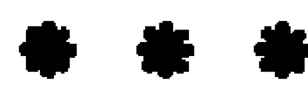
وعائشة كانت كاتبة. وهذا سرّ الاهتمام بشخصيتها. وكاتبة في ذلك الزمان المتزمّت، المتشدد على المرأة بصورة خاصة، إذ رسم لها حدوداً لا يُسمح بتخطّيها، ورفع حولها أسواراً لا يجوز اختراقها.

وعـائشة، في أسـرتها، واحـدة من ثلاث بنـات وُلِدْن لاسمـاعيـل بـاشـا. توفيت إحداهن (عفّت) فرثتها الشاعرة في ديـوانها «حلية الـطراز» والثانيـة منيرة تـزوجت علي بـاشا آصف. وعـائشة كـانت مختلفة عن البنـات، وقد آنس منهـا والدها، مَيْلاً إلى تعلّم القراءة والكتابة، فأحضر لها أستاذين هما: خليـل رجائي ليعلّمهـا القراءة والكتـابة، ومؤنس أفنـدي لتقرأ عليـه القـرآن الشـريف والفقـه وتتعلم الخط.

غير أن أمها أرادتها أن تبقى ضمن دائرة النساء، وتتعلم ما كان صالحاً وجائزاً لامرأة ذلك الزمان: التطريز ورعاية الشؤون العائلية والمنزلية. ولكن الطفلة أبدت نفـوراً، ليس للأدوار المحـددة وحسب، بل ولكـل ما يخصّ النسـاء من مجـالس ومجتمعات مفضّلة التسلل الى قاعة الرجـال، حيث يعقد الأب مجلسـه، في رفقة أهل الفكر والأدب.

ولم ينهرها أبوها، حين اكتشف ميلها ذاك، بل ساعدها بكـل ما استـطاعه. وكان يتابع، شخصياً، تدريسها الأدب، وتقويم ملكتها الشعرية، ويُدافع عنها في وجه أمٍّ ظلت بعيدة عن فهم الابنة، بل ظنّتْ أن في طبع ابنتها، شذوذاً وكانت «تسأل الله عليها صبراً ولها معونة. . .».

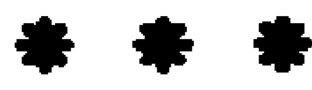
ودار صـراع عنيف بين الأب والأم، فـوق رأس الابنة، سجّلتـه في مقدمـة ديوانها: «وكانت أمي تعنّفني بالتكدير والتهديد. فلم أزدْ إلا نفوراً، وعن صفـة التطريز قصوراً. فبادر والدي، تغمّد الله بالغفران ثراه، وجعل غُـرف الفردوس مأواه، وقال لها: دعي هذه الطُفيلة للقرطاس والقلم، ودونك شقيقتها، فأدّبيها بما شئتِ من الحكم. . . ثم أخذ بيدي وخرج بي إلى محفل الكتاب. . .».



وظلّت الأم تصرّ عـلى «أن المنسج هـو أداة النساء، وأستـاذ المعارف لبنـاتِ حوّاء. .»؛ بينما تـراه الابنة همـاً عنيفاً لأن «نفسي مـا برحتْ نـافرة من المشـاغـل النسوية. . .».

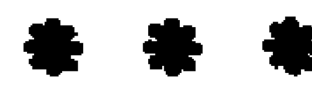
ولا تكتفي الأم بالكلام، بل تهدّد وتتوعد، مما يجعل الأب يتدخّل بقوّة، ليحسم الموقف: «إحذري من أن تكسري قلب هذه الصغيرة، وأن تثلمي طُهرَه. وما دامت ابنتنا ميّالة بطبعها إلى المحابر والأوراق، فلا تقفي في سبيل ميلها ورغبتها وتعالَيْ نتقاسم بنتَيْنا: فخُذي «عفّت» وأعطيني «عصمت». و إذا كانت لي من عصمت كاتبة وشاعرة، فسيكون ذلك مجلبة الرحمة لي بعد مماتي. . .».

و«عصمت» هو الاسم الذي اعتمدته الكاتبة في توقيع ديوانها باللغتين التركية والفارسية. وهذه الحكاية مسجلة في مقدّمة الديوان.



وإذ أنقل هذا المشهد للصراع القائم بين الوالدين، فلكي أصوّر الجوّ العام الذي خيّم على طفولة عائشة، والدور الفاعل الذي لعبه ذلك الأب القوي المتحرّر من أي تعقيد أو تحديد. وبالتالي: هل تكون هذه الحكاية خلاصة الأجوبة على تساؤل الباحثين: من أين كان لعائشة تلك الميول الأدبية المبكرة؟. . .

طبعاً هناك ميول فطرية في الإنسان، وملكات تولد معه طفلاً، وتتغذى وتنمو إذا وجدت لها تربة صالحة، وبيئة تحضنها بعطف وعناية. وقد تموت البذور قبل أن تفرخ إذا كانت الأرض جافة عدائية. ومن حسن حظ صاحبة السيرة أنها وجدت خير تربة في بيئتها الأولى، كما استندت إلى ذراع ذلك الأب القوي، وبدأتْ مسيرتها.



تقول مي: «إن عائشة ظهرت حين كانت المرأة في ليل دامس من الجهل، فجاءت بارقاً يبشّر المرأة المصرية ومستقبلها». وبدأت عائشة تكتب الشعر ولها من العمر ثلاث عشرة سنة. وكتبت باللغات الثلاث: العربية والتركية والفارسية. وأوّل من قرأ شعرها، هو الأب الساهر والمنتظر تفتّح البرعمة التي يرعاها. وحين أنشدته شعرها، ضمّها إليه، وشجّعها، ملاحظاً بأنها سوف تُدرك بنفسها،

غلطات اللغة، وسقطات القافية، خصوصاً وأنه مستعد ليحضر لها معلمة تدرّسها العروض.

لكن مرحلة جديدة بدأت ترتسم في حياة الشاعرة، حين تقدم لخطبتها محمد توفيق زاده. وعقد زواجها منه سنة ١٨٥٤ وكـان عمرهـا أربع عشـرة سنة. ولا نعلم لماذا لم تتوقف عائشة عند هذا الحدث طويلاً، بل خصّته بذكر عابر ثم مضتْ في وصف انهماكها بشؤون البيت والحياة الزوجية.

وسيدة في مرتبتها الاجتماعيـة، لا تُضطر إلى القيـام بالأعمـال المنزليـة، بل توظّف الإماء والخدم. وتحضر للأطفال مربية، وهذا يتيح لها الفرصة كي تعود إلى همومها الأدبية. وشعرت أنها بحاجة إلى تقوية لغتها، فاستدعت سيدتين لهما إلمام بعلوم الصـرف والنحو والعـروض، ودرست عليهما حتى بـرعت. وأتقنت نـظم الشعر باللغة العربية، كما أتقنته باللغتـين: التركيـة والفارسيـة وقد أخـذتهما عن والديها.

وقصائدها العربية، يضمّها ديوانها «حلية الطراز» ويحمل توقيع عائشة. بينما تحمل مجموعتاها التركية والفارسية توقيع «عصمت» واحتفظت بلقبها «التيمورية» لما نشرته نثراً وجمعته تحت عنوانين: «نتائج الأحوال» و«مرآة التأمّل في الأمور».

* * *

ويبقى الشعر وسيلتها التعبيرية الأولى. فإن هي أحبّت، تعبر عن عـاطفتها شعراً، ومن بواكيرها:

«يـا شهي الـذات يـا حلو اللما ضـاع عـمـري في عسى ولـعـلّما
إن عَـدَدْتَ النـوح مني طـالمـا قـد جرى دمعي بخـدي عنـدمـا»

ولم يجر الدمع طويلاً. و«ها هي ذي تسير في موكب العرس الى بيت عريسها، يتقـدّمها ثلة من البـوليس، وأخـرى من الفـرسـان، وحَمَلَة الشمـوع والأزهـار، والموسيقى الوطنية الشجية، بألحان الناي ونقر الـطبول. تتبعهـا مركبتهـا المجللة

بنفيس الأقمشة ووراءها خط طويـل من مركبات المدعوات».

وهذا الوصف من تصور كاتبة سيرتها، وقد درست عادات الأعراس في تلك الحقبة. وكان مقدّراً أن تظل حياة الكاتبة بعد الزواج في الظلّ، لـو لم تسجّل مـلامح منهـا زينب فوّاز في كتـابها «الـدرّ المنثـور». وبفضلهـا نعلم أن عـائشـة «اقتصرت عن المطالعة وإنشاد الشعـر، والتفتت إلى تدبـير المنزل. ومـا يلزم له، خصوصاً حينما رُزقتْ بالأولاد والبنات».

وبعد مرور عشر سنوات على زواجها خرجت الشـاعرة بـالاعتراف التـالي: «بعد انقضاء عشر سنوات كانت الثمرة الأولى من ثمرات فؤادي، وهي توحيدة، نفحة نفسي وروح أنسي، قد بلغتْ التـاسعة من عمـرها، فكنت أتمتـع برؤيتهـا تقضي يومها من الصباح إلى الظهر، بين المحابر والأقلام. وتشتغل بقية يومها، إلى المساء، بإبرتها، فتنسج بها بدائع الصنائع فأدعو لها بالتوفيق، شاعرة بحزني على ما فرط مني يوم كنت في سنّها، من النفرة في مثل هذا العمل. ولما بلغت ابنتي الثانية عشرة من عمرها، عمدتْ إلى خدمة أمها وأبيها فضلاً عن مباشرتها إدارة المنـزل ومَنْ فيه من الخدم والأتباع. فتسنّى لي أن أنصرف إلى زوايا الراحة».

وهذه التوحيدة كان لها النصيب الأوفر من محبة أمها، كما أن الأم سوف تعرف الألم الجارح والحزن العميق، بسبب هذه الابنة المختارة.

* * *

وحين استأنفت الدراسة، كانت ابنتها تـرافقها و«استـطاعت بسبب حداثـة سنّها وتوقّد ذهنها أن تُلمّ بفن العروض أكثر من إلمامي به».

ولا تترك الأم مناسبة تمرّ، دون أن تذكر حسنات هذه الابنة التي شبّت بارعة في الشعر كما في التطريز واستقبال الضيوف.

وهناك حادثة طريفة تذكرها عائشة، حين جاءتهـا بعض السيدات، بقصـد الزيارة، وربما لغرض خطبة الصبية التي بدأت تتألّق وتُعرف في المجتمع. و«خفّت

توحيدة ترحّب بهن، ريثما تأتي الوالدة، فقالت ملاطفة، بموجب الطقس المألوف: «أوحشتونا» وبسبب لثغة بسيطة جاءت الكلمة «أوحستونا» مما دفع الوالدة لتدخل وتشرح ذلك العيب فتقول:

«قال العواذل مُذ قالت مؤانِسة — «أوحستنا» انها تجفو وذاك غلطْ
لم يُبدل الشين سيناً لفظُها غلطاً — بل لم يسعْ ثغرُها الزاهي ثلاثَ نُقَطْ»

* * *

ومن «الدرّ المنثور» نعلم أن الشاعرة فقدتْ والدها سنة ١٨٨٢ ثم زوجها بعد ثلاث سنوات و«صارتْ حاكمة نفسها. . .» ووظّفت وقتها في الدراسة والتعمّق في اللغة حتى برعت و«صارت تنشد القصائد المطوّلة والأزجال المنوّعة. . .».

لكن فرحة عائشة بابنتها الأقرب الى فكرها وقلبها لم تطل. فقد ماتتْ توحيدة في ربيع العمر إثر علّة اختلست عافيتها من خلف وعي الأم. وفاجأتها ذات يوم تكتب قصيدة ترثي فيها نفسها. ثم علمت من مربيتها بأن الفتاة «تتناول طعامها أمام الوالدة، كي ترضيها، ثم تفرغه بعد لحظات. وتذهب الى السرير، لكنها لا تنام».

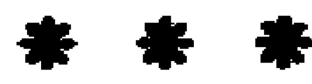
وبدأت العناية الطبية المكثّفة، إنما بعد فوات الأوان. وتحاول الابنة أن تعزّي أمّها بكلام ينمّ عن مرتبة عالية من النضج: «ثم ضمّتْني الى صدرها فاعتنقنا. وبتنا ليلتنا الى الصباح في بكاء وانتحاب ونواح».

وهكذا قضت توحيدة وظلت الأم تبكيها سبع سنوات متواصلة إلى أن وهَنَ بصرها، وأصيبت بالرمد، وضعفت صحتها. ثم خضعت لنصح المقرّبين، فراحت تبحث عن الشفاء. ونترك لها أن تصف حالها بين المرض والنقاهة: «أصبح جسمي الضعيف كأنه فاقد الحياة لكثرة أتعابي وأوصابي. ثم أنعم الله عليّ بالشفاء وأشرقت ظلمات كآبتي بنور وجود ابني محمود فكان فرحة بيت الحزن».



وهذا الابن، يأخذ على عاتقه إعادة الأم إلى حالها الطبيعي، فيطلب آثارها، كي يبدأ بنشرها، لكنها، يا للأسف، أحرقت معظم شعرها بعد وفاة ابنتها، و«إن أمك يا بني لم تبق عندها الآن رغبة في قراءة شيء. من كتب الأدب». و«سأنصرف إلى الانكباب على تفسير القرآن، ومطالعة الحديث النبوي وإني وهبتُك ما عندي من الكتب والأوراق فاصنع بها ما شئت، وإذا رأيت فيها جدارة بالطبع فاطبعها».

وإلى محمود يعود الفضل في نشر ما وصلنا من آثار الشاعرة.

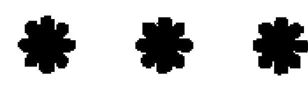


وعائشة المرأة، أين نجد أوصافها؟ لا بدّ من العودة الى خط البحث مع مي، فنعلم أن أقصى ما استطاعتْ معرفته أن الشاعرة «كانت لا طويلة ولا قصيرة، لا بيضاء ولا سمراء، لا سمينة ولا نحيفة». ورد هذا الوصف على لسان شقيقها **أحمد تيمور باشا**، وقد وُلد حين كانت في الحادية والثلاثين من عمرها، وتعيش في منزلها الزوجي لا في بيت والديها. ويقول أحد عارفيها إنها «كانت حلوة والله» وتصفها إحدى سيدات المجتمع بأنها «كانت جميلة. . ألا توركا»، أي على الطريقة التركية.

وسيدة المجتمع عائشة، كانت تعاشر نساء البلاط، وتدعوها ربة القصر إلى الحفلات والمناسبات. وتعتمد عليها في الترجمة للزائرات الأجنبيات. وإن ظلت الشاعرة غريبة بفكرها وروحها عن تلك البيئة، إذ تفوّقت على نساء عصرها. وقد ظلت مخدّرة ومحجوبة، شأن نساء زمانها. ويبقى السفور مؤجلاً الى مرحلة تالية، حين جاءت **هدى شعراوي**، وكانت رائدة السفور الأولى في مصر وفي سائر البلاد العربية.

ويظل شعر التيمورية مدار بحثنا: فالتقدير لم يأتِ من بنات جنسها، وحسب، بل هناك شهادات لرجال الفكر والأدب، تضعها في مرتبة متقدمة:

فالشيخ الغمراوي يقول: «إنها شاعرة عصر وإن أساءوا فهم الكثير من معانيها». وإن دعوتها التحررية جاءت متقدمة على دعوة قاسم أمين، كما فاق شعرها ما كتبته معاصراتٌ لها، مثل وردة اليازجي إن في نوعيته، أو بنائه. ولها فضلُ مثلَّث إذ استطاعت التعبير بثلاث لغات، كما لم تقصر عطاءها على الشعر، بل كتبت المقالة والقصة بالمفهوم السائد في حينه. وقد اعتمدت العربية لغة وطنها مصر، والتركية، لغة آبائها، والفارسية اللغة المدرسية لفئة من أدباء العرب.



أما غايات شعرها، فتتنوع بين المجاملة، والشعر العائلي والغزل والمواعظ الأخلاقية والدينية والابتهالات. وقد فرضت عليها ظروفها الاجتماعية أن تَتَفَنَّنَ في نظم النوع الأول، حتى أن الدعوة الى سهرة أو حفلة عشاء كانت تُكتب شعراً منمّقاً، ومهذباً. كذلك يدخل في هذا الباب المديح، خصوصاً مجاملة الحكام الخديويين. وهنا يبرز موقفها السياسي. وبينما أرادت كل الخير لمصر والصلاح والهناء، فقد رأت ذلك كله يتحقق على يد الخديوي، الذي تراه مؤهّلاً. ومن هذه الناحية، هي محافظة، ومنسجمة مع نفسها ومرتبتها الاجتماعية.

أما شعرها العائلي فتمتدح فيه أفراد أسرتها، وتسجل المناسبات العائلية، وتصف أو تمتدح أولادها. وأصدق هذا الشعر مراثيها، خصوصاً مرثاة توحيدة، التي ارتفعت فيها إلى مرتبة عالية، حتى تجيز مي مقارنتها مع قصيدة مشابهة للشاعر الانكليزي تنيسون ومنها:

«أماه قد عزَّ اللقاء وفي غدٍ ستريْن نعشي كالعروس يسير
قولي لربّ اللحدِ، رفقاً بابنتي جاءت عروساً ساقها التقدير
أماهُ، لا تنسيْ بحق بنوّتي قبري لئلّا يحزنُ المقبور»

وتعتذر الشاعرة عن غزلها، وقد قالته «بغير إنسان، والقصدُ منه تمريم اللسان».

وغزلها لا يخرج عن الإطار التقليدي، وكتبته بلسان الرجل. كما أن

مواعظها الخلقية والدينية بقيتْ تحت مظلّة العصر ومفاهيمه. إنما لها ابتهالات عذبة تشعّ من خلال كلماتها روح صافية، مشتاقة لملاقاة ربها.

وأعذب ما كتبتْ هو ذلك النوع من الشعر الذي يُسمّى مواويل شعبية، وتناقلته عنها الأجيال التالية، وأنشده المغنّون، وأقدم نموذجاً منه:

«حياتي بعد بُعدك نوح ووعدي ضيّعك مني
وأنت أنت الغذا للروح وليه ترضى البعاد عني؟»

* * *

أما نثر التيمورية، فيبقى أقلّ أهمية من شعرها. فهو يعتمد أسلوب زمانها، السجع، وغايته نقل الرسالة وتبليغ الموعظة والحكمة، وخصوصاً إيصال ما حفظته من تراث الأجداد. وقد حاولت كتابة القصة، إنما ظل ينقصها الفن والإبداع. وقصصها ترسبات لما علق في الذاكرة من حكايات السلف.

أما في «مرآة التأمل» فتعتمد المقالة الاجتماعية، وبلغة السجع طبعاً. لكنها كانت رائدة في وعيها، لقضايا لم تكن تثار من قبل. ومثلما تقدّمت على قاسم أمين في الدعوة إلى تحرير المرأة ونهوضها، فإنها كذلك مهدت السبيل في مجال المقالة الاجتماعية «لباحثة البادية» التي توسّعت في أبحاثها، معتمدة أسلوباً فنياً لطيفاً ومتقدماً.

* * *

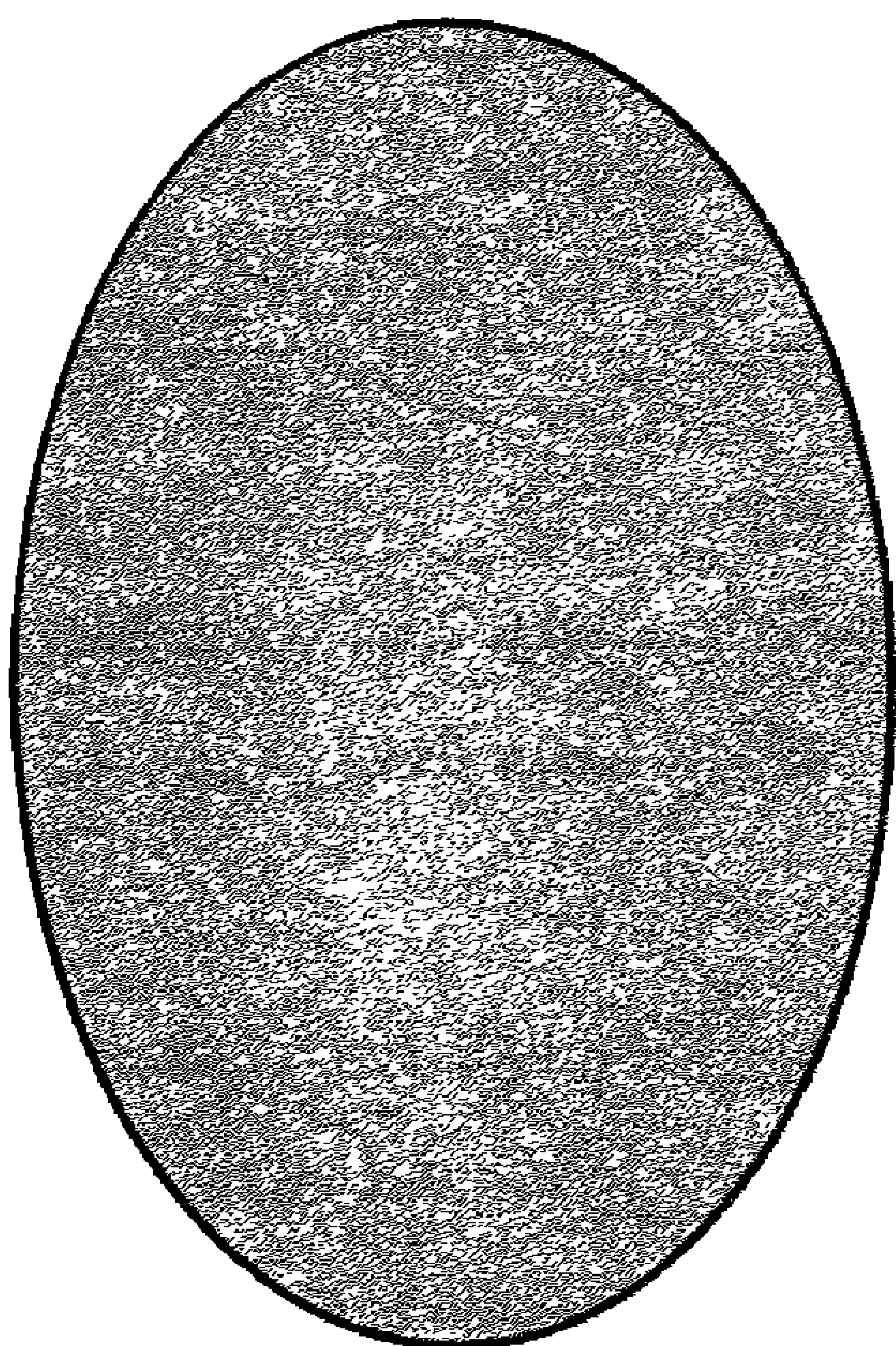
ولا أجد خاتمة لكلامي على هذه الرائدة، خيراً من تلك الأبيات الغزلية الرقيقة، والتي تكاد، إذا ما لامسها النظر، تتوارى وتذوب خجلاً:

«وهذه كلماتٌ قادها شغفٌ إليكَ لولاهُ لم تبرزْ من القلمِ
جاءتْ، ومن خجلٍ تمشي على مهلٍ تخافُ عند لقاها زلّة القدمِ»

رحم الله مثلّثة الأسماء واللغات: عائشة عصمت التيمورية، رائدة لنهضة نسائية، وصوتاً شاعرياً متقدماً، أيقظت أصداؤه عصراً وشرعت الأبواب.

زينب فواز

«... ونحن، نساء الشرق، لا يمنعنا الحجاب من التفوّق والخوض في كل مجال».



تتميز زينب فواز عن سواها من رائدات النهضة الفكرية النسائية، في لبنان والعالم العربي، بأنها مهدت لنفسها السبيل، ثم اجتازته، وحدها.

من أرض الجنوب الخيرة طلعت، مثل زهرة برية، حاملة كل ما تنطوي عليه أزهار البراري من تألق وحيوية.

وكنت، خلال بحثي عن ملامح شخصيتها، أتساءل: كيف بلغت تلك المرأة ما بلغته من وعي ونضج فكري، وهي القادمة من خلفية الفقر واليتم، ثم الجهل..؟

لكن الفقر الذي وصفه غاندي بقوله: «إنه أسوأ أنواع العنف»، لم يستطع أن يغلب نفساً تائقة إلى الحرية، وطامحة إلى المعرفة. بل يكاد خط القدر يبرز جلياً بين سطور حكايتها، وإلا فكيف يمكننا أن نفسر المحطات التي انتقلت بينها، ووجدت عند كل واحدة منها، يداً تسندها، ثم تدفعها إلى الأمام، وإلى يد أخرى ترعاها، وتعنى بها، وكأنها تلقت وحياً خاصاً لتخدم هذه الفتاة الواعدة.

* * *

قبل ربع قرن من الزمن، كتب البحاثة محمد يوسف مقلد في مجلة «العرفان» مقالاً، تساءل فيه عن المصدر الذي الهم تلك الرائدة، من رائدات الأقلام النسائية في القرن التاسع عشر، ودفعها إلى بلوغ مرتبة رفيعة بين أدباء عصرها. ومن بعض تساؤله الفقرة التالية: «ترى، من أين جاءت هذه الفتاة بميلها المبكر النادر إلى الكتب؟

فلا عن طريق الوراثة عرف أنها اكتسبت هذا الميل من أب أو أم. ولا عن طريق البيئة التي كانت الأمية فيها، طابع الحياة العامة كلها. فحتى أوائل القرن العشرين، كان في جبل عامل قرى كثيرة، تعد الأمية فيها مائة بالمائة».

حقاً، من أين جاءت زينب بذاك الوعي، بل النبوغ؟

* * *

كل ما يعرف عن أصلها أنها ولدت بين سنة ١٨٤٥ و١٨٦٠ في بلدة تبنين، في جنوب لبنان. وهي بنت علي بن حسين بن إبراهيم بن محمد بن يوسف فواز العاملي. من أسرة فقيرة، لا نعرف الكثير من أخبارها. حتى زينب نفسها التي أرّخت لأربعمائة وست وخمسين امرأة من نساء الشرق والغرب، في مؤلفها الموسوعي: «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» صمتت عن ذكر أي شيء يمكن أن يعرفنا إلى شخصها بالذات أو إلى عائلتها. وبذلك، تركت المجال واسعاً أمام التكهنات، والروايات الغريبة، والتي تقرب أحياناً من الأساطير.

* * *

وإذا عدنا قليلاً إلى تاريخ المنطقة في تلك الحقبة من الزمن، يمكننا أن نتخيل الوضع الذي وجدت فيه زينب، إنها من عائلة محترمة في بلدة تبنين، برغم فقرها. وكانت مقربة من الأسرة الأسعدية الحاكمة. وقد اتصلت زينب، بالسيدة فاطمة، بنت أسعد الخليل وهي زوجة علي الأسعد، وقضت سنوات تفتحها الأول بقربها، في حاشية من النساء.

ويبدو أن نباهة زينب استرعت اهتمام ربة القصر، فأخذت ترعاها،

وعلمتها القراءة والكتابة. كما حفزتها على الاستزادة من مناهل العلم والمعرفة، إذ كانت تتوسم فيها كل خير. وحفظت الفتاة القرآن وفهمته. وظل، طوال حياتها، قاعدة انطلاقها الروحي والفكري واللغوي.

* * *

ظلت لزينب منزلة خاصة في دار آل الأسعد، بفضل ذكائها، وخوضها غمار الأدب والشعر. ويبدو أن السيدة فاطمة كانت ذات ميول أدبية، وهذا ما وثق أواصر الصلة بينها وبين الفتاة اليافعة. وبقيت زينب مخلصة لسيدتها. وقد كتبت سيرتها في عداد من أرّخت لهن من الشهيرات، في «الدر المنثور...» كذلك اهتمت السيدة فاطمة بمستقبل زينب، وبتشجيع منها، تم زواجها من رجل يدعى محمد حمود فواز.

ويروي الأستاذ مقلد على لسان عجوز من تبنين الحكاية التالية:

«كانت زينب في «القلعة»، عند الست فاطمة. كانت امرأة فهيمة، قمحية اللون، جميلة. تزوجت وهي في «القلعة» رجلاً من بيت حمود. كان رئيس السواس (أي سواس الخيل) عند الأمير «علي بك». وكانت تلك خدمة ممتازة في حينه.

لكن هذا الزواج لم يدم طويلاً لعدم امتزاج طباعهما. وبتأثيره، كتبت زينب في «الرسائل الزينبية» (وهي، ربما، أهم أعمالها) تقول:

«ماذا تؤثر آداب المرأة وحسن سياستها، في نفس الرجل السيء الأخلاق؟ فالمرأة إذا اقترنت بالرجل السيء، وأوقفت قلبها عليه، وسلمت أمرها إليه واجتهدت في مرضاته، فلا ترى منه إلا الفتور، والتمادي في طريق اللهو والغرور، واتباع خطة الشهوات والشرور، فتصير كمن كتب على صفحات الماء، أو تعلق بالهواء، فتندم من حيث لا ينفع الندم ويصعب الخلاص بعد رسوخ القدم. وحينئذ يلازمها الحزن الذي لا ينقطع إلا بانقطاع التواصل. وإذا كانت الحال كما وصفت، فلم لا تفضل حالتها الأولى على قرين السوء؟».

وهكـذا عادت الفتـاة من هذا الـزواج الخائب، لتتـابع مسيـرتهـا في طـريق الأدب، وقد زادتها التجربة قوة ومناعـة. وانضجت فكرهـا، ودفعتها إلى المـزيد من التأمل في شؤون بيئتها، ومجتمعها. خصوصاً وضـع المرأة في ذلـك المجتمع. فهي لا تستطيع أن تبقى وحيدة، متحررة من ارتبـاطها بـالرجـل. وهكذا، بـدأ الكـلام حول زواج جـديد. وكـانت القصة، هـذه المرة، مختلفـة، بل في غـايـة الغرابة. ولا أعرف إذا كان من المعقول أن يحدث لتلك الفتـاة النابهـة ما حـدث لها مع القريب، الذي شاء أن يرغمها على الزواج منه، بل حاول اختطافها وقد نجت منه بالصدفة، والحيلة...

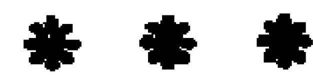
ولا بأس من متابعة الحكاية، بكل مـا فيها من عنـاصر الغرابـة والتشويق، مـع نصير المـرأة جرجي نقـولا باز الـذي روى ما يـلي: «شاء قـريب لـزينب أن يتزوجها فصـدته، مـع أنها لم تكن جميلة، ولا أنيقة... (وهـذه شهادة منـاقضة لشهادة من عرفوها في قـريتها) وقـد استدرجهـا الرجـل إلى غابـة مجاورة للقـرية وربـطها إلى شجـرة كي لا تهرب منـه، ثم راح يجادلهـا ويحاول إقنـاعهـا بفكـرة الزواج. وحين لم يلق منهـا قبولاً، هـددها بـالقتل. وبقيت هي مـالكة أعصـابها رابطة الجأش، وقد أدركت بفطنتها أن أقل مبادرة عنف منها قد تدفع نسيبها إلى عمل جنوني. وفيما هما على تلك الحال، سمع وقع خـطوات تقترب من الغـابة. ولم تبد هي أي اهتمام. وراحت الخطى تقترب أكثر. ولما تـأكدت بـأن المارة هم من «المكارين» صمتت، وخرس الرجل، ثم فاجأته بصرخة مدوية جفلته فهرب مذعوراً وسمعهـا المارة، فهـرعوا إلى مصـدر الصوت، وفكـوا وثاقهـا. وبعدمـا أخبـرتهم قصتها، رجتهم أن يقلوهـا معهم إلى بيروت. وانفصلت عنهم في محلة البسـطة، وراحت تطرق الأبـواب كي تعمل خـادمة. وقـد وجدت عمـلاً لدى أسرة يوسف حمدي يكن المصرية. وبعد مدة تزوجت رجلاً من الحاشية، وسافرت معه إلى مصر».

* * *

هـذه النقلة تطوي الصفحـة الأولى من حياة زينب، لتفتـح صفحة جـديدة

ومختلفة في مصر، حيث بقيت مع آل يكن في الاسكندرية ولفتت بـذكائهـا، نظر صديق للعائلة، هو حسن حسني الطويـراني، وكان أديبـاً وصاحب مجلة «النيـل» فراح يعلمها ويعنى بثقـافتها، ودعـاها لتقـرأ الأدباء والشعـراء وعلمها التـاريخ. وجاء في رواية أخرى بأن زينب درست الإنشاء والنحو على محي الدين النبهاني، والصرف والعروض والبيان على محمد شبلي.

وأبدت الفتاة ذكاء خارقاً، ووعياً عظيماً لاغتنام الفرصة الذهبية التي أتيحت لها والاستفادة منهـا إلى أقصى حد، خصـوصاً وأن مصر، فيتلك الفترة،أصبحت موئلاً للمفكرين، وطلبة العلم، وقد لجأ إليها عدد كبير من العلماءوالفنانين، من سوريا ولبنان، نظراً للجو السائد من حرية القول والفكر، نسبة إلى حالة هـذين البلدين، إبان الحكم العثماني.



أما فوزية فواز التي كتبت أحـدث دراسة عن الأديبـة الجنوبيـة، فقد أهملت القصـة المثيرة التي نسبت إلى الأستـاذ باز. وقـدرت أن تكون الفتـاة الطامحـة قد اتجهت بنـظرها إلى مصر، مثلما فعـل سواهـا، من أدباء وطنهـا. وربما سـافـرت بصحبة أخيها محمد علي فواز الذي عاش في مصر، ودرس المحاماة، وتوفي هناك وقد رثته أخته في أكثر من قصيدة. كذلك ورد ذكر هذا الأخ في بعض رسائلها، خصوصاً رسالة منها، موجهة إلى «برتـا أونوري بـالمر» رئيسـة القسم النسائي في معرض شيكاغو سنة ١٨٩٣ وقـد كتبت لها تقـول: «لم أر هديـة ترفـع للمعرض النسـائي من مثلنـا نحن الشـرقيـات، أليق وأجـدر من هـذا الكتـاب (الـدر المنثور. . .) الذي يحتوي على تراجم النساء وطبقاتهن في الهيئة الاجتماعية.

وجمعت فيـه من تراجم شهيـرات العرب ومتقـدمـات الافـرنـج، وملكـات الشرق والغرب، من كـل أديبة فـاضلة، وملكة عـاقلة وخطيبـة وناثـرة. . . ولو كـانت عوائـدنـا، نحن النسـاء المسلمـات تسمـح لنـا بـالحضـور في مثـل هـذه الاجتماعات لكنت سعيت بنفسي لتقديمه». ثم تطلب منها أن تتفضـل بالجـواب

على: «يد شقيقي محمد أفندي علي فواز الأفوكاتو بمصر».

وبرغم رضوخها لبعض التقاليد فإن زينب لم تكن راضية ببقاء المرأة العربية، مراوحة مكانها، بل كانت ترسل النداء تلو الآخر، وتحثها على النهوض، عبر مقالاتها، المنشورة في عدد من صحف ومجلات زمانها، وفي مقدمتها: «النيل» ثم «المؤيد» «الأهالي» «المهندس» «فرصة الأوقات» «الهلال» «الفتاة» «المقتطف» «أنيس الجليس» «اللواء» «رائد النيل» «الاتحاد المصري» «الأستاذ» «الفتى» «زهرة الفتاة» «لسان الحال» و «البستان». وإذ أحرص على تعداد تلك الصحف، فلكي أشير إلى الحقل الشاسع المفتوح أمامها وأمام كل رائدة، كانت لها جرأة زينب في التصدي الفكري للنهوض بالمرأة والمجتمع، عن طريق العلم والمعرفة، وذلك في عهد لم يكن فيه صوت المرأة مسموعاً.

«ورسائلها الزينبية» كانت سابقة لدعوة قاسم أمين، رائد مناصرة المرأة، وعائشة التيمورية، بل كانت أول صوت نسائي مصري على طريق النهضة والتحرير. وبالطبع قبل مي زيادة وهدى شعراوي. ومن هنا، تكتسب زينب أهمية الريادة، كما تسجل مواقفها، والمواضيع التي طرقتها، وعياً عجيباً، ونظرة بعيدة، إلى مستقبل المرأة لا في وطنها وحسب بل وفي الشرق عامة، إذ إن الدعوة، كانت مشرقية، وبقيت كذلك، في عصر مي، وحتى من أقتفين آثارها، من الكاتبات والمحاضرات و «كلنا في الهم شرق» كانت شعار النهضة الأولى، والمرحلة التي تلت.

* * *

ولم تترك زينب فرصة تمر دون أن تسجل موقفها حيالها. وعندما أصدر جرجي نقولا باز مجلة الحسناء في لبنان، كانت هي أول من بعث قصيدة مديح نذكر منها:

«اذع آي الثناء على كريم سما في حب إصلاح الغواني
«فحسناء» العلى قد انعشتنا وسعي «الباز» موفور الأماني»

كما تصدت للأديبة السورية هنا الكوراني في جريدة «النيل» حين انتقدت نساء بريطانيا لمطالبتهن المشاركة في سياسة البلاد. فزينب ذات النظرة الشمولية، ترفض أن تحدد المرأة في دور واحد دون سواه. وبذلك تقدمت على رائدات عصرها. وتعدى اهتمامها، وضع المرأة في بلادها، ليشمل الوضع النسائي عامة، تشهد على ذلك وقفتها الشجاعة الواعية ومناهضتها لقرار كان الاتحاد النسائي العالمي قد اتخذه في مؤتمر عقد في مدينة «سانتياغو» «بالتشيلي» عام ١٨٩٣، وفيه دعا النساء الأعضاء إلى حصر نشاط المرأة، وتضييق أفقها. وتشجيعها على الانصراف إلى شؤون البيت والأسرة. كما حررت رسالة بهذا المعنى تعارض فيها موقفاً لصاحب مجلة «العرفان» عارف الزين قالت فيها: «إن المرأة قادرة على القيام بأعمال الرجال، بخلاف ما قلت، أيها السيد، في إحدى مقالاتك. وها هن نساء الغرب يتفوقن على الرجال، كما تدل سيرهن التي وضعتها في الكتاب المرسل إليك. ونحن، نساء الشرق، لا يمنعنا الحجاب من التفوق والخوض في كل مجال».

* * *

لم يكن صوتاً عادياً، صوت زينب فواز. وقد اسمعته كل من اهتم بالأدب، أو بنهضة المرأة في زمانها، من «مصر» إلى «بلاد الشام».

وكانت قد بدأت تتألق وتنعم بمجد الشهرة، حين تلقت رسالة من الأديب السوري أديب نظمي رئيس جريدة «الشام»، يعبر فيها عن إعجابه. وانتهى هذا الاعجاب بزواج ظنت زينب أنه قد يحقق لها السعادة والاستقرار.

عُقد الزواج غيابياً، في منزل أستاذها حسن حسني الطويراني. وحضرت إلى سوريا، وهي زوجته شرعاً. وكان نظمي مقيماً في قرية «الشيخ مسعد» بحوران. وبقيت هناك سنة ضاقت بعدها بجفاف العيش، وانقطاعها عن مركز الفكر والنشر في القاهرة. ولم تلبث أن انتقلت إلى دمشق، ظناً منها أن الحياة فيها، أسهل من الحياة في قرية معزولة، وأكثر انفتاحاً على الأجواء الأدبية.

وبالفعل، فقد نقل زوجها، تلك الأجواء، إلى داره، وكان المجلس الأدبي ينعقد، ويشارك فيه وجوه الأدباء والمفكرين في دمشق. . .

وكانت زينب تناقش وتحاور المجتمعين، من خلف الستار. أو من غرفة مجاورة. . ولكن، في دمشق، استقبلتها ضرائرها الثلاث، وبالطبع لم يسرها ذلك، خصوصاً وانها كانت ترى في تعداد الزوجات «وبالاً على الطرفين، لأنه يقضي على المرأة بالغيرة، وعلى الرجل بالنكد، ويورث الأولاد العداوة بعضهم لبعض، أشد من عداوة الأمهات».

وهكذا أفاق الزوج ذات يوم، ليكتشف أن زينب لم تعد تطيق البقاء في هذا الجو، فطلبت الطلاق، وعادت إلى مصر، مخلفة في صدر زوجها حزناً شديداً لفراقها. وحين سأله أحدهم إذا صدف أن تشاجر مع زينب، أو ضربها، أجاب شعراً:

«رأيت أناساً يضربون نساءهم فشلّت يميني يوم أضرب زينبا
فزينب شمس والنساء كواكب إذا طلعت لم تبق منهن كوكبا»

* * *

وفي مصر، عادت زينب إلى متابعة حياتها الأدبية. إلا أنها، مع تقدم العمر، بدأت تشعر بالحنين إلى قريتها تبنين. وعبرت عن شوقها في قصيدة وجدانية جاء فيها:

«يا أيها الصرح، إن الدمع منهمل فهل تعيد لنا يا دهر من رحلوا
قد كنت مسقط رأسي في ربى وطني إن الدموع على الأوطان تنهمل
أبكيك يا صرح كالورقاء نادبة شوقاً إليهم، إلى أن ينتهي الأجل»

* * *

وحل أجلها في أواخر كانون الثاني سنة ١٩١٤، وجاء في النعي الذي نشرته الصحف في حينه: «نعت إلينا أنباء مصر المرحومة زينب فواز، الكاتبة، الشاعرة

والمؤلفة، وأول امرأة اشتهر اسمها في عالم الأدب والكتابة في الصحف، وقد نالت شهرة بعيدة في حياتها. ونالت حظوة كبيرة عند كبراء مصر وسوريا».

ورحلت، بعدما حملت رسالة بعث المرأة العربية من جمودها، ورجعية محيطها. وصورت المجتمع المصري على حقيقته. خصوصاً أوضاع المرأة فيه. وقد مكنتها خبرتها، ونظرتها الثاقبة، وتحررها الفكري، من كتابة أعمال في غاية الأهمية.

وإذا بقيت بعض الزوايا من حياة هذه الأديبة، مجهولة من الباحثين، وكتّاب السيرة، فلأن زينب اهتمت بأن تكتب عن غيرها، ولم تكتب عن نفسها. وربما تركت أمر ذلك لمن يأتي بعدها.

* * *

ومع أن الآثار التي تركتها لنا، بقيت ردحاً من الزمن منسية، ومجهولة، إلا أن «المجلس الثقافي للبنان الجنوبي» تنبه إلى هذا الأمر، وبدأ ينشر بعض مؤلفاتها، في سلسلة «التراث العاملي» صدر منها الى حين كتابة هذه الصفحات، رواية «حسن العواقب» ومسرحية «الهوى والوفاء» كما سيصدر تباعاً كتابها الموسوعة «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» و«الرسائل الزينبية» وهي الأهم إذ انها دليلنا إلى المدى الذي بلغته هذه الأديبة في وعيها ونضج تفكيرها.

كما لها رواية تاريخية عنوانها «الملك قورش» و«كشف الازار عن مخبئات الزار». وذكرت بعض المراجع أعمالاً لها بقيت مخطوطة وهي: «مدارك الكمال في تراجم الرجال» «الدر النضيد في مآثر الملك عبد الحميد» وديوان من الشعر.

ولا أجد أفضل من وقفتها الفلسفية التأملية، كخاتمة لكلمتي عنها، إذ قالت:

«بدء الحياة وجود حيث نغشاه ... نظل نرجو، وما نرجوه نخشاه
والمرء في جوهر الدنيا حكى عرضاً ... يزول عنها وتبقى عنه دنياه
لا شيء من زينة الدنيا لساكنها ... سوى محاسن ما تبقيه ذكراه»

وذكراها، تبقى اليوم وغداً. فالرائدة التي غادرت الدنيا قبيل الحرب العالمية الأولى، تركت بعدهـا درساً في العصـامية، وقـوة الإرادة وثبات العـزيمة، وهـذه بعض من «محاسن ذكراها».

أنيس باز

«طوباكِ! لأنكِ فتحت باب التعليم أمام بنات بلادي».





تاريخ المرأة حديث العهد. المرأة الرائدة، أعني، في العلم، كما في الأدب والفن وسائر المعارف والعلوم! ومن صفحة التاريخ القريب اقرأ حكايتها.

* * *

أنس بركات. مولودة سنة ١٨٧٤. أي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، من عائلة لبنانية راقية، بدليل انها هيأت الفرصة لفتياتها كي يتابعن دراستهن الثانوية ـ ثم العالية.

* * *

أنس (ربما اختصار للاسم الروسي انستازيا) طالبة في مدرسة الإنكليز في بيروت. مجتهدة، وصاحبة طموح لا يعرف حداً. رفيقاتها في المدرسة، باقة من الصبايا الخجولات. وعلياء الرفيقة المفضلة بينهن.

ذات يوم، تلاحظ أنس شحوباً يعلو وجه علياء، وحزناً يزنر عينيها. تقترب منها مستفهمة:

ـ ما بك، يا صديقتي؟ ترد الفتاة بأسى:

ـ أمي مريضة.

ـ احضروا لها الطبيب.

ـ الطبيب؟. . . وهي امرأة؟. .

ـ إذن استدعوا طبيبة.

ـ وتحسبين أن عندنا طبيبات؟.

تلك الليلة لم تنم الفتاة. قضت ساعات أرقها تتساءل:

ـ لماذا لا يكون عندنا طبيبات.

* * *

ولكن الفرصة غير مهيأة للمرأة. والجامعة التي تدرّس الطب، في بيروت، تستثني الفتيات. الاختلاط بين الجنسين ممنوع. . . وكيف السبيل إلى تحقيق الطموح؟ يقول فيلسوف معاصر:

ـ حين تكون الرغبة في الشيء قوية وصادقة، فهي تشق سبل تحقيقها.

والصبية الحلوة أنس راغبة في دراسة الطب. وإذا اصطدمت رغبتها بأسباب محلية، فهناك العالم ينفتح لها. ولكن، كيف تتوصل، فتاة وحيدة، إلى غزو العالم؟

* * *

خط قدرها يجيب عن السؤال. ها نحن في العام ١٩٠١. وأنس في السابعة والعشرين من عمرها، مرحلة بداية الأفول بالنسبة إلى حسابات عصرها. وهي، تضع قدمها على عتبة الحياة. شقيقتها (مرتا) تتسلم رسالة من زوجها (قسطنطين مكنا) المغترب في أميركا، يستدعيها للذهاب إليه. وتغتنم أنس الفرصة فتسافر، برفقة شقيقتها، لتتابع دراستها العليا في الخارج.

فور وصولها، قبلت في جامعة ديترويت ـ ميشيغن ـ وفي كلية الطبّ بالذات. أربع سنوات، قضتها الصبية، في دراسة الطب، مركزة على الطب النسائي، ومشعة في محيطها الطلابي، كنجمة. فقد حصلت على منحة، نظراً

لتفوقها، كما كانت مندوبة صفها إلى المؤتمرات الطلابية . . .

وشاءت أن تتفرد في دراستها، فتخصصت إلى جانب الطب النسائي، بمعالجة الأمراض المزمنة عن طريق مداواة أعراضها. وقبل أن تعود إلى لبنان، عام ١٩٠٧، عملت، مدة سنة في عدة مستشفيات من نيويورك إلى فيلادلفيا، واكتسبت خبرة هامة، نقلتها لتخدم بها أبناء وطنها.

ولم يكن صعباً عليها أن تبدأ ممارسة الطب، فالأبواب شرعت أمامها، نظراً لحاجة المجتمع القصوى، إلى وجود طبيبة ـ انثى.

وقد تسلمت إدارة مستشفى القديس جاورجيوس طيلة أربع سنوات، وهذا دليل واضح على الثقة بمؤهلاتها. كما أنشأت عيادة خاصة بها، في محلة الجميزة.

الطبيبة المميزة على طريق الصعود. تجربتها الناجحة، شجعتها لتدفع غيرها فوق سبل العلم، فقد حثت أختها «زهية» على السفر لدراسة الصيدلة. وبالفعل سافرت زهية، وعادت سنة ١٩٢٨ حاملة شهادات في الصيدلة والتحليل، خولتها أن تفتح صيدليتين، واحدة في بيروت والثانية في بلدة ضهور الشوير.

* * *

ذاعت شهرة الطبيبة، وانتشر نشاطها بين مصر وسوريا والعراق. كذلك اهتمت بالنشاطات الثقافية والاجتماعية، واشتركت في عدة جمعيات نذكر منها: «جمعية الأطباء والصيادلة»، «الطبيبة اللبنانية»، «نقابة أطباء لبنان» و «جمعية مقاومة السل». وكانت عضواً في كل من «المجمع العلمي السوري»، «الهلال الأحمر» و«الأكاديمية الدولية» في سان لان. وهي صاحبة فكرة إنشاء «جمعية الصدق» التي نشرت فروعها في معاهد الفتيات، لتحث الفتاة على الأمانة وعدم الخوف من مواجهة المواقف الصعبة.

والذين رافقوا هذا النشاط الطريف يروون أن الفتاة التي كانت تظفر بجائزة الجمعية، سرعان ما تجد فتاها وتتزوج زواجاً سعيداً.

وكانت للدكتورة أنس، لفتة خاصة إلى مدارس البنات، جسدتها بتقديم جائزة لكل من مدرسة «نور الحياة» «مدرسة الروم» و«الثلاثة أقمار» في بيروت، ومدرسة «الصراط» في عاليه.

ولم تكن تتردد، في يوم، عن تلبية دعوات الأندية والجمعيات، إلى إلقاء المحاضرات، وتوعية الجمهور، صحياً وثقافياً.

* * *

وصدف، اثر عودتها من أميركا، أن دعيت إلى إلقاء محاضرة في حفلة اقامتها جمعية «شمس البر» كان موضوعها «الكهربائية والطب». أما الخطيب الآخر في الحفلة، فكان الأديب جرجي نقولا باز وألقى كلمة عنوانها: «مالي جَلَد»..

وبعد انتهاء الحفلة، تقدم الخطيب يهنىء الدكتورة على شجاعتها، كما هنأته هي، بدورها، على ما يبديه من حماسة، تجاه كل ما يختص بالمرأة، من شؤون علمية وحضارية.

* * *

بعد هذا اللقاء، صار الصحافي، والأديب، جرجي، يتحين الفرص للاتصال بالطبيبة، يطلب مساعدتها، في أمور تتعلق بجمعية «مقاومة السل» التي يرعاها. وتطورت الصداقة، حتى انتهت بخطبة، فزواج سنة ١٩١٥.

ومن طريف ما يذكر عن الخطيبين، انهما قاما بترجمة مذكرات الامبراطور الروماني مارك أوريل بانتظار موعد الزواج.

* * *

كان لقاء هذين الزوجين مثمراً من عدة وجوه: فالطبيبة تابعت نشاطها العلمي والاجتماعي، بمناصرة زوج نال عن حق وجدارة لقب «نصير المرأة» في مرحلة عز فيها وجود أنصار يدعمون نضال المرأة. فكان هو ومحمد جميل بيهم في

لبنان، مثلما كان قاسم أمين في مصر. والمؤسف، أن هذه الأسماء الثلاثة، قلما تذكر، في سياق الكلام، على تاريخ النهضة النسائية، وإن ذكرت يبقى الذكرُ مقصراً عن توفيتها حقها.

لقد تمكن جرجي نقولا باز، بمناصرته للمرأة، أن يقدم المثال الضروري، لتلك المرحلة. وكان موقفه فاعلاً وبناء، نظراً لعمله، في حقلي الصحافة والأدب، ولم يتخل عن تلك المناصرة حتى آخر يوم من حياته.

* * *

أما رأيه في زواجه من طبيبة، فقد عبر عنه في حديث صحفي قال فيه: «زواجي من الدكتورة أنس وطد في رأسي النظرية التي راودته منذ فجر فتوتي - أعني أهلية المرأة لكل صلاح. لم نصطدم في حياتنا العملية. شجعتها على مزاولة الطب، وشجعتني على الأدب. إن توفيقي في الزواج، قوى ثقتي بالمرأة، فأنا نصيرها العمر».

وكانت ثمرة هذا الزواج ولدين هما: اسكندر ونقولا باز.

* * *

ويروي نقولا عن والديه انهما: «كانا زوجين مثاليين. أبي ساعد المرأة على التحرر المعنوي، وأمي ساعدتها على تخفيف آلامها الجسدية...

لم تكن والدتي تتأخر عن تلبية حاجة مرضاها، ومهما كان الوقت متأخراً في الليل، كانت تنهض فترتدي ثيابها، ولا تنسى أن تمسح وجهها بذرات بودرة تزيده تألقاً. كانت إمرأة أنيقة، ومكتملة الأنوثة».

* * *

في العام ١٩٢٣ قامت الطبيبة، والأم والزوجة، برحلة دراسية إلى فرنسا، استغرقت سنة كاملة، قضتها في متابعة تخصصها في الجراحة النسائية، وذلك في مستشفى «بروكا». وكان زملاؤها أطباء من دول أوروبا وآسيا وأميركا اللاتينية،

بينها هي المرأة الوحيدة بينهم. وهذا ما ترويه صورة مأخوذة للمناسبة، وتحمل تواقيع عشرين طبيباً. . . للذكرى.

* * *

لم تتخرج الدكتورة أنس من الجامعة الأميركية في بيروت، إلا أن نجاحها في حقل الطب، في زمانها، دفع الجامعة إلى تبنيها واعتبارها بين المتخرجين من معهدها الطبي.

وهذا ليس كثيراً على طبيبة، خدمت مجتمعها، طوال خمسين سنة، وكانت شعلة نور في محيطها، ونسمة أمل للمرضى والمتألمين. . . كذلك قلدتها الحكومة اللبنانية وسام الاستحقاق المذهّب، اعترافاً بخدماتها الإنسانية.

ولم تتوقف عناية الدكتورة أنس، على جسم المرأة، بل كان لها اهتمام بنفسيتها. وتعود جذور هذا الاهتمام إلى سنواتها الدراسية، إذ أولت دراسة الحالات النفسية لدى المرأة والطفل، عناية خاصة.

* * *

وإننا نقدر أهمية الخطوة التي قامت بها هذه المرأة الشجاعة، حين نعود، بالذاكرة، إلى مطلع القرن، ونتذكر كم أن الأبواب كانت موصدة في وجه المرأة، مما دفع الرائدات، إلى التحدي، كما دفع الأدباء الواعين، إلى دعم هذا التحدي، والوقوف في صف المرأة، والانتصار لقضيتها.

* * *

وإن الخطوة الأولى التي خطتها الصبية أنس سنة ١٩٠١، حين ردت الباب خلفها، وعبرت بحار التحدي، كان لها صدى في صفوف الصبايا الطامحات.

وقد كتبت لها واحدة منهن تقول: «طوباك! لأنك فتحت باب التعليم أمام بنات بلادي».

وكان هذا أول عهد الرائدة الصحافية جوليا طعمه دمشقية، في الكتابة. أما الأديبة سلمى صائغ، فقد أهدتها، بعد ربع قرن من هذا التاريخ، باكورة أدبها «النسمات» وكتبت في التقديم:

«إلى أنس العزيزة، السائرة بسرعة إلى ذروة الكمال الإنساني، المضيئة بروحها النيّرة سبيل جهادنا النسائي، إلى المرأة التي علمتني أن أخدم بمحبة ومعرفة، أقدم هذا الكتاب».

هدى شعراوي

«ورفعنا النقاب، وقرأنا الفاتحة

ثم نزلنا على سلم الباخرة».



يغـرق، الباحث عن شخصيـة هـدى شعـراوي، في بحـر من الـدراسـات والقصائد والمقالات التي تناولت شخصيتها وعملها، بـالمديـح والثناء حتى أقصى حدود الكلمة.

وبالطبع، لم يغدق الكلام على هذه الرائدة المتميزة، مجاناً، فقـد دفعت ثمنه سلفاً من خلاصة الروح ونور العينين.

* * *

ولدت هدى شعراوي «أو هدى مصر» كما لقبوها فيما بعـد، في المنية، من بلاد الوجه القبلي، بتاريخ ٢٣ حزيران سنة ١٨٧٩ وتوفيت في ١٣ كـانون الأول سنة ١٩٤٧.

أبـوها محمـد سلطان باشـا، رئيس أول مجلس نيـابي في مصـر قبـل الثـورة العـرابية، وحـاكم الصعيد العـام، ومن أغنى أغنياء مصر. وقـد تـوفي ولهـا من العمر خمس سنوات. وتقول في مذكراتها:

«كنت قليلة الاتصال بوالدي. إلا أنني كنت أذهب إلى غرفته، كل صباح، لأقبل يده، ومعي أخ لي من أم ثانية اسمـه إسماعيـل، فكنا نجـده متربعـاً على

سجادة الصلاة يسبّح، فنقبل يده، ويقبلنا، ثم ينهض، ويفتح خزانة كتبه، ويخرج لكل منا قطعة من الشيكولاتة... وكان يوم وفاته بدء تنبهي وشعوري بالحياة».

أما أمها، فكانت سيدة تركية على جانب من الوعي والرقي، وهي التي استدعت لها مدرسين، ليعلموها في البيت، العربية والتركية والفرنسية والموسيقى.

* * *

نعود إلى مطلع مذكراتها فنقرأ: «كنت في التاسعة من عمري عندما ختمت القرآن الشريف. فظن من حولي انني ملكت ناصية اللغة العربية والديانة. ولكني في الحقيقة، كنت لا أستطيع قراءة شيء غير القرآن لأنه مشكّل...»

أما طفولتها، فتعبر عنها أيضاً مذكراتها، خير تعبير إذ تقول:

«بدأت حياتي تحت رعاية خدم جهلاء، يخفون عن الأطفال أمثالي، ما كان يجب أن يعرفوه من الحقائق، أو يحيطونها بنسيج من الخرافات له خطره وتأثيره على عقول الصغار...».

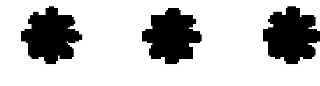
* * *

هذه النماذج من الملاحظات الواردة في مطلع مذكرات هدى شعراوي ذات دلالة هامة، إذ أنها تنعكس، فيما بعد، على حياتها، وعلى كل جهد بذلته في سبيل تحرير المرأة خصوصاً، والمجتمع عامة، من عقد وترسبات تقليدية كانت تشد بهما إلى التخلف والجمود.

* * *

تزوجت هدى من علي الشعراوي، أحد أعضاء الجمعية التشريعية. وكان لها من العمر ثلاث عشرة سنة، ووضعت منه ولدين: محمد ـ أصبح فيما بعد

عضو الشيوخ ـ وبثنة زوجة محمود سامي باشا. أي أن زواجها كان تقليدياً، وحسب العرف السائد، في المجتمع. وكان لهذه التجربة أثر عميق في حياتها، فحين قامت تناضل، فيما بعد، وضعت في طليعة مطالبها تحديد السن الأدنى للزواج عند الفتاة بست عشرة سنة. وقد نجحت في الحصول على ذلك سنة ١٩٢٤.



غير أن هذا التاريخ، لم يكن الخطوة الأولى في نضال هدى شعراوي، إذ وعت باكراً جداً، أن المرأة، في مجتمعها، مسحوقة الإرادة، والشخصية مهضومة الحقوق، وأن الطفولة تلاقي عذاب المرض، والتشرد والفقر، وأن المواهب مهملة، ضائعة. ودلتها حاستها الشاعرية المرهفة، إلى أن المسرح مهيأ لتلعب عليه دوراً إنسانياً فعالاً، هو دور الريادة والقيادة.

وكانت على أتم الاستعداد، إذ «جمعت بين المجد الاثيل، والجاه العريق والذكاء الوافر، والأدب الراقي، والثروة الواسعة، والكرم والسخاء والتضحية» كما كانت: «عنوان المرأة التي التقت فيها شروط اللياقة والأهلية والكفاية، والمزايا المادية والمعنوية لخدمة وطنها، والعمل على رفع مستوى بنات جنسها».

هذا إلى جانب جمال ساحر، وشخصية آسرة، تسطو على من حولها، وتجعلهم ينقادون إليها باللطف والمحبة.



ولاحظت هدى، في مرحلة باكرة جداً (أي سنة ١٩٠٦) ترهل الفتيات في مجتمعها، فدعت إلى بدء نشاط رياضي للفتيات. وأنشأت ملعباً مسوراً لهذه الغاية. لكن الفتيات أحجمن عن ارتياده، وظل الملعب إشارة عند مفترق طرق.

وفي سنة ١٩٠٧ أسست جمعية لرعاية الأطفال. وفي سنة ١٩٠٨ طالبت

جامعة القاهرة بتخصيص قاعة للمحاضرات النسائية والاجتماعية، فكان لها ما أرادت. وفي سنة ١٩٠٩ اشتركت في تأسيس «مبرة محمد علي» للأطفال المرضى.

وكان هذا كله، الخلفية، التي أعدت للنشاط اللاحق، والذي أطلقها زعيمة اجتماعية وسياسية، بل رائدة شرقية مميزة.



ففي سنة ١٩١٩ نهضت مصر للمطالبة بالاستقلال. ولم تتخلف المرأة عن تلك الحركة، بل نزلت بحماسة، تساند «الوفد المصري». وكانت هدى، قد انتخبت رئيسة لجنة الوفد المركزية للسيدات.

وكان أبرز ما قامت به قيادة التظاهرة الكبرى التي خرجت إلى الشارع، تطالب بالاستقلال وكانت تلك، أول مسيرة نسائية، واجهها المجتمع بالذهول، ثم بالتصفيق، واندفع الشعراء يتغنون بهذا النشاط الجديد، وكانت لحافظ إبراهيم (شاعر النيل) قصيدة مأثورة نظمها بهذه المناسبة مطلعها:

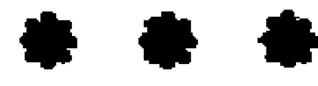
«خرج الغواني يحتججن ورحت أرقب جمعهن»

ولا بد من وقفة قصيرة عند كلمة «غواني» يطلقها كبير شعراء مصر، على النساء المناضلات. وهذه التسمية، إن دلت على شيء، فعلى ما كانت ترسف فيه المرأة الشرقية، من قيود الجهل، وتشرنق الانعزال والاتكالية.

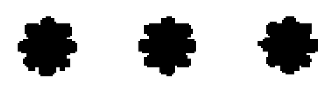
وبالطبع، لم تتوقف هدى عند حد المطالبة والتظاهر، بل تابعت سعيها - بعدما اعترفت انكلترا لمصر باستقلالها سنة ١٩٢٢ وبحقها في الحصول على السيادة التامة.

ولها وقفة مشهودة حين كانت أول من احتج، في كتاب عنيف اللهجة، على ضعف زغلول باشا أمام المندوب السامي البريطاني، والرضوخ لمطالبه. طالبته هدى، آنذاك، في كتاب تاريخي، بالتخلي عن رئاسة الحكومة، لسواه، حتى لا

يقف حجر عثرة في سبيل غيره.



ولا بد من الاشارة، هنا، إلى أن نضال هدى شعراوي لم يكن معزولاً عن نضال رفيقات لها، في شتى الأقطار. فالمرأة ظلت ترصد ما كان يحدث في الخارج، وفي دول أوروبا وأميركا بصورة خاصة، كما كانت منفتحة على وضع المرأة في البلدان العربية، بل المشرقية، إذ وسعت رقعة نضالها، فجعلتها مشرقية لا عربية وحسب. وهذه ظاهرة تطالعنا في الأدب الذي كتب في تلك المرحلة، سيما أدب المرأة، والذي كان يخاطب المرأة الشرقية، لا العربية وحدها.



كذلك تجدر الإشارة، إلى أهمية إنشاء أول اتحاد نسائي، على يد هدى سنة ١٩٢٣، وكان تحرّكه موزعاً بين ثلاثة قطاعات:

- القطاع السياسي، ونشاطه يتركز على مساندة الحركة الاستقلالية، وتعديل الدستور.

- القطاع الاجتماعي، واهتماماته التعليم، وحماية الصناعات الوطنية وتشجيعها - وكانت هدى توفد على نفقتها حرفيين إلى إيطاليا وفرنسا، وسواهما من الدول المتفوقة فنياً وصناعياً، ليدرسوا، ثم يعودوا فيطبقوا علومهم في معامل أنشأتها من مالها الخاص - وتعميم المستشفيات وتحديد مسؤولية الوالدين تجاه أولادهم، وتنظيم أوضاع السجون، ومحاربة البدع والخرافات، وبناء مصحات وحدائق الأطفال، وحماية اليد العاملة، وإنشاء التعاونيات الزراعية، وإدخال أصناف زراعية جديدة.

- القطاع الثالث، هو ما يختص بالمرأة، وتحقيق مطالبها في التعليم والانتخاب وإصلاح قوانين الزواج، وتحديد سن الزواج، ومنع تعدد الزوجات، وتحديد شروط الطلاق.

وقد نجحت هدى في الحصول على قسم كبير من هذه المطالب، في حياتها، وتابعت رفيقاتها المسيرة بعدها، مستنيرات بنور هدايتها.

* * *

في سنة ١٩٢٢ فقدت هدى زوجها، وخلف لها ثروة ضخمة، لم تحصر الاستفادة منها بشخصها وأسرتها، بل أنفقت منها مبالغ طائلة، على المساعدات الاجتماعية، للأسر المحتاجة، كما أنفقت مبالغ وافرة على البعثات العلمية في الخارج. ولم تقف بعيدة عن الطبقات المحرومة، بل كانت تشرف بنفسها على صرف المساعدات للتأكد من أنها تنفق في سبيل الإنماء، وإتاحة الفرص للمواهب، كي تترعرع، وتعطي ثمارها.

* * *

وقد أدركت باكراً جداً، أن المرأة التي تتصدى لمثل زعامتها، لا بد لها من التحرر الذاتي. وخلال رحلاتها إلى الخارج، اكتشفت أن أعداء بلادها، يستغلون تحجب المرأة العربية للدلالة على تخلفها، ومن هنا بدأت ثورتها، وكانت أول امرأة عربية خرجت مع ابنتها، سافرة، وتقول بهذا الصدد: «... وفي سنة ١٩٢٠ دعينا إلى مؤتمر نسائي في لندن، واكتشفت أننا دعينا للتشهير بنا، وإظهار بشاعتنا وهمجيتنا، أمام نساء العالم. وعندما بدونا سافرات صاحت المندوبات، لستن مصريات، قلنا: لِمَ؟... فأجبن: لكنَّ وجوه مثل وجوهنا».

وللسفور قصة ترويها شعراوي: «كنت، عائدة بصحبة ابنتي، من فرنسا، على الباخرة نفسها التي عاد عليها سعد زغلول. وحين وصلنا إلى المينا، استأذنت زوج ابنتي، في أن ننزل بين الجموع، سافرتي الوجه. فأذن لنا.

ورفعنا النقاب، وقرأنا الفاتحة، ثم نزلنا على سلم الباخرة، وتلفتنا لنرى تأثير ذلك، على الجموع، فلم نلاحظ أي تأثير، لأن كل الناس كانوا متوجهين إلى سعد، متشوقين إلى طلعته».

وتتابع :

«لكن المجتمع، والصحف المصرية، كان لها موقف الهزء والسخرية، وكانت الشتائم تنهال على كل امرأة، تخرج سافرة. وكنت أتحمل ذلك صابرة متحدية، لكن كثيراً من السيدات لم يستطعن أن يتحملن ما تحملته، فعدن يختفين وراء النقاب».

* * *

وعت هدى شعراوي، في مرحلة مبكرة، أن النضال السياسي، ليس وقفاً على الرجل دون المرأة، وقرنت الوعي بالفعل، فتابعت مطالبتها بحق المرأة في الانتخابات، وامتد هذا الوعي إلى سواها من الرائدات في سائر البلدان العربية.

لكن حدة الوعي السياسي تأكدت في موقفها من القضية الفلسطينية. فقد نظمت أول مؤتمر نسائي للدفاع عن فلسطين سنة ١٩٣٨. وعندما سمعت أنباء التقسيم عام ١٩٤٧ أصيبت بصدمة، سببت لها نوبة قلبية حادة لم ترضخ لها، بل قامت تكتب، وتضع خطة لاشراك المرأة في حرب فلسطين، وآخر ما خط قلمها، نقاط مختصرة هي مؤشرات على دروب النضال، وتلخص بوجوب: المقاطعة، تطوع المرأة خلف الجيوش ممرضة، محاربة التخلف، تقوية الروح المعنوية، التبرعات وفرض الضرائب. الدعاية في الخارج.

* * *

من الصعب الاحاطة بحياة هدى شعراوي، ونشاطها المتعدد الوجوه والصفات، إحاطة كاملة، في مقال أو عدة مقالات، وهي التي اختارت الباب الضيق لتعبر منه، والطريق الأصعب، طريق النضال والريادة، مع أن الحياة وفرت لها كل ما تتمناه المرأة، لتغوص في بحبوحة العيش الرضي، الخامل. والذي يلفت الانتباه، في مسيرتها الحياتية، هو ذلك التعامل الحنون مع كل ما ومن كان يحيط بها.

كانت صلبة الارادة والعزيمة ورقيقة المشاعر، مرهفة الذوق. وقد قرنت النضال السياسي بالنشاط الأدبي والفني، فكانت دارها ندوة سياسية وفكرية، كما اتسع حضنها، لا لولديها وحسب، بل لكل من تخلت عنه أمه الحياة، حتى أن المثّال الشهير مختار دعاها «إيزيس» آلهة الأمومة والعطاء عند قدامى المصريين. أما الطلاب العرب في فرنسا، فقد أطلقوا عليها لقب «جاندارك مصر» ودعاها آخرون «هدى مصر».

ولم يكن مستغرباً أن تخرج مصر يوم وفاتها، تشيعها بدموع الأطفال والنساء، ومراثي الكتّاب وقصائد الشعراء، وفي طليعتهم شاعر القطرين، خليل مطران الذي نظم قصيدة مطلعها:

«مصاب مصر مصاب العالم العربي هل مدمع في ربوع الضاد لم يصب».

وأورد هنا، أسماء جمعيات ومجلات أنشأتها أو ترأستها:

* الاتحاد النسائي العام.
* جمعية أصدقاء مختار.
* جماعة إنقاذ الطفولة المشردة.
* عضوية شرف في جمعية يوم المستشفيات.
* عضوية شرف في جمعية الاتحاد النسائي الأردني.
* الهلال الأحمر المصري للسيدات.
* جمعية الأمل للصم والبكم.
* جمعية الاسعاف الأهلية.
* وكيلة الاتحاد النسائي الدولي.
* رئيسة شرف جمعية المرأة الجديدة.
* منشئة مجلة «الأمل».
* منشئة مجلة «المصرية» بالفرنسية والعربية.
* عضو الجمعية النسائية في واشنطن.

وجاءها التقدير من عدة مصادر، فنالت:

* الوشاح الأكبر من نيشان الكمال المصري.
* وسام الاستحاق اللبناني المذهب.
* نيشان الاستحقاق السوري الممتاز من درجة أولى.
* نيشان الاستقلال المرصع الأردني ـ أول امرأة تناله.

جوليا طعمة دمشقية

«إن الأمّة نسيج الأمهات».



أحـاول، عبر رسم شخصيتهـا، أن أصف مرحلة هـامة، من المـراحل التي عبرتها المرأة، باتجاه مسيرة تقدمها واستقلالها.

«جوليا طعمة» (دمشقية فيما بعد) ابنة المعلم «جريس طعمة».

أبصرت النور في بلدة «مختارة» الشـوف سنة ١٨٨٣، وكانت المولود الثاني في عائلة تتألف من ثلاثة فتيان، وثلاث فتيات. وجوليا كانت كبرى الفتيات.

أنفق والـدها عمـره في التعليم والتربيـة، وكرّس جـزءاً كبيـراً من وقتـه، وأسلوبه التربوي المتشدد، لتأهيل أولاده، وتوجيههم نحو سبل العلم والمعرفة.

ولم تكتف جـوليا بمـدرسة الأب، فـانتقلت منها إلى صيـدا، ثم إلى مدرسـة الشويفات، وتخرجت حاملة أعلى شهادة في المـدرسة حينـذاك. ولم تشأ أن تعلق شهادتها زينة فوق الجدار، بل وظفتها من أجل خدمة الآخرين.

وكـان أولئك الآخـرون، تلامـذتها في مـدرسـة «شفـا عمـرو» فلسطـين، ومدرسة برمانا، ثم في بيروت.

* * *

أول منعطف، في حياة جوليا الصبية، كان وقوفها خطيبة فوق منبر «التياترو الكبير» وكانت آنذاك ابنة سبع عشرة سنة، شقراء، طويلة القوام والشعر، ذات عينين سماويتي الزرقة.

أما المناسبة، فكانت حفلة خيرية اقامتها جمعية (الوقاية من السل) في المسرح الشهير، ودعت إليها أعيان المدينة. وطلب من جوليا أن تعتلي المنبر، فصعدت جريئة، واثقة من نفسها، وارتجلت كلمة أثارت الحماسة في النفوس، و «صارت القاعة تمطر ذهباً» على حد تعبير أحد الحضور.

وصدف أن كان بين الحاضرين الوجيه البيروتي المعروف «أبو علي سلام» فدعاها، خلافاً للتقليد، كي تتسلم إدارة مدرسة المقاصد للفتيات.

* * *

وهنا، تعود بنا ابنة جوليا، السيدة سلوى السعيد إلى الماضي، فتروي حكاية كانت منعطفاً هاماً في حياة والدتها، إذ تعرضت لحادث سبب لها ألماً، وعطلاً في العمود الفقري، حين صدمها حصان كان يمتطيه شاب من أصدقاء العائلة.

وقد شفيت من الصدمة، إلا أن آثارها عادت فظهرت في مرحلة متأخرة من حياتها، والزمتها الفراش طيلة أحد عشر عاماً.

* * *

كانت جوليا، في مطلع الشباب وأوج النشاط، حين انطوت صفحة القرن التاسع عشر، وانفتحت أبواب القرن العشرين، على جميع مصاريعها. البعثات الأجنبية تفد إلى لبنان وسوريا، والإرساليات التربوية تتدفق، حاملة أفكاراً جديدة، وحاملة للمرأة بالأخصّ، وعوداً بغد أفضل، يحررها من قيود كبلت يديها، وغلت نشاطها، ويعيد إليها حقها الإنساني، في التعلم، وإنماء الطاقات، والتطلع إلى أبعد ما يتوق إليه طموحها.

وكان في نفس الصبية، وغيرها من الصبايا، ظمأ قديم، لنهل المعرفة،

والغـرف من ينابيـع العلم، وترسّم خـطى من تقـدمن، وسبقنهن فـوق دروب التحول والتغيير.

وتـأثرت جـوليـا، بهبـوب هـذه الـريـاح، إلا أنها، ظلت عميقـة الارتبـاط بتربتها، وأرضها، وأصالتها.

وقد لازمها هذا الموقف الخلقي، في عملها المدرسي، ثم الصحافي فيما بعد، حتى ليصح فيها القول: «كانت مربية الصحافة».

ولم تتوجه المربية جوليا. إلى فئة دون أخرى، كما أنها لم تفرق، في كـلامها، بين حق المرأة، وحق الرجل. كـانت شمولية الوعي، عميقـة التفكير، صـريحة المواقف، وعفيفة الكلمة والمسلك.

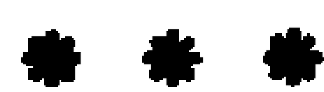
هـذه الصفات، وغيـرها ، من الخصـال الحميدة، أبـرزت جوليـا الشابـة، قائدة متميزة في مجتمعها.

وكانت هناك عينان تتبعانها بإعجاب، وتلاحقانها بإصرار العاشق الموله. هما عينا الشاب «بدر دمشقية» ابن العائلة البيروتية العريقة.

حاولت جوليا أن تتهرب من بدر، إذ كان من مذهب ديني غير مذهبها، ولم يكن قد حصل مرة، أن تزوجت فتاة، من المجتمع اللبنـاني الشديـد المحافـظة، من شاب خارج مذهبها. لكن سلطان الحب كـان الغالب، وارتفـع صوتـه فوق كل صوت.

وكـانت الخطبـة «الفضيحة» التي هـزت المجتمع البيـروتي آنذاك، وأقـامت الدنيا على الخطيبين اللذين زادهما رفض المجتمع، تقارباً ومحبة.

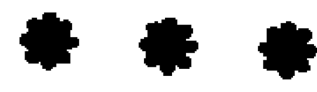
وهنا، لا بد لنـا من وقفة تـأمل، عنـد زواج، أرادته جـوليا، رمـزاً للريادة والتغيير، مثلها في كثير من أعمالها الفكرية والاجتماعية.



تزوج العروسان، وسافرا إلى أوروبا لقضاء شهر العسل فيها، وحـين رجعا

عن طريق البحر، أصر العريس، أن ينتقل مع عروسه الباريسية الأناقة، في عربة خيل مكشوفة، تعبيراً عن فخره، وتحدياً لكل نقد.

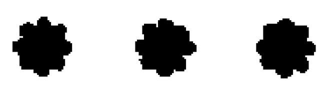
وكانت تلك الرحلة القصيرة، من مرفأ بيروت، إلى منزل العروسين قرب الجامعة الأميركية، المواجهة الأولى لجوليا، مع مجتمع يرفض، من جميع جهاته، الزيجات المختلطة.



لكن الزواج، وحده، لم يكن غاية الصبية الطموح. كان حلمها أن تنشىء مجلة نسائية، تتابع عبرها، رسالتها الفكرية. وكان أول المتحمسين لهذا المشروع زوجها بدر. وهو لم يكتف بالدعم المعنوي والمالي، بل شاركها العمل الصحفي، بكل ما يتطلبه من جهد ومشقة. وتحول جناح كبير من المنزل الزوجي إلى مكاتب لمجلة «المرأة الجديدة». وقد صدر العدد الأول منها في شهر نيسان سنة ١٩٢١، كما تحول القبو تحت المنزل، إلى مقر للطباعة.

«المرأة الجديدة» حملت إلى المجتمع اللبناني والعربي نفساً مميزاً إذ كانت تطل، من شرفتها المتواضعة، على العالم المحيط بها، من مصر إلى تركيا، ومن شواطىء المتوسط، إلى حدود الدجلة والفرات.

وجعلت شعارها العبارة التالية: «إن الأمة نسيج الأمهات»، كما عبرت عن غايتها، في مطلع كل عدد. فهي «مجلة، غايتها بث روح التربية الاستقلالية، وتحسين الحياة العائلية وترقية المرأة العربية، علمياً وأدبياً واجتماعياً». كما كانت «كتاب الأم، ومرشد الزوجة، ومرآة الفتاة، وسمير الولد».



والتقتْ فوق صفحاتها، نخبة من الأقلام الفتية، والتي أصبح لها، فيما بعد، شهرة واسعة في دنيا الفكر والأدب.

أما المواضيع التي كانت تعالجها، فمتنوعة، من أدب وشعر، وتوجيه اجتماعي، وتربوي، وانفتاح على كل جديد في العلم.

هذا النشاط الثقافي، لم يكن محصوراً بحدود المجلة، بل كان ينبع منها، ليغذي الصالون الأدبي، الذي صار ملتقى أهل الفكر، والفن والسياسة والعلم.

وكانت جوليا، تدير الندوات، يشاركها زوجها، ويشجعها، بل يدفعها لتمضي في تسلق أرفع القمم. وكانت، في هذه الأثناء، قد أصبحت أماً لولدين: سلوى (السعيد) سيدة المجتمع المعروفة، ورئيسة لجنة مهرجانات بعلبك الدولية. ونديم الذي خدم لبنان سفيراً في عدد من الدول الكبرى.

والذي يتابع جوليا في مقالاتها الافتتاحية (يا ابنة بلادي) يلاحظ كم أن للأمومة من أثر في نفسها. فقد كانت ينبوعاً غزيراً، ينعش فكرها وعاطفتها. كما حولت قسطاً كبيراً من نشاطها التربوي، لتمارسه على أقرب الناس وأحبهم لديها.

ولا تزال سلوى تحتفظ بهدية قدمتها لها أمها، لدى بلوغها السن الخامسة عشرة، وهي صورة يدين تنضمان في ابتهال، وقد كتب تحتهما الدعاء التالي: «أعاهد الله ونفسي، أن لا أقول، أو أعمل، أو أفكر بشيء أخاف من التصريح به، أمام الله والناس».

* * *

كذلك كان تأثير جوليا الايجابي، عميقاً في نفوس طالباتها، وقارئاتها.

وإحدى الطرف، التي ترويها ابنتها، أن شاباً زحلياً، قصدها ذات يوم، ليشكو لها خطيبته. ولما سألته ما الدافع لتلك الشكوى أجاب:

ـ أرجوك، يا جدتي، أن تفكي أسر خطيبتي. إن تأثير كلماتك عليها قوي إلى درجة، جعلها تعزف عن كل زينة، وتتقشف في مظهرها كراهبة. وأنا أحب أن تتزين عروسي وتتجمل.

ابتسمت له جوليا وقالت:

ـ إذهب، يا صديقي، وقل لعروسك أن تتزين، إذا كانت زينتها

ترضيك، وتزيد في حبك لها، وقل لها أيضاً: أنا، نفسي، تغيرت منذ كتابة تلك المقالات الأولى.

* * *

وندرك أهمية التشديد على النزعة التقشفية، في كتابة جوليا، حين نفهم إلى أي مجتمع كانت تتوجه.

فهي تريد للمرأة، التحرر والاستقلال، لكنها كانت تؤكد على تحرير الفكر، فالحرية عندها، مسؤولية، وليست فوضى.

وبرغم ذلك، لم تسلم من النقد، وتهجّم الجماعات المتعصبة. وكان نشر إعلان لجوارب نسائية، فوق ساق امرأة، كافياً، ليثير ضجة كبرى. وبالفعل، ثارت مثل تلك الضجة حين أعلنت تلك المجلة في أحد أعدادها عن جوارب «هولبروف» الشفافة.

كذلك، تعرضت جوليا، ورفيقاتها، في «جامعة السيدات» لحملات عنيفة، حين أسسن مركزاً للاجتماعات، واستقبال المدعوات من الخارج. ووصلت الحملة العدائية إلى حد، انقسم معه الرأي العام إلى فريقين. لكن موجة التحرر الفكري كانت أقوى من كل معارضة.

* * *

استمرت «المرأة الجديدة» في الصدور حتى سنة ١٩٢٧، حين توقفت، لأسباب مادية، وهذا برغم توجهها إلى قرائها، في عددها الأخير، لينتظروا صدورها من مكاتبها الجديدة في «سوق اياس». . والعدد ذاته، كان يتابع حملة طريفة، بدأت في مصر، حول الطربوش والقبعة. . «ولولا تدخل زعيم مصر الأكبر «سعد زغلول باشا»، وإبداء رأيه إلى جانب الطربوش، لقضي عليه قضاء مبرماً».

لكن «جمعية الرابطة الشرقية» التي أثارت الحملة، تابعت استفتاء الأطباء فجاء قرارهم ضد الطربوش.

في عام ١٩٤٣، استقالت جوليا من الحياة العامة ولجأت إلى الفراش. ذلك أن الصدمة التي أصابتها، في مطلع الشباب، ظلت آثارها باقية في عمودها الفقري، وألزمتها الفراش إلى أن توفاها الله صيف ١٩٥٤.

وفي سنة ١٩٤٧، دعا «الاتحاد النسائي» إلى حفلة تكريم، أقيمت في دار الأديبة الرائدة، تم خلالها، تعليق وسام الاستحقاق المذهب على صدر جوليا. فتقبلته بصمت، واصغت إلى الخطيبات، رفيقات الجهاد، يثنين على نشاطها وحياتها الحافلة بالعمل المثمر. ولما جاء دورها للكلام قالت: «إبنتي سلوى، أوصيك بهذا الوسام. إنه وديعة وقتية، تسلمينها من بعدي، إلى أول من تعتلي منصة الخطابة، ممثلة عنكن، وعن نساء الأمة في المجلس النيابي.

إنها وصيتي، يا سلوى. وشكراً، لكن، اخواتي، ووداعاً».

* * *

وقد حققت سلوى وصية والدتها، حين أصبحت السيدة «ميرنا البستاني» أول امرأة تدخل المجلس النيابي، فقلدتها الوسام الوديعة، خلال حفلة، حضرها حشد من الشخصيات.

* * *

بقي أن أشير، إلى أن هذه الرائدة المتميزة، جوليا طعمة دمشقية، تركت بصمات في نفوس المئات من نساء لبنان والعالم العربي.

وكانت دعوتها الإيجابية، إلى الحرية والمساواة والعيش الكريم، والانعتاق من رواسب التقاليد البالية، خطاً ارتفعت فوقه المرأة، في مسيرتها التالية، وهو لا يزال مستمراً، في الأجيال الطالعة.

ميّ زيـاده

«لكني أعرف أنك محبوبي، وأني أخاف الحبّ».



وضع قلمها النقطة الأولى على السطر، ثم جاءت بعدها الأقلام تُكمل المسيرة. كانت رائدة عملاقة، وشعلة مضيئة، وصوتاً متميزاً، أحدثت رنته العذبة تحوّلاً جذرياً في مسيرة المرأة. وهي، وإن لم تكن صاحبة مدرسة أدبية محددة، إلا أن قلمها، سطّر بأحرف عريضة بدايات لمراحل هامة.

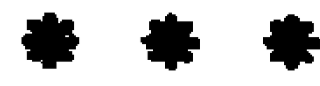
سوف يظلّ نورها مشعّاً، متألقاً، لا عبر كلماتها المضيئة وحسب، بل وفي الأمثلة التي غرستها تلك الكلمات، وكأنّها كل واحدة رمز لبداية جديدة.

واليوم، وبعد انقضاء مائة عام على ولادة مي زيادة، يظل القلم حائراً في العبور إليها، والإحاطة بشخصيتها، وتقدير قيمتها، وإعطائها حقها. هذا برغم صدور عشرات الكتب والدراسات، عن آثارها وعن شخصيتها وتأثيرها في مجتمعها.

ونذكرها اليوم، أكثر من أي وقت مضى، إذْ بتنا نُقدر قيمة لتلك الشجاعة الأدبية، وقد دفعتها في مرحلة باكرة، لتواجه ظلماً لحق بالمرأة، منذ فجر التاريخ، فلا تكتفي بالإشارة إليه، والتنويه به، بل تسعى، بكل ما لها من طاقات، لتحاربه، وتناهضه، وتدعو الى فكّ القيود التي كبّلت أيدي النساء، وكمّتْ أفواههن، وأقعدتهن عن التحرك الإيجابي، فبقين في المناطق السلبية من

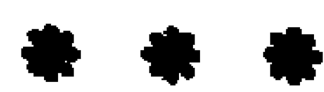
الوجود، يرافقن الرجل، كظل لا يترك أثراً من بعده أو صدى.

ونذكرها، شخصية قوية في محيطها، وقفتْ قامتها، في مساواة قامة الرجل، بل الرجال، الذين تحلّقوا حولها، فشاركوا في ندوتها الفكرية، قارعوها الحجة بالحجة، أحبّوها. تفاعلوا معها. دهشوا من إقدامها وشجاعتها. أُعجبوا بسرعة خاطرها. بذكائها، بحلاوتها، وسحر بيانها. امراة، هي، لكنها جمعت في شخصيتها، إلى عذوبة أنوثتها، قوة فكرية وثقة لا تُبنى في أيام، بل تحتاج إلى خلفيات تسندها، وتعمق جذورها... فمن أين كانت تلك النابغة المدهشة، تغرف ذلك الفيض الآسر؟... وأين يقع الينبوع الذي مدّها بذلك الغنى الفكري والروحي، على مدى سنوات التوهّج والتألّق من حياتها؟...



لا بد من العودة الى بداياتها الأولى: فقد ولدت ماري الياس زخور زيادة في الناصرة، عاصمة منطقة الجليل في فلسطين. تاريخ مولدها الحادي عشر من شهر شباط عام ١٨٨٦. ودرست في مدرسة ابتدائية فيها، قبل أن يرسلها والدها إلى معهد «عينطورة» الداخلي في لبنان، موطنه الأصلي. قضت في المعهد خمس سنوات تلتْها «بضع سنوات من السأم» لدى رجوعها الى الناصرة. لكن العائلة لم تلبث أن انتقلت الى القاهرة، حيث انفتحت للفتاة أبواب عالم جديد، حمل اليها تحدياً كبيراً، ودفعها الى السعي الحثيث، كي تثبت وجودها. هذا فيما كان أبوها، يتلمّس طريقه بين زحمة الصحف المصرية، فأنشأ مجلة «المحروسة».

وفي تنقّلها كتبت مي تقول: «ولدتُ في بلد، وأبي من بلد، وأمي من بلد، وسكني في بلد. وأشباح نفسي تنتقل من بلد الى بلد. فلأي هذه البلدان أنتمي، وعن أي هذه البلدان أدافع؟».



في الحقيقة، لم تكن هناك مشكلة برغم هذه التساؤلات في المراحل الأولى

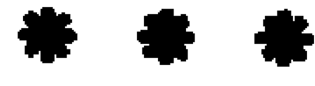
من حياة ا لكاتبة. إذ إن غربتها، كانت حافزاً زادها طموحاً، واستنفر طاقاتها الكامنة، لتثبت وجودها في المجتمع الجديد، حيث بدأت طالبة نهمة، ثم مدرّسة، فيما كانت تمرّن قلمها، وتنشر مقالات وأشعاراً، بالفرنسية حيناً، وبالعربية في معظم الأحيان. وتحت شتى الأسماء المستعارة: فقد حملت مقالاتها التواقيع التالية: إيزيس. كوبيا. عائدة. شجية. كنار. السندبادة البحرية الأولى. مدموزيل صهباء. خالد رأفت ثم الآنسة مي. وقد استقرّت عليه نهائياً، وتشرح لجبران في إحدى رسائلها فتقول: «أمضي ميْ بالعربية، وهو اختصار اسمي، ويتكون من الحرفين الأول والأخير من اسمي الحقيقي، الذي هو ماري، وأمضي إيزيس كوبيا بالفرنجية، غير أن لا هذا اسمي ولا ذاك، إني وحيدة والديّ وإن تعدّدتْ ألقابي».

كانت تلك من بدايات مرحلة التراسل بين الكاتبين، المتحابين، برغم بعد المسافة الجغرافية، واستحالة اللقاء... لكن العلاقة الغريبة التي جمعت بين روحيهما، تركت ثماراً طيبة، وثروة من أدب التراسل الراقي. كما أبقت تلك العلامة الغامضة المرسومة بين مي وكل من هام أو أعجب بها، من كبار كُتّاب ومفكري عصرها.

فالفتاة التي دخلت المجتمع المصري، بتردد وخجل، لم تلبث أن راحت ترسّخ فيه قدميها، عبر قلمها، وقد غرست الشتلة الأولى في ديوانها الفرنسي «أزاهير حلم» وصدر لها تحت اسم مستعار، وراحت الأقلام تتساءل، وهي تتناوله بالتقريظ: من تكون صاحبة الصوت الجديد؟... وأثار كتابها جدلاً، في المحافل الأدبية، مما دفع صاحبته لتضاعف نشاطها واندفاعها. وتكوّنَتْ لديها قناعة، بأن ما يلزمها هو تقوية لغتها العربية، وقد تعهدها، في المراحل الأولى أستاذ اللغة «لطفي السيد» فقوّم لغتها، كما ساهم في توجيهها الفكري والأدبي.

وهنا، لا بد من التنويه بما لمحيط مي العائلي من فضل على تقدمها، وتفتّح مواهبها، إذ نشأت في أسرة راقية، محاطة، بل مغمورة بالعاطفة

والإعجاب. فهي وحيدة أبويها، وقد فقدا أخاً لها في الطفولـة، وبقيت ذكراه في وجدان الكاتبـة، وقد فجّـرت حنينها، في مقـال رقيق، وهي تلتفت الى الوراء، والى البلد الحبيب الذي هجرته.



هـذا الغذاء العـاطفي والفكري، كـان الخميـرة التي بهـا اختمـر كيـانها. وازدادت ثقتهـا بنفسها، وبـإمكانـاتها فـراحت تفجّـرهـا، وهي تلتهم العلم، والمعرفة، من كل باب. ساعدها في توسيع آفاقها الفكريـة إلمامهـا بعدة لغـات، فإلى جانب العربية والفرنسية، درست وأتقنت: الانكليزية، الألمانية، الإيطالية، الأسبانية، اللاتينية، السريانية واليونانية القـديمة. وكـانت كل وا حـدة من تلك اللغات، سبيلاً يوصلها الى منابع الحضارات المتعددة، مما ساعـدها في نقـل آثار من تلك الحضارات الى العربية وخصوصاً عن الفرنسية والألمانية، والانكليزية.

وان هذه الأبواب المشرعة في وجهها، كانت مداها الـرحب، المفتوح عـلى الكون، يرفدها بكل جديد في مجالات العلم، والفكر والفن. وكانت تغرف من تلك المنابع الملونة، فتتلوّن بها كتـاباتهـا، وتطعّم أفكـارها. وتـربطهـا بالكـون، متفلّتـة من الحدود الضيقـة ، -التي تحدّ الإنسـان، وتضيّق أفقـه ، وتجمّـد نمـوّه وتطوّره.



ومثلما فتحت نوافذها على رياح الكون، من أي جهة هبّت، فإن الأديبة، في أوج نضجها، فتحت صالونها الأدبي، في وجه أدباء زمانها ومفكريه، فكـان ذلـك الجديـد «ندوة الثـلاثاء» سـاحة حـرّة، يتسـابق اليهـا الشعـراء، حـاملين قصائدهم، ويدلف اليها المفكـرون، هواة الجـدل والمناقشـة، ويقصدهـا الأدباء فيشاركون في إخصاب الحقبة الذهبية الفريدة في تاريخ الأدب المعاصر.

وإن الأسـماء التي كانت تحيط بـدائـرة مي جميعهـا أسـماء علم. . . منهم:

اسماعيل صبري، ولطفي السيد، وشبلي شميّل، وخليل مطران، وأحمد زكي باشا.

كذلك كان بين روّاد الندوة أحمد حسن الزيات وأحمد شوقي، والأمير مصطفى الشهابي وعباس محمود العقاد ومصطفى الرافعي وأنطون الجميل ويعقوب صرّوف، وولي الدين يكن وطه حسين وجرجي زيدان وسلامة موسى وزكي مبارك وسواهم من كبار الشخصيات الفكرية والأدبية. وقد ورد ذكر الندوة في كتابات الكثيرين منهم. كما أن آثارها فيهم بلغت حدّاً بعيداً، خصوصاً تأثير صاحبة الندوة، الصبية الحلوة، الجذابة، ذات الصوت الساحر، والحضور الآسر، والشجاعة والظرف وخفة الظل. ويصف العقاد إدارة مي لصالونها فيقول: «كان ما تتحدث به مي ممتعاً كالذي تكتب بعد روية وتحضير، فقد وهبت ملكة الحديث في طلاوة ورشاقة، وجلاء، ووهبت ما هو أدلّ على القدرة من ملكة الحديث وهي ملكة التوجيه وإدارة الحديث بين مجلس المختلفين في الرأي والمزاج والثقافة والمقال»...

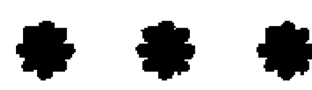
وهو يحصي من رواد الندوة ثلاثين اسماً، بينهم امرأة واحدة هي ملك حفني ناصف (باحثة البادية).

ويعبّر إسماعيل صبري شعراً عن أهمية الندوة في قصيدة منها:

«روحي على بعض دور الحيّ حائمة   كظامىء الطير حواماً على الماءِ
إن لم أُمتِّعْ بميّ ناظريَّ غداً   أنكرتُ صُبْحَك يا يومَ الثلاثاءِ»

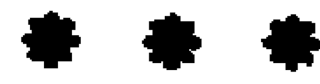
كما وردت حكايات كثيرة عن وله بعض الحضور بصاحبة الندوة، وهناك من تغزّل بجمالها، وبذكائها، وخير من عبّر عن ذلك الإعجاب أحمد شوقي ومن قوله:

«أُسائلُ خاطري عما سباني   أَحُسْنُ الخَلْقِ أم حسنُ البيانِ؟
رأيتُ تنافُسَ الحسنينِ فيها   كأنّهما لميَّة عاشقان»



والأديبة، كانت خطيبة من طراز نادر، ومن أولى وقفاتها صبية، حين اختيرت لتلقي كلمة بعث بها جبران لمناسبة تكريم خليل مطران. ولطه حسين شهادة فيها قال: «لم يرضَ الفتى عن شيء مما سمع، إلا صوتاً واحداً سمعه فاضطرب اضطراباً شديداً، وأرق له ليلته تلك. كان الصوت نحيلاً ضئيلاً، عذباً رائعاً، لا يبلغ السمع حتى ينفذ في خفّة الى القلب فيفعل به الأفاعيل. . . ».

وسحر حضورها، وصوتها، وبيانها لم يفارقها، حتى في تلك المعركة الأخيرة، التي خاضتها على منبر «وست هول» في الجامعة الأميركية، بتاريخ ٢٢ آذار سنة ١٩٣٨، ولمدة ساعتين. وكانت محاضرتها وموضوعها: «رسالة الأديب» شهادة ساطعة ضد ظالميها، وتأكيداً على سلامة عقلها، وبراءة انعتاق من أسرٍ كبّلها طوال ثلاث سنوات، حين اتهمها أقاربها بالجنون، وأدخلوها مستشفى الأمراض العقلية (العصفورية) قسراً. وعرفت فيه من العذاب ما شيّب شعرها، وحفر أحزاناً وآلاماً في كيانها، ظلّت رفيقتها حتى النفس الأخير، بل كانت السبب الذي قرّب نهايتها الأرضية.



ولم ينحصر نشاطها في الكتابة والخطابة، إذ إن وعيها كان متصلاً بكل القضايا العصرية، الفكرية منها والسياسية. . وبالطبع، كانت قضية المرأة من أهمّ ما شغلها، خصوصاً وأنها كانت الصوت الجديد، الذي تتردد أصداؤه في شتى أصقاع الكون. فالنهضة النسائية التي بدأت في أوروبا وأميركا، والصوت الداعي الى تحرير المرأة ومساواتها كان قد بلغ أسماع الشرقيات والعربيات. وأول من رصده صاحبات الأقلام، والواقفات في مراكز القيادة النسائية. ومدّت مي يدها الى يد سيدة حملت نبراس التحرر وسارت في طليعة الركب، وأعني هدى شعراوي. واستوعبت جيداً دعوة قاسم أمين، مناصر المرأة. واتصلت برائدات في لبنان وسوريا والعراق وحتى في تركيا وإيران، فالدعوة النسائية، في

زمانها، كانت مشرقية، وهمُّ المرأة هو واحد، في كل من تلك البلدان. ولم تكتف مي بنشر مقالاتها حول قضية المرأة في المجلات، بل كتبت عن الرائدات، من سبقنها، ومن عاصرنها؛ فأخرجت وردة اليازجي من غبار النسيان، ورسمت شخصية عائشة تيمور في كتابي، وسلطت الأضواء على كتابات ملك حفني ناصف. بل خصصت لها كتاباً، رسمت فيه لوحة متكاملة لتلك الشخصية الراحلة في أوج العطاء.

ولم تكن مي متعصبة لبنات جنسها تعصباً أعمى، بل نظرت الى وضع المرأة من الزاوية الإنسانية. وخبرت، عبْر تجربتها الشخصية، وتأملاتها ومطالعاتها، بأنه ليس هناك عائق طبيعي، يحدّ من انطلاق المرأة، وتقدمها، وبلوغها المراتب الرفيعة في العلم والعمل، إذا أُفسح لها في المجال، وأتيحتْ لها الفرصة.



والمرأة التي عرفت المجد العظيم، وتوهج النجاح، والتألق على أكثر من صعيد، عرفت كذلك، الألم الكبير حين بدأت شمسها تميل الى الغروب. وتفرّق من حولها الصحب والأحباب. وانتقل الوالدان المحبان، الى دار البقاء. وبين الغيابين، انقطع الخيط السحري الذي يصلها بتلك النفس الحبيبة خلف البحار.. جبران، حبّها الغامض الغريب.. وتلفّتت حولها، فإذا الساحة خالية، من معجبي الأمس، الذين كانوا يتسابقون لكسب رضاها. للحصول على بسمة رضى، أو كلمة عذبة. وصادف ذلك كله وهي تعبر الجسر الواهي: منتصف العمر. لكنها استمرّت في الكتابة، وفي المكابرة، وفي الإيمان بأن «النفس القوية» تزيد بهاء بعد التغلّب على الكروب. والعين الجميلة تزيد تألقاً بعد سكب الدموع...

ولم يتركها الآخرون تسكب دموعها بحزن مستساغ، إذ دخلوا على خط حياتها، وراحوا يهزّون أعصابها، ويتلاعبون، كالرياح الشرسة بأغصانها وفروعها.

استنجدت بالطبيب القريب، فأخذ الشكوى حجة ضدها، وألّب عليها القوى، وأقام القوانين من تحت تراكم الغبار، وعلّقها أثقالاً في عنقها، ورماداً في عينيها. . . وحملوها متهمة، الى مصح الأمراض العقلية، بعدما أغروها لتوقع على أوراق تدينها، وتتهمها بالقصور العقلي.

ويا مي! . . .

غلطة الشاطر بألف. . . وكلفتها ثقتها بالأهل، وبني العم، ثلاث سنين من عذاب الجحيم، إلى أن قامت قيامة الصحافة، والرأي العام، وكانت حملة قامت بها «المكشوف» مجلة الفكر والأدب الأولى في لبنان. ثم بادرت الأقلام الى الدفاع عن إحدى أكبر أديبات الشرق. وكأن التهمة تطال كل من حمل القلم، ودافع عن الحق. وانتصر الحق أخيراً. وخرجت مي بريئة، مكرّمة، ومعزّزة، في مهرجان أدبي، كانت هي نجمته الأولى.

* * *

لكن صدمة من هذا الحجم، لا يغسلها الصابون، ولا تمسحها كلمات العزاء. راحت الجمرة تتغلغل أعمق، في أحشائها، وتحفر لها مكاناً، وتوسّع الحفرة.

وحين عادت الى القاهرة، ظلت تعيش في عزلة، منصرفة الى التأليف، والتأمّل في الحياة، ومعنى الوجود. وكان الجسم ينحل، ويضعف، تدريجياً، الى أن رزح نهائياً، ولم يعد يقوى على الدفاع.

وفي التاسع عشر من شهر تشرين الأول، سنة ١٩٤١ وافتّها المنية في القاهرة.

رحلت ميّ الإنسانة، وبقيت مع آثارها الخالدة، أمثولتها الفريدة، وذلك الصدى نسمعه في بثٍّ موجع لقلمها الشاعر: «خذوني الى قريتي الصخراء الشجراء، الراقدة تحت حنايا الأفق، على هدهدة الناي. لست أطلب من أرضي إلا القليل من التراب. إن المساء يرجع بالكل إلى البيت».

باحثة البادية

«إنها أكتب سيدة قرأنا
كتاباتها في عصرنا الحاضر . . »



«هي ملك هانم، كريمة اللغوي المحقق المرحوم حفني بك ناصف الذي شغل المناصب العالية في وزارة المعارف والقضاء...» هكذا تقدم مي زيادة لسيرة زميلتها، وصديقتها الكاتبة والمصلحة الاجتماعية المصرية التي ذاع صيتها في الربع الأول من القرن العشرين، وكانت سيدة نابغة، وإنسانة شديدة الوعي، مرهفة الحس، غيورة على مصلحة وطنها، وعلى وضع المرأة في المجتمع المصري، بل وفي الشرق عامة. ولميّ فضلٌ كبير في تخليد اسم هذه السيدة الكريمة، التي لم تعط الفرصة كي تبلغ بطموحها ومواهبها مرحلة التحقيق الكلي، إذ توفيت وهي في ذروة صباها، وفي عنفوان عطائها. وجاءت مي، فشاركت في الحفلات التذكارية والتأبينية، وكتبت في الصحف والمجلات، مبشرة بفضل السيدة الكبيرة، ثم انتقلت إلى خطوة أعمق أثراً، حين ألفت كتاباً ضمنته سيرة ملك بعنوان اسمها الأدبي المستعار «باحثة البادية».

* * *

وإذن، لا نستطيع أن نعبر إلى التعريف بشخصية «الباحثة» دون المرور في هذا المعبر الجامع، الرصين، والذي اعتبره النقاد، حال صدوره، من آثار مي الخالدة. وقبل المضي في سرد سيرة ملك ناصف لا بد من تحية تقدير، واعتراف

لمي بسمو الخلق، والترفع عن الأمور السطحية العابرة، والاخلاص والوفاء، ثم بتلك الحماسة المتقدة في ذاتها، والتي أبقت أدبها حياً، يزداد توهجاً مع مرور الزمن.

ولدت ملك في القاهرة في الثاني من شهر كانون أول سنة ١٨٨٦. وتلقت دروسها الابتدائية في مدارس مختلفة ثم دخلت المدرسة السنية، حيث حصلت على شهادة ابتدائية سنة ١٨٩٣، وهي أول سنة تقدمت فيها الطالبات المصريات لامتحان تلك الشهادة. بعدها انتقلت إلى القسم العالي، من المدرسة ذاتها، وحصلت على الشهادة العالية سنة ١٩٠٠، وباتت مؤهلة لممارسة التعليم. وقد عملت أستاذة في مدارس البنات الأميرية مدة أربع سنوات، تعرفت بعدها على عبدالستار الباسل، وجيه قبيلة الرماح في الفيوم، واقترن بها.

هذا باختصار، ما تورده مي في كتابها، ونفهم، من بين السطور، أن عائلة ملك كانت راقية، خصوصاً الأب الذي علم بناته، في تلك الفترة الزمنية، حين كان البيت، هو المقر الذي تلازمه الفتاة، منذ الولادة وحتى الوفاة. وللأب، كذلك، يعود الفضل، في تشجيع ابنته، للوقوف على المنابر، وإلقاء الخطب، والكتابة في الصحف والمجلات، وإطلاق رأيها، بجرأة، وبلغة متينة، وأسلوب جذاب مميز، جعلها تبرز، خلال فترة وجيزة، فتصبح رائدة، وقائدة في مجتمعها، ومثالاً تتمنى كل فتاة أن تقتدي به.

* * *

أما قصة تعرفها بمي فلا تخلو من الطرافة، ولا بأس من إثباتها، إذ تشكل الخلفية التي بنيت عليها الصداقة بين الكاتبتين.

كانت الطريقة السائدة بين الكتاب والكاتبات، التراسل عبر الصحف، وعلى صفحات المجلات، دارت مناقشات، وطُرحت قضايا عديدة. وكان بين مي و«الباحثة» وسواها من أديبات تلك الحقبة، مراسلات، وأسئلة وأجوبة. وذات يوم، أضاعت مي ساعتها، فكتبت مقالاً طريفاً ترثيها فيه، وتستخدم المناسبة،

لتطرح عدة أفكار فلسفية في مفهومها للزمن، وعلاقته بالإنسان. وقرأت «الباحثة» المقال،فأعجبها،بل حرّك في أعماقها عاطفة فجرتها بالكلمات، ومن جملة ما جاء في الرسالة: «إني وجدت ساعتك المفقودة والتقطتها. رأيتك ترثيها بحرقة، فجئت لأمسح دموعك لأني أحب دائماً أن أمسح دمعة المحزون. تعالي إليّ لتأخذيها فإنها أحست بشوقي لرؤيتك فأتت تقدمةً لمجيئك وتعارفنا. عثرتْ عليّ، وعثرتُ عليها، لتؤكد لك أنك وجدتِ الصديقة التي لا تخون».

* * *

هذه الرسالة نُشرت في مجلة «المحروسة» وقرأتْها مي، فاستجابتْ للدعوة، ومضت لزيارة ملك: «ذهبتُ إليها والشفق يُضرم ناره في قلب الأفق، والسحب قد انقلبت هنا لهيباً، وهناك أنواراً وهنالك ألواناً...».

وتتساءل الكاتبة، إذا كان القدر، قد هيأ هذا اللقاء، ليدفعها فيما بعد، إلى حمل القلم، والكتابة عنها؟...

الخلاصة، أنه كان لقاء في غاية الانسجام، ولا تفوت مي لحظة دون أن تذكرها، ولا كلمة إلا وتسجلها. حتى ملاحظاتها على هندسة الدار، وأناقة الفرش، وهندام ربة البيت.. وحركاتها وإشاراتها. كلها مسجلة بدقة، مما يشير إلى الاهتمام الكبير الذي كانت تعلقه على تلك المناسبة... ومي، التي كانت في بداياتها، تبدو لنا، جالسة في قاعة الانتظار، والتساؤل يغلي فوق لسانها: «أهذه المرأة التي سأصافحها بعد هنيهة هي هي الباحثة التي تنشر على الناس أفكارها؟.. أم صدق الزاعمون أن ليس لها من فصولها إلا التوقيع كما هي الحال عند بعض السيدات الشرقيات اللائي تعمّدن التظاهر بالتفكير والتحبير؟»..

* * *

إذن، الزائرة ليست هنا لغاية التعارف الاجتماعي وحسب، بل إنها تنقل

معهـا السؤال الكبير، إذ كـانت تحمل، بـين منكبيها، همـوم المرأة، وقضـايـاهـا المطروحة للبحث والمناقشة.

لكن الباحثة لم تنجح في الامتحان، وحسب، بل سحرت زائرتها وحـولت الفرصة إلى بداية صداقة وثيقة، استمرت حتى بعدما غيبهـا الموت.

منذ الوهلة الأولى، كان هناك انسجام مطلق، بين الكاتبتين: «كان هتافها الأول هتاف ترحيب، وكلمتها الأخيرة كلمة حب». وسجلت ملاحظات اللقاء الأول فلم يفتها سحر الباحثة، الرنة العذبة في صوتها، أفكارها السامية، عمق نظرتها، فصاحة لغتها، وسعة إلمامها بالشعر والحكم والأقوال المأثورة. ثم إنها ذات شخصية اجتماعية مميزة بروح المرح، وسرعة الخاطر، و«إن هذه المرأة كما لكل من الأفراد النوابغ، شخصيات متعددات تظهر كل منها في حينها. . .».

وتمضي في وصفها لتقول: «إنها تنتقل من حالات المرح، والضحك الرنان كضحـك الأطفال، إلى الكـآبة، والألم. أجـل، هي إمـرأة تـألمت، لكنهـا تخفي آلامها خلف هذا البرقع الشفاف.

ذلك لأن مزاج باحثة البادية العصبي الصفـراوي وجنسها النسـائي، وقوة عـواطفها وحـدة ذكائهـا. ذلك كله كـان مشتركـاً في تكوين طبيعتهـا السـريعـة الانفعال. . .».

ومي أوَ لم تكن من هذا المزاج؟

طبعـاً، هي لا تتوقف عنـد الـوصف الشخصي، والتحليـل النفسي، بـل تمضي، متابعة دراستها الشاملة لشخصية الباحثة، والتي جزأتها إلى ستة أجـزاء: فهي المرأة، المسلمة، المصرية، الكاتبة، الناقدة والمصلحة.

هذه أهم الصفات البارزة في شخصية «الباحثة»، ولا ضـرورة لأن نتوقف عنـد دورهـا كـزوجـة وأم؛ فقـد نجحت في الـدور الأول. لكنهـا لم تحقق حلم الأمومة، وهذا ما جعلهـا تتطلع خـارج إطار المنـزل والعائلة فتنشر اهتمـامها في مجتمعها، وتعطيه من نفسها وعاطفتها.

وصورة المرأة: كانت بارزة في شخصية الباحثة، وهي لا تحد في حدود جسدها، وعالمها الداخلي، بل تمتد لتتصل بالكيان النسوي في وطنها، إنها متحمسة ثائرة لبنات جنسها، تُحاول، جاهدة، أن تفتح عيني المرأة على ما يلحق بها من غبن؛ وقد سجلت ذلك في مقالات نشرتها في عدة صحف. ثم نشرتها في الكتاب الوحيد الذي صدر لها وعنوانه «النسائيات». وهو المرجع الأهم لعطائها وفكرها، ومواقفها. وكانت الباحثة شديدة الاحساس بوضع المرأة الزوجة، وسوء المعاملة، بل الظلم، الذي يلحقه بها الزوج في الكثير من الحالات. كتبت في ذلك، بجرأة، هاجمت الأزواج الظالمين، بل تصدّت للقوانين المجحفة بحق المرأة خصوصاً حين يُساء تفسيرها واستخدامها. وتعمّقت في مفهوم الزواج، وقد رأت فيه محبة وانسجاماً وتآلفاً بين الرجل والمرأة، وعلاقة منزهة عن الطمع بالمال والجاه والاغراء الدنيوي. وإذا كانت تضع اللوم على الرجل، لأنه، في حينه، كان الأقوى، والأوعى، بينما كانت المرأة ترسف في قيود تحدد سعيها، وتشل طموحها، إنما ذلك لا يمنعها من إنتقاد المرأة الضعيفة الخانعة. أرادتها أن تنهض، تنمي طاقاتها، وتغتنم كل فرصة كي تحقق إنسانيتها.

تؤكد مي بأن الباحثة كانت مسلمة، مؤمنة، شديدة التعلق بدينها. ومن خلال الدين تكتب، وتبحث، وهي تستوحيه في أدبها السياسي والاجتماعي، والخلقي. وإنها، إذ تدعو المرأة إلى النهوض، وفك القيود، فهي تريدها أن تفعل ذلك، من خلال فهمها لجوهر الدين. وقد دخلت في تفاصيل أدق، إذ بحثت مسائل الزينة، والأزياء فحددت ما يجوز وما لا يجوز ارتداؤه. كذلك لا تُبعد الدين عن السلوك اليومي، وعلاقة المرأة برجلها: «هناك إمرأة تقول لزوجها: حضرتك وسعادتك، فما هذا التكلف البارد؟ إننا بتسميتنا فلاناً صاحب العزة وتلقيبنا أحد الملوك بصاحب الجلالة لنكفر ونلحد. فما صاحب العزة وذو الجلالة إلا الله الواحد القهار». إلى أن تمضي فتقول: «ألا فليتنبه الرجال، وليتقوا الله في نسائهم وليعلموا أن التقوى مطلوبة في السر والعلن وان

الله يرى». وهكذا اختلطت لديها العاطفة الدينية بالمعاني القومية والاجتماعية.

* * *

وتلتقي في شخصية باحثة البادية، مصريتان، واحدة مصرية بطبعها وظرفها وروحها المرحة وخفة ظلها.

والثانية مصرية بوطنيتها. وكانت حماستها المحرك الدافع إلى التقدم والرقي.

أمّا روح الظرف فمطبوعة فيها، تشهد على ذلك كتابات لها، كما يشهد أصدقاؤها، ورواد مجالسها، و . . «خفة الروح ترفرف على جميع سطورها. .» وهي كذلك حتى في نقدها لشتى الأوضاع الاجتماعية. وتقول في نقدها للحبَرة العصرية: «إن نصف إزارنا السفلي مرط. . . أما نصفه العلوي فهو كالعمر كلما تقدم قصر، أما البرقع فأشف من قلب الطفل. . .» وفي مجال آخر: «يقول لنا الرجال ويجزمون: إنكن خُلقتن للبيت، ونحن خلقنا لجلب المعاش. فليت شعري أي فرمان صدر بذلك من عند الله؟». . .

أما الباحثة الوطنية فلم تكن تهتم كسواها، بهموم الشرق، الذي كان يشغل الكتاب والمفكرين، في زمانها، ومنهم مي، وأحمد شوقي، وسواهما؛ بل كان اهتمامها ينصب على المصرية. . إنها تحب كل ما هو مصري، وتتعصب له، وتدافع عنه، وتلفت إلى معالم الجمال، في الإنسان وفي الطبيعة، وتوقظ القارىء على حسنات لم يتنبه لها، وربّما شغلَهُ عنها التفاته إلى الخارج. حتى أنها تنتقد بشدة زواج الشباب المصريين من فتيات أجنبيات، وتدعوهم إلى تقدير المزايا المصرية التي تتحلى بها فتيات بلادهم.

أما الكاتبة، فيقول عنها أحمد لطفي السيد: «انها أكتب سيدة قرأنا كتاباتها في عصرنا الحاضر»، وذلك في تقديمه لكتابها «النسائيات». بينما يقرّظها حافظ إبراهيم شعراً فيقول: «لله درّك إن نثرت/ ودر حفني إن نثر» وإلى جانب شهادات

كبار الكتاب والشعراء هناك أعمالها شاهد على نبوغها. لكن، الله لم يمد بعمرها، كي تتابع مسيرتها، وبقي أثرها، قليلاً على تميزه. وشهادة ساطعة على تفوقها.. أو كما تقول مي: «لا أعرف من هو أقدر منها على وضع الكلمة في مكانها، بحيث أنك لو تعمدت حذف لفظة من جملة كنت باتراً مجموع المعنى».

وكانت كلمتها نابضة بالحياة، مشحونة بالحرارة المتدفقة من قلب كبير، وعقل نير، وحس مرهف. وبما أن الباحثة كانت خطيبة، إلى جانب كونها كاتبة المقال، والبحث والنقد، فإن نسبة كبيرة من أعمالها، مكتوبة لتُلقي من على المنابر، أي بالنفس واللهجة والأسلوب الذي يميز أدب الخطابة.

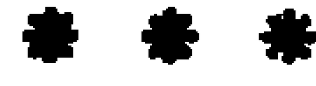
وقلّما كتبتْ لنفسها، فقد كان معظم إنتاجها، موجهاً إلى الآخرين.. إلى الرجل، إلى المرأة، وإلى الطفل والفتاة الناشئة... إنها مُصلحة وهذا دور لا تحيد عنه، في خطوة واحدة من خطاها.

* * *

وهي ناقدة طبعاً، ولا تنسى ذلك ولا يغفل عن بالها. وفي كل ما كتبت، يبقى الحس النقدي هو الغالب، بغض النظر عن الصفات الأخرى التي تميز أدبها. وكانت تنتقد كل ما تجده منافياً لمفهومها وذوقها. وإن احتكاكها بجميع الطبقات، وخصوصاً النسائية منها، جعلها تتحسس في العمق، المشاكل التي تبقى في الظل، وقلما تُطرح للبحث، أو تتناولها أقلام الرجال. وهي لا تكتفي بدور الناقدة الواقفة بعيداً عن موضوع نقدها، بل تتابع الرسالة، وتقترح ما تراه مناسباً، للإصلاح، وتبديل الأوضاع، من خلال قلمها... «المرأة المصرية مسلوبة الحق ومظلومة في كل أدوار حياتها. نراها يُتشاءم منها حتى وهي جنين...».

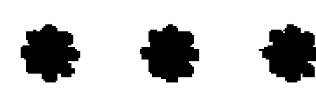
طبعاً، يتركز نقدها الاجتماعي على أحوال المرأة، إذ رأت فيها الموضوع الأخصب، إن لجهة النقد، أو الإصلاح. ويبقى الزواج، نقطة التركيز في

اهتمامها، حتى أنها في أحد فصول كتابها، تضع شبه قواعد لسلوك الزوجين، كما تعدد أسباب التعاسة الزوجية، ومن ثم تنتقل إلى انتقاد الأب الذي يظهر بمظهر الجبار المتكبر ويتسبب بالتالي بإضعاف أخلاق أطفاله، إذ يربي فيهم الجبن والذل، ثم الاستبداد متى كبروا.



أما المصلحة في كيان باحثة البادية فلا تنفصل عن الناقدة؛ وهي التي لا توجه النقد، في سبيل ذاته، بل تتوخى من ورائه تغيير الأحوال، وإصلاح الأمور. وإذن فإن غايتها صريحة، وتحاول أن تكون عادلة، فهي لا تتحيز للمرأة ضد الرجل، أو العكس، بل تقف مع الحقيقة، ومع الحالة الأفضل التي تسوق إليها من تخاطبهم. وقد وجدت في الكتابة والخطابة الوسيلة الفضلى لشرح غايتها، ورسم الطريق الجديد.

في الواقع، انها حاولت أن ترسم معالم الطريق، بل سنّت شرائع تتألف من عشرة بنود، تضم في مجملها إصلاحات تربوية، إذ كانت مؤمنة بأن الأساس الصحيح يتكون في نواة التربية الصحيحة. وتنطلق، من القاعدة التربوية، فيما بعد، لتحدد إقتراحاتها للإصلاح الاجتماعي، وقد تقدمت كذلك بعشرة إقتراحات جريئة بالنسبة لزمانها. وفي كل ما كتبت، يبقى العلم «منور العقل على أي حال، سواء عمل به أم لم يعمل».



لا عجب، بالتالي، إذا أطلقت باحثة البادية صرختها الجديدة في سماء مصر، داعية للإصلاح، وتحسين أوضاع المرأة والعائلة، فقد كانت الأجواء معدة بفضل مصلح رائد، مهد للنهضة بكتابه الجريء، «تحرير المرأة» ثم أمسك بيدها، ووقف في صفها، ينصرها وهو يتطلع إلى الغد، ويتأمل صورة المجتمع الجديد الذي يدين له بالكثير؛ إنه قاسم أمين، الرجل الذي كان سباقاً في كل ما قال وكتب.

وتلتقي معـه باحثـة الباديـة في الكثير من أفكـارهـا، وآرائهـا، خصـوصـاً «بوجوب إصلاح المرأة وفتح أبواب التعليم أمامها وجعل التربية متوفـرة لها. . .» كما يتفق المصلحان الـرائدان في آرائهـما حول تحسـين شؤون العائلة، والأحـوال الزوجية. ولا نعلم ماذا كان يمكن أن تفعله رسالة إمـرأة في مكانـة الباحثـة، لو بلغت بأفكارها مدى أبعد. . فالقدر لم يوفرها؛ إذ أصيبت بالحمى الاسبانيولية، وتوفيت في القاهرة ليلة الخميس في ١٧ تشرين الأول، سنة ١٩١٨ . لكن البذرة التي غرستها لا تـزال مستمرة في أجيـال من النساء؛ كـما أن اسمها سـوف يبقى خالداً ما بقيت كلمات صديقتها الخالدة مي ، وما بقيت أبيات القصيـدة الشهيرة التي خاطبها بها أحمد شوقي ومنها:

صـــدح يـــا مـلك الكـنـــار ويـــا أمـــير الـــبـــلبـــل
صـــبـــراً لمـــا تـــشـــقـــى بـــه أو مـــا بـــدا لـــك فافعـل.

ماري عجمي

«إن أمّة هان على أبنائها بذل الدماء، لا يصعب عليها الانتصار في ميادين العمل».

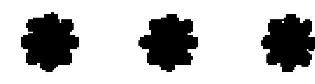




الاسم يمر أحياناً في الذاكـرة. ربما عـالق بها من أيـام الدراسـة، من قطعـة أدب مختـارة في كتاب القـراءة، أو قصيـدة وطنيـة، تتغنى فيهـا بتـراب الـوطن، وتشيد بالإنسان العامل من أجل بناء ذلك الوطن.

ولكن، هل يحمل اسمها، أي معنى للأجيال الناشئة؟ هي ورفيقات لها من رائدات النهضة الأدبية، النسائيـة؟ . . . المناضـلات في صفوف الـوطنيين، عـلى دروب التحـرر، حـين كـان النضـال، تلك الشعلة التي تنـير السبـل، وتشحـذ الهمم، وتجمع النفوس والقوى، وتشحن الطاقات، في سبيل البناء والعمران؟!. .

في ذلك الزمان البعيد، حين كان التحدي كبيراً.



ويبقى اسم ماري علامة فارقة بل ومميزة، في مسيرة النهضة العربية، في أي بلد كـانت. فهي تقف في صف هـدى شعـراوي (مصر) ومي زيـادة، الأدب، وجـوليا طعمـه دمشقية، الصحـافة، وسـواهن من صـاحبـات اليقـظة المبكـرة، والوعي النيّر، حاملات مشعل العلم والتقدم، في العـالم العربي، دون التفـرقة، بين بلد وآخر.

وميزة هذه الكاتبة، عن سائر الرائدات المعاصرات، أن قدرها وضعها لفترة من الزمن، هي مرحلة تفتح الصبا، وضعها في صميم معركة النضال الوطني، في بلادها. وقد خاضت عملياً دروب الكفاح، وأطلعت عن كثب، على المعاملة السيئة التي لقيها الوطنيون، على أيدي المستعمر، والتي بلغت حد الاستشهاد كما سنرى.

* * *

لا بد من العودة قليلاً مع الزمن، لنتعرف على بدايات هذه الكاتبة: فقد ولدت في دمشق، بتاريخ الرابع عشر من أيار سنة ١٨٨٨، في أسرة حموية الأصل. وتلقت علومها الأولى في المدرسة الروسية، ومنها انتقلت إلى المعهد الايرلندي.

وبالطبع، درست إلى جانب العربية، اللغتين الروسية والانكليزية، وحصلت على شهادة المعهد سنة ١٩٠٣. ثم انصرفت إلى التدريس لمدة سنة واحدة، قبل أن تلتحق بمدرسة التمريض في الكلية الأميركية، ببيروت. لكن الطالبة على شغفها بالعلم، لم تتمكن من المتابعة لأسباب صحية، فعادت إلى دمشق، وعينت معلمة من درجة أولى في المدرسة الروسية.

* * *

إلى جانب التعليم، كانت لماري تطلعات أخرى. فهي تهوى الكتابة، وقلمها طيِّعٌ في الشعر والنثر. والعصر عصر انتشار الفكر وإنشاء المجلات والصحف. كما هو عصر تفتح الوعي على الصعيدين: الإنساني والوطني. وكانت الصحف والمجلات شخصية فردية، أي أن صاحب المجلة، يقوم بكل ما تتطلبه من أعمال، ويحرر، إذا اقتضى الأمر، جميع المقالات، ويستعير لها الأسماء.

وهكذا وجدت ماري أن عدداً من الصحف يفتح صدره بالترحاب لاستقبال قصائدها أو مقالاتها التوجيهية، وقد حررتها في البداية ـ وكما كانت تقتضي «الموضة» تحت اسم مستعار «ليلى» ـ وبعدما نالت شهرة ترضيها، تخلت

عن «ليلى» المستعارة وعادت إلى ماري الأصلية. ولم تقف ضمن حدود وطنها، بل راسلت صحفاً في كل من لبنان ومصر، وبات لها أصدقاء وصديقات، ومعجبون بقلمها، وانطلقت هي تكتب عن الآمال المعقودة على النهضة، وكان التوجه التربوي غالباً في مقالاتها، ولا غرو في ذلك، أوليست هي معلمة؟..

وبقي التعليم مهنتها، ومصدر عيشها، لا الأدب «الذي لم يكن يطعم خبزاً». وفي سبيل التدريس، انتقلت سنة ١٩٠٩ الى الاسكندرية، حيث عُينت ناظرة لمدرسة الأقباط في تلك المدينة. غير أنها لم تلبث أن عادت تنتقل بين معاهد التعليم في سوريا، ولبنان والعراق، وفلسطين، وحيثما حلت، كانت تفرض شخصيتها بمواهبها الثلاث: التعليم، الكتابة، والخطابة.

ولا عجب إذن، أن نسمع الاستاذ فارس الخوري وهو من أكبر رجالات الفكر والسياسة في عصره، يقول فيها هذين البيتين:

«يا أهيل العبقرية سجلوا هذه الشهادة
إن ماري العجمية هي مي وزيادة»

وقبل أن أسجل شهادة الاعجاب هذه رأيت أن أسأل بعض من عاصروا ماري عجمي أو عرفوها في أوج تألقها، إذا كانت هناك مبالغة، وأجابتني السيدة عنبرة سلام فقالت: «طبعاً هناك مبالغة...».

لكن وصف الأستاذ الكبير، ربما طابق مواقف لها، كانت غاية في الجرأة، والشجاعة، والوطنية. وقد ارتقت بها، وحلّقت، وليس بالكلمة وحدها.

* * *

العام ١٩١٠ كان موعد صدور مجلة «العروس» وبذلك، تكون ماري قد حققت طموحاً دغدغ مشاعر كل كاتب وكاتبة في تلك الحقبة. إذ صدرت خلال تلك الأعوام، عشرات الصحف والمجلات. وكانت منابر لأقلام أصحابها وصاحباتها في الدرجة الأولى، وإذا جاء مقال أو قصيدة، من كاتب لم ينشىء

صحيفته بعد، فلا بأس، ينشر له محاطاً بالحفاوة والتكريم.

لكن «العروس» لم تقو على عبور سنوات الحرب الصعبة، فتوقفت عن الصدور سنة ١٩١٤، أي مع نشوب الحرب العالمية الأولى، لتعود فتظهر سنة ١٩١٨، ولمدة سبع سنوات.

لكن صاحبة «العروس» لم توقف نشاطها الآخر، التدريس، فانصرفت تمارسه في معهد انشأته ورعته بنفسها، ودأبت فيه، على غرس الحس الوطني الصحيح في صدور الطالبات، وتوجيههن في الخط القويم، كما غرست في نفوسهن اليافعة، بذور مناهضة الحكم العثماني.

ولم ينحصر نشاطها في التعليم وحده، خلال تلك الفترة القاسية على شعبها ووطنها، بل قامت تلبي الحاجات الاجتماعية الناتجة عن الحرب. وأسست مع نازك العابد (بيهم) «النادي النسائي الأدبي» ثم «جمعية نور الفيحاء» و«مدرسة بنات الشهداء». كما انتخبت عضواً في «الرابطة الأدبية» التي أسسها خليل مردم. وكانت المرأة الوحيدة فيها.

ومثلما أحيطت الكاتبة بتقدير مواطنيها، وإعجابهم، كذلك حظيت بتقدير البلدان العربية المجاورة. ففي لبنان، دعا الأستاذ جرجي نقولا باز، الملقب بنصير المرأة، إلى حفلة أقامها على شرفها سنة ١٩٢٦ وذلك اعترافاً بالمكانة الرفيعة التي كانت تحتلها في نفوس قرائها وأصدقائها. وتقديراً لنضالها في حقلي الأدب والصحافة.

ومن بعده، تعاقبت على تكريمها المحافل الأدبية في حيفا ويافا، كما أن الكلمات التي ألقيت في تلك الاحتفالات، لم تركز على قيمتها الفكرية وحسب، بل وعلى مواقفها النضالية.

* * *

عند هذه النقطة، لا بد من وقفة في أهم محطة من حياة ماري؛ ففي بعض

مسيرتها النضالية، التقت الصحفي المناضل «بترو باولي» وتبادلت وإياه الحب والإعجاب. كما تواعدا على الزواج، فعقدا خطبتهما، إلى أن تحين الفرصة. وكانت الكاتبة تطلق على خطيبها لقب الباتر نظراً لجرأته الأدبية والسياسية، وثباته في مواقف نضالية خاضها، وقادته في النهاية إلى حبل المشنقة.

أجل، الباتر كان بين الجماعة المناهضة للحكم العثماني. وخاض ضده حرباً شعواء، سلاحها الكلمة الجريئة الصادقة، والتي كانت تنير الرأي العام بقدر ما تثير حقد الطغاة. وقد أدخل السجن أكثر من مرة بسبب كتابته. وكانت الخطيبة لا تنقطع عن مراسلته، حتى وهو خلف قضبان السجن. وأحياناً، كانت تكتب الرسالة، ثم تحملها بيدها، وتمضي إلى زيارته، غير مبالية بما يحيط بها من صعوبة ومخاطر. وكيف تبالي بالخطر، والرجل الذي أحبت سجين، وهي تعلم أنه مظلوم في تلقي الأحكام الجائرة، دون أن يعطى فرصة الدفاع عن النفس؟... وبالطبع، لم يكن الباتر السجين الوحيد، ففي سجن عاليه كما في سجن «جامع المعلقة» في دمشق، عشرات، بل مئات السجناء. ولكن الذين كانوا يثيرون اهتمامها (واهتمام الصحافة والرأي العام بالطبع) هم السجناء السياسيون، وبينهم رجال الصحافة.

وكانت ماري تحمل الرسالة إلى الخطيب بنفسها. فإذا استوقفها شرطي نهرته بعكاز لم يكن يفارقها، بسبب ضعف في إحدى ساقيها. أما إذا تمادى الحارس في وقاحته معها، استعانت عليه بالمتنفذين من وجهاء البلد. وأحياناً «كانت تستخدم قسطل الماء لابلاغ رسالة شفوية إلى أحد السجناء في قاع الزنزانة».

والباتر وكيل مجلتها في بيروت. وبينما كان ذاهباً إلى بيت مري حيث له أخ مريض، خدعه الشرطي، واقتاده إلى دائرة البوليس حيث قضى، ثلاثة أيام، اندلعت خلالها الحرب العالمية الأولى. فنقل السجناء، وهو في جملتهم إلى دمشق. وعندما علمت به ماري جن جنونها، وأشارت عليه بالهرب. لكنه لم

يصغ إليها، إذ كان بريئاً ولم يرتكب جرماً يدفعه إلى الهرب.

وظلت تراسله، وتحمل الرسالة بيدها، إذ لم يتوفر لها من ينقل كلماتها وأشواقها إلى الحبيب:

«أخي السجين، أكتب إليك على ضوء القنديل، ولكن ما ينفع النور إذا كان القلب مظلماً؟.. أراك على كرسيك الطويل وهو عرشك الجديد في مملكة المجرمين، تتلو على مسامعهم سمراً لطيفاً يخفف من بلوائهم، فأنت في موقف قلما تسنّى لكاتب إلا أجاد في وصفه، فلا تعبث بتأملاتك، بل قيدها، لأن الزمان قد قيد عليك الوجود بين المجرمين... لقد نسيت العالم منذ رأيتك على هذه الحال... خذ حرية كحريتي، إن شئت، وأعطني سجناً كسجنك...»

وفي رسالة أخرى تقول: «أخي السجين: أتدري انك في سجنك أكثر حرية مني، وأن السلاسل والأقفال التي يغلون بها أيدي السجناء ليست بأشد مما توجه إلى ذاكرتي...»

* * *

وفي يوم، اقتحمت مقر الحاكم الذي كان يذر الرعب في النفوس، جمال باشا، وحظيت منه بمقابلة، وناقشته، وهي امرأة، في أمور كثيرة، وخرجت من المقابلة لتكتب مقالاً وصفت فيه الرجل وما جرى بينهما، وكاد ذلك يقودها إلى السجن وربما إلى الموت.

لكنها، مع الأسف الشديد، لم تفلح في انقاذ خطيبها ورفاقه، وقد استشهدوا شنقاً في السادس من أيار، في ساحة الشهداء، ببيروت، وساحة المرجة بدمشق.

والباتر، لم يتخل لحظة عن شجاعته، لا في مواقفه الفكرية، ولا الإنسانية. فها هو يصرخ. وقبل أن يعلقوا الحبل في عنقه بلحظات:

«هلموا أيها الأخوان

إنها أرجوحة الأبطال
وأنت، يا تركيا الشقية
حياتنا في ظلك ممات
ومماتنا في ظلك حياة
فدونك إذن، هذه الروح
التي أقمت منذ عامين
تحومين حول نزعها، بكل ما لديك
من وسائل الاضطهاد.
وما عهد سقوطك، ببعيد.
وهنيئاً لمن يعيش ليرى الرجاء. . »

ولم يدعه الجلاد يكمل الحرف الأخير، إذ تقدم منه، وأحاط عنقه بالحبل. فرفس الباتر الكرسي بقدميه، ولسان حاله يقول: «من لم يمت بالسيف مات بحبل المشنقة».

أما ماري، الرفيقة والحبيبة، فقد انفجرت كالبركان الثائر. والحزن الذي تغلغل إلى أعماق نفسها، راح يتشظى عبر قلمها، فكتبت تخاطب الشهداء بنبرة تحمل إلى جانب الحزن، تحدي المرأة الجريح:

«أما تبرحون غارقين في رقادكم أيها النائمون؟ أما تعبت أجنابكم، ومللت من اللصوق بالرمال؟ قوموا، فقد نمتم طويلاً. . .

إن نفحات الربيع مالئة الفضاء، والأطيار تتسابق على الأفنان، والجداول تناديكم: أن هيا، عودوا إلينا لقد كفى القلوب وجداً وأنيناً، قوموا، فإن الأمة التي تعرفتموها، لا تريد أن تتعرفكم.

لقد اتخذت لنفسها أحباباً من بعدكم يراوغونها مراوغة الثعالب، لقد غدت تطرد أبناءها، وتبيع حق حياتها للغريب، رخيصاً، وتجد لذة في امتصاص دمها. عودوا. . . فقد عادت الورود الحمراء إلى مآقينا».

إن العلاقة التي كانت تربط بين الكاتبة والشهيد، هي علاقة وثيقة، وحميمة، ومن هذا المنطلق، ومن أعماق اليأس والحزن، تستل قوتها، غير هيابة. فإذا قضى الحبيب، ماذا تريد من دنياها، أكثر من وقفة شموخ واعتزاز؟ . . لن تطأطىء رأسها. لن ترضخ للعثمانيين، ولا حتى لمن جاء بعدهم، وحاولوا استمالتها.

وهذا الحب الحزين في فؤادها، راح يتفجر مقالات تشحذ فيها همم أبناء وطنها، لمناهضة المستعمر، والالتفات إلى دواخل النفوس والاهتمام بالثروات الطبيعية والإنسانية، وتطويرها واستثمارها.

وقد رأى البعض في مقالاتها، بذور الدعوة الغاندية لإنعاش المصنوعات الوطنية:

«إن المحراث في يدك أيها الرجل، لسيف تذود به عن حياتك، والمغزل في عينيك، أرهف سهم تناضل به، دون مالك واستقلالك.

إن لبن الأم، يا قوم، خير من لبن المرضع، إن ثوباً تهديه إليكم بلادكم يستبقي مالكم الضائع. إلى مصنوعاتكم، أيها السوريون، فإنها لراية لبلاد لم تبق لها راية. . وإن أمة هان على أبنائها بذل الدماء، لا يصعب عليها الانتصار في ميادين العمل».

* * *

وهكذا تتخذ الكاتبة من مناسبة الشهادة القدوة والمثال، لتحث الهمم، وتذكي في النفوس الحماسة للعمل، وفي كل مجال، لأن البلدان لا تبنى أو تنهض، إلا بسواعد بنيها.

ونسمعها تتغزل، في قصائدها، بالفلاح، والصانع، والزارع وترى في خشونة الأيدي العاملة كل الخير والبركة ولا تبخل، في شعرها ومقالاتها، على الجندي الذي:

«باع يوم النصر طوعاً روحه،
وبكفيه مفاتيح الردى،
وبعينيه اتقاد الهاجرة،
مؤمن بالحق صلب خشن
غير عاص شرعة أو آمرة».

وقد تكون ماري الكاتبة الوحيدة التي توغلت في السجن، إبان الحكم العثماني، وشهدت فيه، ما يعانيه السجناء (وجلهم من رجال السياسة والصحافة) من جور وتعسف. ولما طلب إليها أن تكتب وصفاً لمشاهداتها، كان ردها على ذلك، ما ورد في مقال عنوانه «السادس من أيار» قالت فيه:

«دخلت بابا، قام على جانبيه وفي صدره ثلاثة سجون منفصلة، لكل منها حاجز خاص، مصنوع من القضبان الحديدية، وهي مجموعة سجون، أو عبارة عن كهوف صخرية، يوصل إليها بثماني درجات، فرأيت وراء أحد تلك الأبواب نخلة باشا (المطران) جالساً عن كثب، عند مدخل مغارته الضيقة المنخفضة السقف، أمامه سلسلة ضخمة معلقة إلى قدميه، تزن ثلاثين رطلاً، لقعقعتها، كلما تحرك، صدى أجش. وكان يرفعها بيديه إذا مشى. ولما رآني رفع بصره، وأشار عليّ بالصمت مخافة الجواسيس والرقباء. وأنا أعجب لحالته وتجلده بعد أن نال تلك الاهانات، ولطخ وجهه آن التشهير بالاقذار وصفع مئات الصفعات، بأيدي أناس لم يكن يرضى أن يكونوا له عبيداً...»

«وخرجت من ذلك المكان، فإذا غلام يحمل قصعة من اللبن، أرسل بطلبها أحد معارفي من السجناء. فإذا الخفير يحفر بأنامله القذرة، حفرة في تلك القصعة للتثبت مما فيها، ثم يلحس أنامله، لتطهيرها مما علق بها، فيفحص غيرها من القصاع، على اختلاف ألوان الطعام...»

«وما زالت زياراتي للسجون تتوالى، حتى رأيت أن أسعى جهدي لإنقاذ بعض الأدباء ساعة علمت أن لا مفر لهم من حكم الاعدام. وكانت المحكمة

العرفية لا تسمح بدفاع المحامين. . . ».

هذا الوصف الـواقعي، وتلك الشهادة لمرحلة هي من أخطر مـا مرت فيـه البلاد في حينه، هي ما يميز أدب ماري وشخصيتها إذ لم يسبق لكاتبة أن عـاشت الأحـداث وانغمست فيها، مثلهـا، ثم شهدت لهـا في أدبهـا. وتـركت الشهـادة ساطعة على المعاناة التي اختبرها حاملو الاقلام والأفكار الوطنية.

ويبدو أن حربها لم تتوقف، بعد انحسار الحكم العثماني عن لبنان وسـوريا. فقد واجهت الانتداب بـالروح الـوطنية الـرافضة لكـل إرادة خارجيـة. وها هي تدلي بشهادة أخرى هامة، إثر تسلم الفرنسيين الحكم، إذ تقول:

«بعـد أيام قليلة انقضت عـلى استيـلاء فـرنسـا عـلى دمشق جـاءني شـرطي برقعة، يدعوني فيها رئيس الوزارة الجديد إلى اجتمـاع أراد عقده. فكتـب عليهـا كلمة «تبلغت» وأبيت أن ألبي الدعـوة. . . وبعد انعقـاد الاجتماع، سـألت عن القصد منه، فقيـل لي ان مديـر إدارة المطبـوعات الفـرنسية خـطب في الحضور، وهم من الكتّـاب، وعلمهم كيف يكتبـون، ووزع عليهم ورقـاً بـلا ثمـن، ووعدهم بالمساعدة.

ولم يمر ردع طويـل على ذلـك، حتى طفق أحـد معـارفي يتـردد كـل مسـاء محاولاً اقناعي بأنني، إذا هتفت لفرنسـا وأنشأت الفصـول، معددة الاصـلاحات التي تقصـد علينا الانتـداب من أجلها، فـزت بأجـر شهري ضخم من الـذهب الوهاج. . .

وفاجأته يومـاً بقولي: مـا هي تلك الاصلاحـات التي تريـد أن أكتب عنها؟ قال: عليّ أن آتيـك بقائمتهـا مرة بعـد أخرى، وعليـك إقناع القـوم بها شفـاهاً وخطابة وكتابة، قلت: «لتنجز فرنسا أولاً ما تعدنا به من الاصلاحـات، فأتـرنم بذكرها مجاناً. . . وكان جوابي له آخر عهدي به. . . »

وإن دلت تلك الشهـادات على شيء، فـإنما تـدل عـلى أهميـة حضـور تلك الأديبة وعمق تأثيرها في مجتمعها، ولدى قرائها ثم صلابة مـوقفها، وعـدم تخليها

عن مبادئها، برغم كل تهديد أو إغراء.

* * *

وتابعت ماري خط نضالها على جبهاتها الثلاث: الكتابة، الخطابة، والتعليم. وكانت تلجأ إلى الشعر في المواقف الحماسية، إذ إنه يعبر بشكل أقوى وأغنى، عما يجيش في صدرها من براكين الغضب:

«ردوا التراب فما الوقوف بنافع   والقوا الستار فمن ثوى لم يرجع»

بهذه النظرة الواقعية كانت ترى إلى الأحداث وتدعو مواطنيها ليبصروا الحقيقة، ويمعنوا فيها النظر، ويأخذوا منها عبرة لبناء غد أفضل ولتجاوز السقوط في اليأس.

وبقيت الكاتبة واقفة وسط الصحراء شامخة كنخلة، قوية، بل تلهم القوة، كما توحي إلى من حولها بالتقدير والاحترام، فتحرك قريحة رجل من أعظم رجالات السياسة العربية، وأعني فارس الخوري، رئيس وزراء سوريا وقتذاك ليقول فيها شهادته.

وهي، وإن لم تكن في مرتبة مي أدبياً، إنما تركت لنا، أدب الشهادة، بل ما يشبه التوثيق لمرحلة مظلمة من تاريخنا.

* * *

لكن الزهو الذي عرفته في الصبا، ومطلع سن النضج، لم يستمر معها حتى منتصف العمر، حين خيمت غمامة قاتمة، فوق رأس ماري، وغلفت نفسها بغلاف السوداوية القاتم. وبقيت على تلك الحال ردحاً من العمر، وعجزت محاولات الأصدقاء عن إخراجها من عزلتها وسوداويتها. وحاولت جماعة منهم ضمّ قصائد الشاعرة في ديوان، كما جلدت أعداد مجلتها «العروس» في عدة مجلدات.. لكنها كانت قد أصبحت بعيدة عن ذلك كله، والصدمة التي عرفتها في أوج شبابها، راحت تتغلغل في الأعماق، وتقتات من حيويتها. وحين وافتها

المنية، مساء السبت في ٢٥ كـانون الأول، سنـة ١٩٦٥ كان عقـد الأصدقـاء قد انفض من حولها، ومنذ زمن بعيد، ولم يبق، ليشهد آخرتها البائسة سوى نفر من المخلصـين، رافقوا جنـازتها إلى مثـواها الأخـير في مقبـرة البـاب الشـرقي للروم الارثوذكس، في دمشق.

روزاليوسف

«أنا صنعت من نفسي هذه السيدة».





كـانت يتيمة الأبـوين، صغيرة، وغـريبـة. وكـانت تـذهب الى المسـرح، وتدخل «دار التمثيل العربي» في القاهرة، كي تتفرّج على المسرحيات، وتـراقب، بشغف، أبطال هذه الحياة العجيبة.

ولم تكن الفتاة الصغيرة، تفهم شيئاً من هذا الذي يمثلونه. إنما كان يبهرها ما تراه عيناها. . . الثياب المزخرفة، الشخصيات والأبطال.

عالم شاسع خرافي، تتزاحم فيه البطولات، والمآسي، والأحلام. .

و«كانت تجلس الساعات، تحدق في المسرح، وتتمنى أن ترتدي - في يوم - تلك الثياب الغريبة».

أحيـاناً، كـانت تتسلل خلف الكواليس، وتـرافق الممثلين بنظرات ملؤهـا الشوق والدهشة، وتحاول أن تحفظ أسلوبهم في الإلقاء، وتنغيم الكلمات. .

آه! لـو تصبح مثلهم، تتحـدث بالشعـر، تهتف بالكـلام الحمـاسي! . . . وكانت على تلك الحالة حـين أبصرهـا الممثل الكبـير عمر وصفي. وكـان ضخم الجسم، جهوري الصوت، واسع العينين، ومعروفاً بنظراته المرعبة. .

سدد إليها نظرة فاحصـة، بثّت الرعـدة في أطرافهـا، ودفعتها لأن تلتصق

بالجدار، وكأنما تود الدخول فيه هرباً من العينين المسلطتين عليها. وحين لم تجد لها مهرباً، راحت تبكي بحرقة.. وصاح بها الرجل:

ـ يا ابنة.. تعالي!..

لم تتحرك، كما لم تكف عن البكاء. ومن خلال دموعها أبصرت رجلاً آخر، يدخل المكان «وكان قصيراً، قميئاً محدودب الظهر، يضع على كتفيه معطفاً عتيقاً، تذكر لونه الأصفر الحائل الى اليوم. ومن عينيه، تطل طيبة وإنسانية عميقة، عرفت فيه، فيما بعد، المخرج الفنان عزيز عيد».

اقترب يسألها عما بها، ولم تجبه، بل ازدادت تشبثاً بالجدار، تسند اليه قامتها الضئيلة. ابتسم كي يكشح الشك والخوف من نفسها، ثم اقترب منها، وأمسك بيدها، وقادها الى مقهى صغير بجوار المسرح، حيث قدم لها الشرابات وأصغى باهتمام كلي الى حكايتها الغريبة.

منذ تلك اللحظة، أصبح عزيز عيد، بالنسبة للصغيرة، بمثابة الأب الذي حُرمت عطفه.

* * *

هكذا تقدم روز اليوسف أو فاطمة اليوسف، لحكايتها مع المسرح وحياة الفن، في مصر، وذلك في مذكرات نشرتها تحت عنوان «ذكريات».

لا.. لم تتطرّق في ذكرياتها الى حياة تلك الصغيرة من قبل، أي منذ أن بدأت تدب فوق الأرض، ومع خطواتها الأولى تكتب حكاية تقرب من الأساطير.

وهي حكايتها، من بدايات اليتم والتشرد حتى بلوغها ذروة المجد المسرحي، والصحفي..

وفي ذلك، كتب، فيما بعد، ابنها القصصي، والكاتب الشهير إحسان عبدالقدوس، يتساءل: «كيف استطاعت، تلك المرأة، أن تحل وحدها تلك

المشكلة، كيف استطاعت أن تجمع بين جهادها الشاق المضني، والذي بدأته وهي في السابعة من عمرها، وبين واجبها كزوجة وأم؟ . . ».

بالطبع، علينا أن نبحث، وراء النجاح الباهر، الذي حققته تلك السيدة عن الدافع القوي، الذي كان يحثها باستمرار، لتتجاوز نفسها، وتقطع المراحل الصعبة، وتتسلق القمم، الواحدة تلو الأخرى، غير عابئة بما يكلفها ذلك من ألم، وجهد، وصبر ونضال.

فبعض الناس، ينذرون أنفسهم للمهمات الصعبة، وهذه السيدة واحدة منهم.

وتظل حكايتها الأولى غريبة، وغامضة، إذ انها لم تتطرق اليها في «ذكرياتها» بل عُرفت، مثلما رواها المشرفون على تربيتها، وكما وعتها ذاكرة الطفلة، التي غادرت بلدتها (طرابلس ـ لبنان) ولها من العمر سبع سنوات، وذلك بعدما فقدت والدها، وقد توفي في تركيا، حيث كان عمله. وأمها التي توفيت بعد ولادة الطفلة بعام واحد، تاركة أمر العناية بها لمربية اسمها: فاطمة، وكانت في الجوار عائلة مسيحية، تبنّت الطفلة الحلوة، وأطلقت عليها اسم روز، ومعناها ا لوردة، وذلك نسبة لما كانت عليه من جمال.

وكان أحد أفراد تلك العائلة مهاجراً الى أميركا، فرأى أن يصطحب الصغيرة ربما ليؤمّن لها مستقبلاً أفضل. وقد توقف خلال الرحلة في الاسكندرية. وهنا، كان التحول القدري الغامض، فقد زار الباخرة صاحب فرقة مسرحية، وربما كان قريباً لذلك المغترب، فأخذ الفتاة وأدخلها في فرقته.

أتوقف هنا لأشير الى الغموض الذي يكتنف هذه المرحلة من حياة السيدة روز اليوسف. حتى ابنها، الكاتب الكبير، لا يعرف تماماً، ما الذي جرى بين السن السابعة، ومطلع سني المراهقة. أي حين بدأت ترتاد المسارح، وتعجب بالفن، وتتمنى لو تكون واحدة من نجومه المتألقة، وقد سعى، فيما بعد للتعرف الى أهلها، لكن مسعاه لم يتكلل بالنجاح.

بالطبع، هذا لا يقلل من شأن الحكاية، أو من غرابتها. . والصدفة التي قادتها الى عزيز عيد أشبه بالمعجزة. فقد شعر الرجل، بفطرته الفنية الأصيلة، أن بين يديه قماشة فنانة، وهو القائل: «لا أستطيع أن أجعل من الرصاص ذهباً. إنما يمكنني أن أكتشف الذهب وأجعله لامعاً خلاباً».

نعم. . عرف حق المعرفة، أن بين يديه قطعة ذهب، تغطيها طبقة من الغموض، والضباب، فراح يصقل، ويجلو، ويعلّم، بصبر، ومحبة، والصغيرة تستجيب، بل تلتهم العلم الجديد، بنهم ورغبة. وفي ذكرياتها، ترد، كل الفضل، في تألّقها، ونجاحها الى هذا الأستاذ الأصيل.

* * *

كان يعاملها كفنانة، منذ البداية، ويترقب فرصة إدخالها الى المسرح. وقد جاءت الفرصة حين أخرج مسرحية «عواطف البنين»، وبقي لديه دور الجدة العجوز بعدما رفضت أن تقوم به الممثلات الصبايا.

ولم تكن البشرى مفرحة للصغيرة، إذ أصيبت بالمغص، والدوار وشعرت بأنها توشك أن يغمى عليها. لكن ثقتها بأستاذها، كبيرة، ولذا وضعت نفسها بتصرف موهبته. وهو غادر المسرح، مدة أسبوع، كي يتفرغ لتدريبها على أصول التمثيل، حتى تتقن الدور، ولا تخيّبه، خصوصاً وأن عنايته بها باتت مادة للسخرية من كل من يعمل في تلك الرواية.

وفوجىء، حين صعدت المسرح، بنجاحها. وإتقانها للدور. والذي ساعدها أن «صوتها نحيف، خافت بطبعه، يرتعش ويتهدّج من فرط الخوف والارتباك. . .».

وهكذا نجحت في الامتحان الأول الشاق. وأكدت لأستاذها قوله بأنها ستكون أفضل ممثلة «دراما».

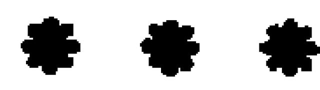
* * *

الحكاية، بعد الخطوة الأولى، مسلسل صراع، يتأرجح بين النجاح والفشل. لا بسبب قلة موهبة الفنانة الناشئة، وإنما يعود الى تخبط المسرح، في الضياع؛ فقد كانت تلك مرحلة إرساء القواعد، ووضع اللبنة الأولى لما أصبح فيما بعد، المسرح العريق.

وكانت هذه الفنانة الناشئة، تبني مع الآباء الأوائل، مجد هذا الفن، لا في مصر، وحسب، بل وفي العالم العربي قاطبة.

فقد عملت مع عزيز عيد، وجورج أبيض، ونجيب الريحاني، ويوسف وهبي، وسواهم من كبار الممثلين. وعملت بأسلوب أصيل مميّز، أخذته عن عزيز الذي عاش ومات فقيراً، لأنه ظل يرفض التنازل، والمساومة على الأصالة، وما يعتبره الفن الراقي.

ومع عزيز مثلت دور البطولة في مسرحية «خلي بالك من املي». وكان معها نجيب الريحاني. ونجحت نجاحاً كبيراً جعل نقاد الفن يطلقون عليها لقب «الفودفيله الحسناء». إنما كان عليها أن تنتظر بعض الوقت، كي تبلغ ذروة الإبداع مع فرقة رمسيس في تمثيلها دور مرغريت من مسرحية «غادة الكاميليا». وكانت قد سبقتها إلى تمثيل هذا الدور في فرنسا الممثلة الكبيرة ساره برنارد، وهذا ما دفع النقاد الى اطلاق لقب «ساره برنارد الشرق» على روز التي أبدعت في النسخة المعرّبة.



استمرت روز في تمثيل الدور النسائي الأول، في عدد من المسرحيات التي قدمتها فرقة رمسيس إما موضوعة، أو معرّبة، لكنها بدأت تضيق بأسلوب أحد ممثلي الفرقة الفنان يوسف وهبي، وقد كان مستبداً في رأيه، ومختلفاً عنها في طريقة تمثيله وتقديره الفني. وحين حاول أن يفرض عليها الاشتراك في مسرحية «الذبائح» وهي عبارة عن سلسلة فواجع يمجها ذوق الفنانة الأصيلة، فضلت الخروج من الفرقة، على القبول بهذا الدور، أو أي دور لا تكون قانعة به..

وسافرت الى فرنسا لتقضي إجازة في باريس. . . كان العام ١٩٢٤. وأخذت الفرقة تتدهور. فأرسل اليها محمد التابعي (وكان ناقداً فنياً يكتب في صحيفة الأهرام، وتحترم رأيه وقلمه) أرسل يطلب منها الحضور، لأن نجيب الريحاني كوّن فرقة لتمثيل «الدراما» ويود أن يسند إليها دور البطولة. وحملت اليها الرسالة عقداً كي توقعه، وهاج شوقها الى الفن، فعادت. . . واستمرت مع الفرقة أسبوعين فقط ثم خرجت. وتعلل ذلك بقولها إن الريحاني خُلق للأدوار الفكاهية، وكان «يُضحك الناس في مواقف يُفترض أن تكون محزنة».

بعدها، اعتزلت المسرح تسع سنوات. أي من عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٣٤ حين احترقت قرية «محلة زياد» وكان هذا الحريق كارثة، فتسابق الناس للتبرع، كي يُعاد بناء القرية. وقررت روز أن تمثل دورها الأشهر «غادة الكاميليا» ليلتين، مع رفاقها القدامى، وذلك لمساعدة القرية المنكوبة. ومع هذا لنجاح الأخير، وضعت الخاتمة لحياتها المسرحية.

لكنها، بعد ذلك، انتقلت الى مسرح آخر، أرحب، وربما أبعد أثراً في المجتمع، ألا وهو المجال الصحفي.

وتقول السيدة التي خبرت المسرحين: «كان غريباً، فيما يتعلق بالسياسة، أن أجد الروايات التي مثّلت على مسرحها طيلة ثمان وعشرين سنة، تكاد أن تكون رواية واحدة. قد يتغيّر الأبطال، والمخرجون، لكن الرواية هي، هي، والخاتمة التي تنزل عندها الستارة، لا تتغيّر».

وتلخص قصتها مع الصحافة بأنها حكاية إصرار وصبر وتصميم.

أول ما خطرت لها الفكرة وهي في صحبة بعض الزملاء من الوسط الفني، وتساءلت بصوت عالٍ:

ـ لماذا لا أُصدر مجلة فنية؟. .

ثم لم تتوقف لتسمع احتجاج الرفاق وتساؤلهم عن إمكانية نجاح

المشروع. . . بادرت هي أيضاً الى اختيار الاسم، فأطلقت عليها اسمها: «روز اليوسف». «الاسم الذي تعلق به الجمهور وأحبه».

كان كل من يسمعها تتحدث عن الموضوع، يظن بأنها نزوة وتنسى. إنما هي كانت جادة، وراحت تجمع العناصر. وكان أول محرر استدعته محمد التابعي، وحوّلتْ شقتها، والتي كان يملكها الشاعر أحمد شوقي، الى مقر مؤقت للمجلة. وتقول انه كان على كل من شاء المشاركة في التحرير أن يصعد خمساً وتسعين درجة. وساعدها التابعي في كل شيء، من التحرير الى العمل في المطبعة. وأكثر الذين استجابوا لدعوتها، قدموا عملهم مجاناً، إذ لم تكن تملك النقود لتسدد تكاليف الطباعة والورق، فكيف بالمرتبات؟!

المهم أن المجلة صدرت، وأبصر العدد الأول النور في أوائل شهر تشرين الأول (أكتوبر) من سنة ١٩٣٥. وفكرت أن تتولى فتيات مهمة توزيع المجلة في شوارع القاهرة، لكن هذه الفكرة لم تتحقق.

وتابعت نضالها، في سبيل دفع المجلة من تردد الاطلالة الأولى، الى الرسوخ في مجتمع لم يكن للمرأة فيه أي نصيب من النشاط الفكري. وتلخص الحالة في مذكراتها فتقول: «كان اقتحام ميدان الصحافة أمراً صعباً جديداً على الرجال، فما بالك بالنساء؟ وفي هذا الجو، كان عليّ أن أمضي. أن أتحمل مسؤولية عمل يحمل اسمي، أن أشنّ الحملات وأتعرّض للهجوم المضاد، أن أرأس مؤسسة كل من يعمل فيها رجال، أن أذهب لمقابلة رجال هم أمام الناس وزراء وكبراء ولكنهم في الحقيقة ليسوا إلا رجالاً لا يعرفون عن النساء إلا أنهن لهو ومتاع. كانت هذه في واقع الأمر مشكلة المشاكل. وكان عليّ أن أجتاز تجارب قاسية. . وأن أتعلم دروساً كثيرة».

* * *

وقد روت في سيرة حياتها بعضاً من تلك التجارب، كما رسمت درب صراعها الطويل، مع السياسة، ومع الرجل، ومع الأحزاب والحكومات، ذلك

أن المجلة الطامحة، لم تلبث أن راحت تستقطب أقلام كبار الكتّاب أمثال العقاد، وطه حسين وسواهما. ولها حكاية طريفة مع العقاد الذي كان يكتب في الجهاد، فسأل رسولها:

ـ الجرنال حيكون اسمه ايه؟

ولما قيل له «روز اليوسف» أجاب:
ـ لا أعمل في جرنال يحمل اسم واحدة ست..

لكنه عاد فتراجع عن كلامه حين دفعت له مرتباً قدره ثمانون جنيهاً، مع سلفة أربعة أشهر، وكانت «الجهاد» تدفع له سبعين جنيهاً في الشهر.

ولما عاتبته على قوله، صحّح موقفه منها، فشرح لها أنه لم يكن ضد التسمية باسم سيدة، بل ان موقفه ضد تسمية المجلة باسم مطلق شخص، ولو كان سعد زغلول.

* * *

وبالمناسبة، فإن السيدة روز كانت شديدة الإعجاب بسعد زغلول ومواقفه الوطنية، تقصده أينما كان، لتسمع كلامه المخلص، والذي كان يُصيب نقاطاً حساسة في كيانها، ويدفعها الى المزيد من الالتزام، العملي..

إنها لا تقف على الحياد من أية قضية، ولذا رأت أن لا بد من إقحام مجلتها في المجال السياسي، حتى يكون لها نصيب أكبر في المشاركة الوطنية.

وذهبت الى رئيس الوزراء في حينه، أحمد زيّور، وطلبت منه الترخيص لتصدر صحيفة سياسية، وتعجب حين علم أن وزارة الداخلية رفضت طلبها، بحجة أن حزب الوفد المعارض يستتر بها... لكن الرئيس الطيب سمح بالترخيص بسهولة قائلاً:

ـ أعطوها الترخيص.. خلوها تاكل عيش.

وكـانت هذه عبـارته الشهيـرة، يرددهـا كلما قيل لـه بأن إحـدى الصحف تهاجمه.

* * *

وكانت خطوتها التالية العمل مع الكتّاب والمحررين ليتحولـوا من الكتابـة في الفن والأدب، الى السيـاسة. وقبـل التابعي أن يكتب مقـاله السيـاسي غصباً عنه. وراحت المجلة تنحاز الى جانب سعد زغلول. وبدأ اعضاء الوفد يقـرأونها في السرّ - لأن صاحبتها امرأة.

وتذكر أن السيدة هدى شعـراوي كانت في طليعـة المشجعين، بينـما لزمت «أم المصريين» أي زوجة سعد زغلول الصمت حيال هذا العمل الجديد.

وبدأت على صفحات المجلة الصراعات الفكرية والسياسية. وكانت هناك معركة بين العقاد والمازني من جهة، وأحمد شوقي من الجهـة الأخرى. فـأخذت روز على عاتقها أمر المصـالحة، وقـد تمت في مكاتب المجلة - وكـانت قدِ انتقلت من شقتها الى غرفتين صغيرتين، تحت درج إحدى البنايات التي يملكهـا شوقي. وتذكر أن أمير الشعراء كـان يزور المجلة دائـماً، ويخصها ببعض قصـائده، وكـان يُسرّ أشد السرور حين يبصر العقـاد، بقامتـه الطويلة، يضـطر الى الانحناء كي يدخل من الباب المنخفض، فيعلّق بقوله:

- الادارة الجديـدة علّمتنا التواضع يا ست روز.

* * *

سنة ١٩٢٧ سافـرت روز الى باريس في إجـازة قصيرة، وهنـاك قرأت نبـأ وفاة سعد زغلول فحـزنت حزنـاً شديـداً، وعادت الى مصر، لتتـابع مسـاندتهـا لحـزب الوفـد، بحماسـة أشد من السـابق. وكان سـلاح المجلة المقـال الـلاذع و«الكاريكاتور» الساخر الطريف. وبالطبـع عرّضهـا ذلك للمـطاردة والمصادرة. وأول مرة صودرت المجلة، انطلقت، دون أن تفكر، الى بيت الأمـة، حيث كان

مصطفى النحاس يعقد اجتماعاً. . فدخلت عليه دون استئذان أو سلام. . . كانت هناك عبارة واحدة سبقتها إليها:

ـ لقد صادروا المجلة، يا باشا. وأنا عاوزة الافراج عنها.

فابتسم بهدوء وأجاب:

ـ لك الفخار، يا سيدتي. .

وكانت عيون رفاقه تحدق في وجهها غير مصدقة، هل هذه هي السيدة التي تقف خلف هذا المشروع الجبّار؟. .

بعد ذلك، كان عليها أن تعتاد الأمر، إذ راحت الحكومة تصادر من أعداد المجلة أكثر مما تبيح. . . وخلال سنتين، بلغ رقم الأعداد المصادرة اثنين وستين عدداً، والمباع اثنين وأربعين. وأطلقت إحدى الصحف المعادية على الوفد اسم: «حزب روز اليوسف». . وتلقى النحاس الهجوم في إحدى خطبه فرد بقوله: إنه يفخر بأن يكون الوفد «حزب روز اليوسف»، المجلة المجاهدة الشجاعة والتي لا تبالي بالاضطهاد.

* * *

هذه المناصرة كانت لصالح المجلة، كما أن ازدياد رقعة انتشارها، جعلها تطلب المزيد من التوسع والراحة، فاتخذت لها شقة كبيرة، واستقطبت الكفاءات والمواهب الشابة، وكانت للسيدة عين لا تخطىء في اختيار المواهب، وتشجيعها. لكنها عانت كذلك من أوقات الهبوط، بسبب الاضطهاد، والحملات المضادة. غير أنها بقيت أمينة لأفكارها، ومبادئها، وفية للأشخاص الذين يمثلون في رأيها، الوطنية والشهامة.

* * *

ومن الطرائف التي ترويها عن علاقتها بالوفد، أنها ذهبت ذات يوم لتحضر مناسبة وطنية كان يقام لها احتفال، وكان مصطفى النحاس يلقي خطاباً، والساحة تعج بالجماهير، وهي لم تشأ التوجه الى سرادق النساء، فسمع

النحاس ضجة وأصواتاً تردد:

ـ وسّع يا جدع . . وسّع انت وهو . .

وصاح من فوق المنصة:

ـ فيه ايه؟ . . .

ثم لاحظ السيدة تدخل، والواقفون يحاولون أن يفسحوا لها مكاناً كي تجلس فصاح فيهم:

ـ شيلوها . . وهاتوها هنا.

وتقول متابعة سرد الحادثة: «وقبل أن أفكر في الأمر، كانت الجماهير قد حملتني وفي لمح البصر وجدتني أجلس على المنصة، بجوار النحاس».

وهناك حوادث كثيرة مماثلة ترويها المذكرات، وإن دلّت على شيء، فإنما تدل على المكانة التي كانت للسيدة روز في المجتمع، بل انها فرضت شخصيتها على أكبر المقامات، مع الاحترام والتكريم. وقد اطلعت على مجموعة مقالات في أرشيف الأهرام، كتبها أكبر أدباء وكتّاب مصر، اثر وفاتها، وكلها تشهد لهذه السيدة الرائدة بالشجاعة، والذكاء، الى نظافة كف، وشهامة فكر. فهي لم تسخّر قلمها أو مجلتها، لقضية، لم تؤمن بها. ولهذا كان عليها أن تحتمل الكثير من الاضطهاد الذي أخذ وجوهاً شتى، من السجن، الى التضييق المالي، الى تخلي الأقلام التي كان لها الفضل الأول في تشجيعها.

وبلغ الصراع أوجه مع إصدارها صحيفة يمية، سياسية طبعاً ـ تحمل اسم «روز اليوسف» أيضاً. وقد صدرت طريفة في أبوابها، غنية في محتواها، وتحمل طابع السخرية. ويبدو أن حزب الوفد بعدما أصبح في الحكم لم يكن مستعداً ليتحمل منها المعارضة والنقد، والسخرية. ولم تشأ هي أن ترضخ، بل سارت في خطها المعارض. فحصلت أزمة عنيفة، قرر الحزب على أثرها، فصلها، وذلك بتاريخ ٢٨ أيلول سنة ١٩٣٥. وسارت تظاهرات ضدها. وسمعت الشتائم

وهي في مكتبها، من أفواه الذين كانوا حتى الأمس القريب يهتفون لها.

وتقول: إنها خرجت الى الشرفة، وواجهتهم وراحت تهتف بسقوط النحاس ومكرم عبيد. في البدء جاروها، ثم انتبهوا، فعادوا يوجهون الهتاف ضدها. وكانت في أعماقها تتألم، وتتذكر كيف وقفت تزغرد حين صدر حكم بتبرئة النحاس في إحدى المحاكمات. وظلت تعترف بأن النحاس رجل شريف، لكنه طيب، وطيبته جعلت الآخرين يستغلونه.

ثم قامت حرب شتائم كلامية، على صفحات الجرائد، خصوصاً بين العقاد ومكرم عبيد. فإذا بصحيفة «روز اليوسف» والمجلة تتعرضان للحرق والتمزيق من قبل الجماهير الغاضبة. وانتهت حملة الصحيفة اليومية بالنجاح المعنوي الذي حققته بعودة الدستور. لكنها «كسبت المعركة وخسرت حياتها» إذ أغرقت صاحبتها في ديون اضطرتها الى بيع حلاها، وثيابها، حتى انها رهنت سواراً وحيداً ورثته عن أمها. وبدأ الكتّاب يغادرون «السفينة الغارقة»، وفي مقدمهم العقاد ومحمود عزمي. وبدل رسائل الإعجاب، بدأت تردها إنذارات الحجز، حتى أن أحد المخبرين، (وتقول إنه بات محرراً في الأهرام) طلب أن يحجز على ثيابها الداخلية، بسبب دين له في ذمتها، لا يزيد على الستة جنيهات. لكن مأمور الحجز، خجل أن يقوم بالمهمة واكتفى بتسجيل بعض الثياب.

* * *

وتابع الوفد حملته ضدها وهو الحزب الحاكم، فأصدر قراراً بالغاء الصحيفة اليومية بحجة أنها لا تصدر بانتظام، كما شن حربه على الأسبوعية، وفي سنة ١٩٣٦ أدخلت روز السجن، وكانت، ربما، أول امرأة شرقية تسجن لأسباب سياسية فكرية. لكنها لم تتراجع، وتابعت نضالها، وأصدرت مجلة «صباح الخير» سنة ١٩٥٥.

لا تخبرنا روز اليوسف الكثير عن حياتها الخاصة، عدا ذكرها لابنها إحسان عبدالقدوس. مرة حين رفضت أن تُدخل التابعي شريكاً لها في الدار،

معتبرة أن ذلك من حق ابنها. ثم عن المرض الخطير الذي أصيب به إحسان وهو في الخامسة من عمره، مما اضطرها الى ملازمة فراشه مدة خمسة وثلاثين يوماً، حتى عادت اليه العافية، ناسية كل مسؤولية، ما عدا الأمومة. ثم موقفها من هذا الابن الوحيد، حين تخرّج حاملاً «الليسانس» وجاء ليتسلم رئاسة التحرير. فقد رفضت ذلك، طالبة منه أن يتدرّج ويتدرّب، كي يستحق هذا المركز. فغادرها وعمل في «آخر ساعة» مع التابعي الذي دفع له مرتّباً يبلغ ثلاثة أضعاف ما كانت تدفع له.

ثم عاد الى «روز اليوسف» سنة ١٩٤٥ ليتسلم مسؤولياته، ودخل السجن اثر أول مقال كتبه. وحين خرج، سلمته رئاسة التحرير، وسمحت له أن يدخن السيجارة أمامها للمرة الأولى.

وتعترف، برغم حبها الكبير لإحسان، بأنها ظلت على خلاف معه، بسبب مواقفه من المرأة في رواياته وقصصه.

* * *

ولا بد، هنا، من ذكر لمحة عن الحياة الخاصة لهذه السيدة الكبيرة. فقد تزوجت محمد عبدالقدوس، وكان مهندساً وفناناً عمل معها على المسرح مدة، وأعلنت إسلامها، متخذة لها اسماً جديداً: فاطمة، لكنها احتفظت باسم روز لأسباب فنية. وإحسان هو ثمرة هذا الزواج الذي انتهى الى طلاق، ثم تزوجت روز ممثلاً وناقداً اسمه زكي طليمات وولدت منه ابنتها آمال.

لكن هذا الزواج أيضاً لم يدم، وكان زواجها الثالث من المحامي قاسم أمين وهو حفيد الرجل الذي يحمل الاسم نفسه. . ومناصر المرأة الأول: قاسم أمين.

وكانت علاقتها بابنها طيبة الى أقصى حد. فهي أمامه الحنان، والعطاء. لكنها ظلت واعية أهمية التربية، مستفيدة من نضالها، فشاءت أن يبني هو

اسمه، بتعبه وجهده. أما الابن، فتفضح عاطفته نحوها، كتابته عنها، وعن تأثيرها عليه، وعلى أبناء جيله، فهو يصفها، كما يصف العاشق حبيبته، حتى ينتهي الى الاعتراف بأن: «أمي صنعت مني هذا الرجل» بينما تقول ذكرياتها «أنا صنعت من نفسي هذه السيدة».

وكانت وفاة السيدة روز - فاطمة اليوسف في العاشر من شهر نيسان سنة ١٩٨٥. ومثلما كان ينتظر لمناضلة مثلها، فاجأتها نوبة قلبية، بعد نهار من النشاط، وبعدما أوت إلى فراشها، واستعدت لراحة المساء.

وقد استحقت من التكريم عدة أوسمة منها وسام المملكة المصرية لتشجيع التمثيل العربي، منحته مرتين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٢٦. ووسام الجمهورية منح بعد وفاتها من قبل الرئيس أنور السادات سنة ١٩٨١. كما رفع تمثالها في دار الأوبرا، ولها تمثال آخر على مدخل دار «روز اليوسف». ويبقى التكريم الأعظم، وهو عطاؤها السخي في كل المجالات التي خاضتها.

عنبرة سلام الخالدي

«قيّد يا أخي:

البنات يذهبن إلى النوادي،

إلى هنا وصل الاستهتار؟...».





أحتاج، كي أرسم شخصيتها، إلى ريشة من بلور، وألوان أثيرية، ومدى لا يحد من النور والشفافية. ذلك أن السيدة اللطيفة كنسمات العشايا الصيفية، والخفيفة الظل، كطيف خطر، والناضجة، الممتلئة نكهة، وعذوبة كثمرة استوائية، والمشعة بأنوار ترفعك فوراً من كيانك الترابي، لتضعك على مشارف الكون النوراني.

هذه السيدة التي توحي بالجلال والهيبة، ويتدفق الحنان والمحبة من عينيها، يشدك إليها فيض من السحر، فتشعر بأنه يصعب عليك، وأنت تحاول الكتابة عنها، أن تظل بعيداً عن لمسات سحرها، وتبقى على الحياد، فلا تنضم إلى «حزب» محبيها.

وأنا من هذا الحزب، الذي يقدر فيها شخصيتها المتميزة بالبساطة والانفتاح والرقة والحزم، إلى كونها تمثل جيل الرائدات اللواتي كنا نتطلع إليهن بشوق، ونتابع حكاياتهن بشغف، وكأننا نفتح أبواباً سرية، أو ندخل عوالم الأساطير.

* * *

لقد كتب الكثير عن السيدة عنبرة سلام الخالدي. شعرت وأنا أتابع

أحـاديث ولقـاءات ونـدوات عقـدت معهـا، بـأن الكتّــاب أو الكـاتبــات، في الصحافة، أو الإذاعة، أو التلفزيون، كانوا يشعرون، بأن مهمتهم يجب أن تبدأ من باب دارها، وعلى كلماتها يشحذون أقلامهم.

يقصـدونها، ليسمعوا شهـادات صادقـة، عن الـزمـان والإنسـان فيـه. عن مراحل سبقت المرحلة الحاضـرة ومهدت لهـا. عن صراع الـرائدات، من أجـل تحـطيم قيود فُرضت عليهن، لا لسبب، إلا لكونهن من جنس آخـر. . . لأنهن نساء.

* * *

باكراً جداً وعت عنبرة سـلام، تأثـير القيود عـلى شخصيتها، وفي محيـطها، فراحت تتلمس الطريق، كي تتصدى لكل قيد، وتتغلب عليه. وكان يساعـدها في نهضتها، محيط عائلي متميز بالوعي الوطني والحضاري:

فأبوها سليم علي سلام أو أبو علي سلام زعيم قـومه، رجـل كبير النفس، ينطوي صدره على حكمة، ورحابة قلما عرفت لدى معاصريه.

وأمها، سليلة أسرة البربير، العـريقة، كـانت متعلمة، وهـذا من النوادر في زمانها، ومع أن «الست عنبـرة» تعطي لـوالدهـا، الفضل الأول، في دفعهـا نحو التقدم الشجاع، في العلم، والانعتاق، إلا أنها لا تتجاهل دور الوالـدة، السيدة كلثوم، في تفتيح وعيها، وشحذ طموحها.

* * *

صغيرة جداً كانت الفتاة الشقراء اللون، ذات العينين الـزرقاوين الـدائمتي البحث والتقصّي، حين وضعت قدمها، في بداية طريق الاستقلال.

هي واحدة من أحد عشر مولوداً، تتألف منهم عائلة أبو علي سلام، ثمانيـة بنين، وثلاث بنات، وعنبرة من الحبات التي تتوسط العقـد. وقد رسمت صـوراً معبرة، وإن مختصرة، لأفراد عائلتها، في كتابهـا «جولـة في الذكـريات بـين لبنان

وفلسطين». ومن خلاله، يطّلع القارىء، لا على سيرة آل سلام وحسب، وإنما على نمط من الحياة السائدة في بيروت، بل في لبنان، في حينه.

يقول المؤرخ كمال صليبي في تقديمه للكتاب: «من الآن فصاعداً، لن يكتب تاريخ بيروت، في العصور الحديثة، دون الرجوع إلى مذكرات «الست عنبرة». ولن يكتب تاريخ النهضة النسائية في العالم العربي الحديث دون الاعتماد على هذه المذكرات بالذات».

حقاً، لن يكتب تاريخ، ما لم تدرج شهادات شهود، بل أبطال، عاشوا الحياة، وخبروها، وواجهوا الواقع فقبلوا منه ما استساغوه ورفضوا ما يعارض مبادئهم.

ولن يكتب التاريخ، دون أن يبرز اسم المرأة، والمرأة من وزن سيدتنا الكريمة، والتي بدأت نضالها في الحياة، مع انبثاق أول خيوط الوعي.

* * *

عاشت النضال السياسي، من خلال والدها، وذلك في مرحلة تفتحها الباكر، وحين كان الحكم العثماني يتربص بالوطنيين، يطاردهم، ويقض مضاجع عائلاتهم.

وعاشت صراعاً آخر مع مجتمع محافظ، بل متشدد بالضغط على تحرك الفتاة.

وكان منزل آل سلام في قلب المصيطبة، أي في قلب البيئة البيروتية المحافظة، وعندما ولدت عنبرة في شهر آب سنة ١٨٩٧، كانت المرأة لا تزال متوارية خلف الحجب، تعيش في عزلة عن مجتمعها، بعيدة عما يدور في العالم الخارجي، أي عالم الرجل.

تلقت مبادىء الدراسة عند «الشيخة» وختمت القرآن الكريم في السن العاشرة، وأقيمت لها حفلة خاصة للمناسبة، وتابعت دراستها في مدرسة تنتمي

إلى جمعية «ثمرة الاحسان».

وكان هناك شخص يحث الفتيات على التعلم. هو أحمد مختار بيهم، ويدعم القول بالفعل، إذ دأب على تقديم ساعة ذهبية للمتفوقات من الفتيات، وكانت الساعة من نصيب عنبرة في إحدى المرات.

وأحمد بيهم لم يكتف بهذه الوسيلة لدفع الفتيان والفتيات إلى التعلم، بل كتب ووزع شعارات منها: «تعلم يا فتى، فالجهل عار». أو «إلى العلم... إلى العلم...».

* * *

كانت طفلتنا في حدود العاشرة من عمرها، حين بدأت تتسرب إلى سمعها كلمات تهديد، وملاحظات قاسية، من نساء يصادفنها في الشارع، ولا يرضين عن انطلاقتها.

وكتبت في مذكراتها تقول: «دخلت السور الحديدي وأنا في العاشرة من عمري، أتعثر في مشيتي ضمن إزاري، وانضممت إلى أمي وجداتي اللواتي سبقنني إليه». وكان أكثر ما يضايقها، من انضمامها إلى مجتمع النساء باكراً، انها منعت من مجاراة اخوتها في اللعب والقفز في الحديقة، أو تسلق الأشجار وجني ثمارها.

* * *

وتابعت الصغيرة الطموحة دراستها، من سنة ١٩٠٨ وحتى ١٩١٤ في مدرسة «مار يوسف» للبنات، ثم في «المقاصد» وذلك بعدما تسلمت إدارتها، وخلافاً للتقليد، جوليا طعمه. وكان والدها قد لاحظ شغفها بالعلم والمطالعة، فلم يشأ أن توقف دروسها، بل استدعى كبار الأساتذة كي يشرفوا على تدريسها في البيت، منهم: الشيخ عبد الله البستاني، لتعليم آداب اللغة العربية وقواعدها.

وقد رضي أن يقوم بالمهمة، وهو في حدود السبعين من عمره، كرمى

لصداقته مع والدها. وكانت هناك أستاذة للغة الفرنسية، والأب يوسف الزهار للعلوم، كما دعيت آنستان لتعليمها الموسيقى.

هذه الخلفية الثقافية، مضافة إلى خبرة الصبية من خلال رحلات إلى الخارج، ثم تشجيع معلمتها وصديقتها جوليا طعمه، لتقرأ، وتتفتح على انعتاق المرأة، بدأت تفعل في تكوين شخصيتها المميزة.

وكانت «الست جوليا» تمدها بالكتب الممنوعة في حينه، مثل كتاب قاسم أمين: «المرأة الجديدة».

* * *

وتروي السيدة عنبرة، في مذكراتها، حكاية طريفة، عن دعوة تلقتها من صديقتها جوليا، لتحضر إلى نادي الأحد، وتستمع إلى محاضرة لها. وتواعدتا أن تعرّج عليها عنبرة، لتصحبها في عربتها، وحين بلغتا باب النادي، وهمت بالترجل، سمعت أحدهم يقول لرفيق: «إلى هنا وصل الاستهتار؟.. قيد يا أخي، البنات... يذهبن إلى النوادي، وهذه ابنة أبو علي سلام تحضر النوادي المختلطة».

ولم يكن في يد الابنة الطيبة، والتي لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها، إلا أن تعتذر من صديقتها، وتطلب من السائق أن يعيدها إلى البيت.

ولم يتوقف تدخل تلك الفئة المتعصبة عند هذا الحد، ففي اليوم التالي ظهرت جريدة لهم، واسمها «أبابيل» تحمل «المانشيت» التالي: «البنات في النوادي...» وهنا تضيف السيدة عنبرة: تلك كانت من أشد العوامل التي جعلتني أرفض هذه العقلية، وأسعى إلى تطويرها.

* * *

وكانت تستلهم عناصر وعيها الباكر، من كلمات قاسم أمين، الذي تعتبره القائد الأول للحركة النسائية في العالم العربي. وقد سمعته يخطب خلال زيارتها

إلى القاهرة، بعدما قرأت كتبه «المحرضة» في بيروت وكانت ترى فيه «صورة الرجل الذي فقدناه في بيروت» وتعني أحمد بيهم.

أما المرأة الملهمة في هذه المرحلة فقد تمثلت في سيدتين هما: هدى شعراوي، في مصر، وجوليا طعمه في بيروت.

* * *

تابعت عنبرة بناء شخصيتها على خطين: المطالعة، والدراسة على أساتذة كبار، ثم المشاركة في الحياة العامة، ومنذ سنوات المراهقة.

وتتساءل اليوم: «كيف كانوا ينشرون رسائلي ومقالاتي وأنا ابنة ست عشرة سنة؟ أتراه شوق المفكرين والقراء إلى سماع صوت المرأة؟».

وفي هذه المرحلة بالذات، تلقت دعوة لإنشاء جمعية نسائية تهتم بالتربية، ورعاية المتفوقات. وكانت الدعوة من آنسات سمين أنفسهن «سبطات (أي حفيدات) الأمير عبد القادر الجزائري».

وهكذا ولدت جمعية «يقظة الفتاة العربية» على أيدي صبايا لم تجاوز كبراهن الثامنة عشرة من العمر. وقد لجأن في حينه إلى السيدة نجلاء بيهم ورجونها أن ترأس الجمعية، كي تصدر الإجازة باسمها.

وتتابع السيدة عنبرة: وكانت أول جمعية لفتيات مسلمات في العالم العربي. تأسست في شهر آب من سنة ١٩١٤ ـ أي مع بداية الحرب العالمية الأولى ـ وهذا ما اضطرها لأن توقف نشاطها بسبب هجرة الناس من بيروت.

كذلك ساهمت الصبية عنبرة في تأسيس «النادي الاجتماعي للفتيات المسلمات». وهو الأول من نوعه في البلاد العربية. كما اشتركت مع الأديبة سلمى صايغ في تأسيس «جمعية النهضة النسائية» لتشجيع المصنوعات الوطنية.

* * *

وتمر عنبرة الكاتبة، بكثير من الرهافة، على حدث هـام ترك عميق الأثـر في حياتها خـلال تلك الفترة، وهـو تعرفهـا على شـاب كان مـوضع إعجـاب الجيل الجـديد هـو الصحافي عبـد الغني العريسي، الـذي كان يقف في الصف المتقـدم لمناهضة الحكم العثماني، من خلال جريدته «المفيد».

وقد تم التعارف بـين الصبية وفتى الأحـلام في دار إحدى الصـديقات وقـد رغبت عنبرة في ذلك إذ كانت ترفض أن تربط مصيرها بمصير شاب تجهله.

وهـذه خـطوة جـريئة بـالنسبـة إلى زمـانها، وتصفهـا فتقـول : «ذهبت إلى الاجتمـاع وجلة خائفـة من إقدامي عـلى خطوة كـانت في منتهى الجرأة، بـل في منتهى الوقاحة حسب تقدير المجتمع آنذاك».

ولم يخيب الشاب أملها، فكان اللقاء موفقاً، والاعجاب متبادلاً، واتفقا على المراسلة، ثم تقدم بطلب يدها من أهلها، ، الذين تمهلوا في الجواب.

وهنا، تدخـل القدر، إذ وقعت الحـرب، فهاجـرت عائلة سـلام إلى إحدى قرى الزبداني في سوريا. وعبد الغني لجأ مع جريدته إلى دمشق. وحين التقت به هناك، أفهمها بأن مخاطر جمة تحيط به وبرفاقه، إنما عليها أن تتشجع.

وكانت في غاية الشجاعة حين صمدت أمام النبأ الفاجع الذي جاءها، مـع صباح السادس من أيـار سنة ١٩١٦ . لقـد أعدمـوا خطيبهـا، وكان من شهـداء الدفعة الثانية، إذ شنقوا شهداء الدفعة الأولى في آب من سنة ١٩١٥ .

* * *

هذه الصدمة تركت في نفس الصبية الرقيقة، جرحاً بليغاً حـاولت أن تدمله بالعمل الاجتماعي والثقافي. وكانت قد عرفت ألماً مشابهاً في تجربة سابقة، حـين فقدت أخاها محي الدين وهو في العشرين من عمره.

هذا الحزن العميق، والذي يتغلغل حتى أعماق الجذور، تحـول في شخصية عنبرة إلى رادف شحذ منها الفكر، وأنـار العقل، وزادهـا رهافـة حس بالقضـايا

الوطنية والإنسانية.

لقد انسحبت من ذاتها وحاولت أن تدفن «أناها» في عطاء متواصل، لكل من حولها؛ المساعدة لأمها، العاطفة لاخوتها، الدعم والصداقة لرفيقاتها المناضلات.

وهذا ما جعلها ترفض طلبات زواج راحت تنهال عليها من كل صوب، لما لعائلتها من مكانة، ثم لجدارة شخصية بكرت في إثباتها. وقد تجاوزت ذلك كله، وتابعت خط الطموح، وغايتها هذه المرة الدراسة في إنكلترا، حيث سبقها أخوها. لكن والدتها وضعت عليها شرطاً وهو أن تصحب شقيقتها الصغرى رشا والتي كانت لها بمثابة ابنة روحية.

وقبلت بالشرط، وسافرت في النصف الأخير من سنة ١٩٢٥.

* * *

بقيت في إنكلترا سنتين، درست خلالها اللغة الانكليزية، والأدب، وأسلوب المعيشة والنظام. وحين رجعت من هذه الرحلة دعتها جمعيتها لتلقي محاضرة حول انطباعاتها الشخصية.

وكان الجمهور مختلطاً والمحاضرة مفصلة تستغرق الساعتين، مما دفعها لتستشير والدها في أمر سفورها، فكان جوابه: تصرفي بحسب ما ترينه مناسباً... ووجدتها فرصتها الذهبية للانعتاق. وانطلقت بعد ذلك تخطب في المؤتمرات النسائية، المنعقدة في لبنان أو في الخارج.

هذا التألق الثقافي والاجتماعي، كان من الطبيعي أن يلفت الأنظار إلى الصبية العاصية على الزواج. وكان هناك شاب يرصد تحركاتها المميزة بصمت.

ثم لم يلبث أن خرج عن صمته، حين كتب لأخوتها يطلب خطبتها. وجاءه رد الأخوة سلباً. وهنا لجأ إلى صديقتها جوليا طعمه دمشقية، التي دعتها إلى الغداء، وحضر أحمد سامح الخالدي خصيصاً من القدس، إلى بيروت كي يلبي

تلك الدعوة، ويتعرف إلى الأديبة المتألقة.

وكان أحمد شاباً وسيماً، مثقفاً، واسع العلم والمعرفة، واثقاً من نفسه، ويشغل منصب مدير الكلية العربية في القدس، والمسؤول الأول عن التعليم العربي في فلسطين.

وكانت مصارحة، بين الاثنين، خلال لقاء ثان وثالث، إلى أن عقد القران في القدس بتاريخ ٩ آب سنة ١٩٢٩ بحضور الأهل، وبحسب التقاليد المتعارفة، بأن يكون العقد في مقر العريس.

* * *

وندخل مرحلة هامة، في حياة السيدة عنبرة، هي مرحلة النضج الأدبي، وجني ثمار العلم والمعرفة، والتي أعدت لها خلال السنوات المنصرمة. كما نبدأ مع مسيرتها كأم مثالية، أقبلت بشغف على حضن طفلي أحمد ـ سلافة ووليد ـ بكل ما في صدرها من مخزون العاطفة والأمومة التي تقول فيها:

«. . . وأنا أعتقد أنني أم قبل أي صفة أخرى، ولهذا فقد انسجمت مع طفلي هذين كل الانسجام، وكانا سبباً في إضفاء البهجة على البيت، وإضفاء مسؤولية على عاتقي، محببة إلى نفسي».

كذلك رافقت نضال زوجها السياسي والثقافي، إذ دخلت القدس وهي تشتعل. وفي عام ١٩٣٦ تشردت مع عائلتها مرتين. وشهدت الانتفاضات الوطنية، وكانت، مع زوجها، من تلك الحركة في موقع القلب النابض.

وقد دفعت الضريبة عدة مرات، إحداها سنة ١٩٣٨ حين استدعيت إلى بيروت، بسبب مرض والدها، ثم وفاته. ولما عادت إلى منزلها في القدس وجدته خالياً. كما أجبر زوجها على إخلاء الكلية العربية.

* * *

لم تتخل عن نشاطها الأدبي، فانصرفت إلى ترجمة «الالياذة» و«الأوذيسة» عن

الانكليزية، وكتب لها المقدمة الدكتور طه حسين، ثم اتبعتها بترجمة «الانياذة». وكانت أول سيدة تلقي حديثاً نسائياً من إذاعة القدس، حين تسلم إدارتها الشاعر إبراهيم طوقان. وتذكر أنها كتبت للمناسبة،بحثاً عن سكينة بنت الحسين التي تعتبرها رائدة الوعي النسائي والأدب الرفيع.

* * *

وظلت تساند زوجها في نشاطاته التربوية، والثقافية، خصوصاً بعدما ألف «لجنة اليتيم العربي» و «معهد دير عمرو» المهني، إلى جانب إدارته للكلية العربية، وتقول:

«إن اضطرار أحمد إلى التخلي عن مشاريعه هذه، أصابت منه القلب. وحين اضطر إلى الرحيل، مع العائلة، إلى لبنان في نيسان ١٩٤٨، نقل بعضاً من نشاطه معه، فأنشأ مدرسة في قرية «الحنيه» في الجنوب، من أجل أبناء المهاجرين الفلسطينيين تضم مدرسة ومستوصفاً. وكان يخطط لبناء مدرسة في الشمال قبل أن يوافيه الأجل وهو في الخامسة والخمسين من عمره.

* * *

ذكرت الست عنبرة لمحة عن مشاعر الأمومة في صدرها، لكن الأولاد والأحفاد، وحدهم، يمكنهم أن يعرفوا قدرها أمّا وجدة سعيدة. فقد رزقت من زواجها بأحمد الخالدي أربعة أولاد، هم: أسامة، ورندة وطريف وكرمه، الصغرى التي توفيت في الأشهر الأولى من حياتها.

بلغ أولادها، جميعاً مراتب سامية في العلم، ويشغلون مناصب رفيعة في مجالات منوعة يضيق المجال عن تفصيلها. وحين تتحدث هي عنهم. تقول:

«أشعر الآن، أنه عليّ أن أذكر شيئاً مفصلاً عن الأولاد، تحدثاً بنعمة الله، وقد عاهدت نفسي أن أذكر ما لهم من الحسنات والسيئات، بكل تجرد، ولكنني حينما بدأت أكتب عنهم، ضحكت من هذا التجرد المدعي، لأنني لا أقدر أن

أجد لهم شيئاً من السيئات، وهل هذا شأن كل أم فخورة بأبنائها، يا ترى؟ . . .»

وقد كتبت مفصلاً عن كل منهم في سياق ذكرياتها. أما الأحفاد، الذين أهدتهم كتابها القيّم، فالجدة عنبرة تحقق في علاقتها بهم المثل الشعبي القائل: «ما أعز من الولد إلا ولد الولد» ولها منهم عشر بركات، تخبر عنها الأجيال الطالعة. وتشهد كم أنه باستطاعة الإنسان أن يكون مغروساً في بيئته، مثل حبة البركة.

سنية حبوب

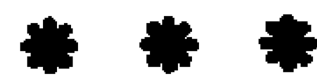
«.. وفكرت جدياً بالرجوع، لكن صوت أمي ظلّ يرافقني ويدفعني لأقف بثبات:

- إذهبي يا ابنتي، ولا تتراجعي».



اسمها، في المجتمع اللبناني، يعني الريادة في حقل علمي، قلما تجرأت المرأة، أن تغرس فيه قدمها.

فالطب، في زمانها، وفي الأزمنة التي سبقت، كان من اختصاص الرجال. فكيف توفر للفتاة القابعة خلف الحجاب، والمتحدرة من أسرة بيروتية عريقة ومحافظة، كيف توفر لها أن تعبر محيطات التقاليد، وتتجاوزها، لتبلغ قمة التحصيل العلمي والمهني؟...



للإجابة عن هذا السؤال، كان عليّ، أن أقصد المراجع المسجلة في صدور الصديقات، الزميلات، والأمهات اللواتي وضعن أجيالاً من الأولاد، على يديها. ذلك أن الطبيبة الماهرة والسيدة الكبيرة سنية حبوب، كانت مقلّة في كلامها، بقدر ما كانت سخية في عطائها، للمقربين منها، ولكل من تصلها بهم صلة إنسانية.

وإذن، فإن هذه المحاولة لتسجيل نتف من سيرة حياتها، ورسم معالم الطريق التي سلكتها، هي بداية لحكاية طويلة، قد تكتب في يوم، خدمة

للأجيال الطالعة، وبالأخص، خدمة لفتيات هـذه الأيام، اللواتي يجدن السبل ممهدة أمامهن، وكـل مـا يـطلب منهن، أن ينقلن الخطى، بـاتجـاه هـدف يثـير حماستهن.

ولا بد لي، من رسم المعالم الأولى لخريطة مسيرة تصاعدية، بـدأتها طفلة لا ينقصهـا الطموح. ومن ورائهـا يقف أب وأم تـواقـان إلى تعليم أولادهمـا، من الجنسين، التعليم العالي.

فالأم عادلة الجزائـري، التركيـة الأصل، من جـزيرة رودس، كـانت تجهل القراءة والكتابة، وتسعى لتعوض أولادها، من نقص رافقها طوال حياتها.

والأب مصـطفى حبوب تـاجر بيـروتي معروف، منفتـح على العـالم، ويقدر بحدسه العمـلي، أن غاية الإنسـان، أن يتطلع أبـداً إلى الأمام، ويبني في سبيـل الغد، لا في سبيل أيام ولّت.

وهكذا وجدت الطفلة سـنية ـ والتي لم تكمل عامها الثالث ـ وجدت نفسها في عداد التلامذة الذين يفدون على مـدرسة الشيـخ عمر. القـائمة عنـد «بوابـة الدركي» مقر المجلس النيـابي في بيروت. وكـان ذلك، في السنـوات الأولى التي فتحت بوابة القرن العشرين.

ونقرأ على جواز سفر الدكتورة حبـوب، أنها مولـودة سنة ١٨٩٩. أي عنـد الحد الفاصل بين قرنين. وصحّحت هي: ربمـا كانت الـولادة بعد سنـة من هذا التـاريخ، إذ لم يكن هنـاك تسجيل أكيـد. إلا أنها متأكـدة حتى أقصى حد، من تلك الحماسة التي دفعتها خطوة اثر خطوة، لتتابع مسيرتها التصاعدية.

* * *

وتصف الدكتورة مدرستها الأولى فتقول: «كنا خليطاً من الأناث والـذكور، نؤم المـدرسة مـدفوعـين بحماسـة الأهل، لنحفظ القـرآن. أما التـربية بمعنـاهـا العصـري، فلم تكن موجـودة، إذ كـان التقـويم الخلقي يتم بـواسـطة «الفلق» للصبيان، والعصا للبنات.

من مـدرسة الكـتّاب، انتقلت الطفلة إلى مـدرسـة أخـرى صغيـرة اسمهـا مدرسة «النضال» فقضت فيها بضعة أشهر قبل أن تدخل مدرسة «رأس بيروت» تتـأبط «الزوادة» بسبب بعـد المنزل، واختصـاراً للتنقل عـلى الطرق. ولم تعـرف النـظام المدرسي الصحيـح إلا في مدرسـة «الست أليس» «التي جعلت الطالبـات يجلسن فوق المقاعد، وأمامهن طاولات للكتابة. . .». «الست أليس علمتنا النظام والانشاد. وأدخلت نهضة جديدة إلى عالم التربية حينذاك. وفي مدرستها ختمت القرآن».

* * *

كانت هذه مرحلة الدراسة الابتدائية، البعيدة عن أي منهـج، وأي تنظيم. وكانت في حياة سنية الطفلة، نافذة هامة، تطل منها عـلى دنيا جـديدة، ومختلفـة عن مجتمعها البيروتي. وذلك خلال زياراتها لجديها لأمهـا، في رودس، إذ كانت تختلط بأناس من بيئة مختلفة.

واثر عودتها من إحدى الزيارات، دعتهـا صديقتهـا سهيلة سعادة لتصحبهـا إلى مدرسة حديثة، أنشأها المبشرون السكتلنديون.

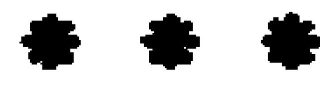
وتروي الدكتورة ما تذكره من تلك المرحلة فتقول: «رافقت سهيلة، وكنت مجتهـدة. لم أتغيب يومـاً واحـداً عن الصف. وحـين تخـرجت، كنت قـد أنهيت دراستي الابتدائية».

وتذكر أنها كانت شغوفة بالمطالعة منذ تلك السن الباكرة، فتقرأ كل ما تقـع عليه من كتب.

ثم وقعت الحرب العالمية الأولى. وتمكنت الطالبـة المجدة، بـرغم ذلك، أن تكمل سنة دراسيـة واحدة في مـدرسة الاميـركان قبـل أن تستقر في المنـزل طوال ثلاث سنوات. ثم كان زواج تقليدي خرجت منه معلنـة رفضها لكـل ما يتنـافى مع تفكيرها وعقلها العلمي.

هذه التجربة لم تكن عائقاً للصبية، بقدر ما كـانت حافـزاً دفعها إلى متـابعة دراستها العليا في كلية البنات (والتي تعرف حالياً باسم كليـة بيروت الجـامعية). وأصبحت سنيـة واحدة من ثـلاث طالبـات تابعن بـرنامـج السنتين في الكليـة، وتخـرجن بشهـادات جـامعيـة. أمـا رفيقتـاهـا فهـما منيـرة البـربـير وأرمينـوهي موغريـدتشيان. والأخيـرة أصبحت طبيبة، وظلت محـافظة عـلى صداقتهـا المتينة لرفيقة الصف.

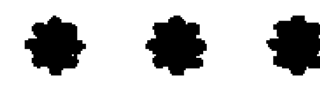
وتحتفظ سجلات «كلية بيـروت» بذكـرى طيبة للرائـدات الثلاث، فـاتحات الـطريق، وحـامـلات المشعـل أمـام الـطامحـات للدراسـة العليـا والاختصـاص العلمي.



ولم تكن الدراسة العلميـة أمراً سهـلاً. فبعض المواضيـع لا تُعطى في كليـة البنات، وكان على سنية الطالبة، أن تنتقل إلى الجامعة الاميركية لتحضر صفوف العلوم والرياضيات.

وبدأت تكتشف الفجوات التي خلفتها دراستها الابتدائية والثانويـة حتى أن أستاذ الهندسة كلفها بنقل رسالة شفوية إلى والدها قال فيها: «اخبري والدك بأن نجاحك أمر مستحيل».

ولا تذكر الدكتورة إذا كانت قد بلغت أباها الرسالة. غير أنها تذكر جيـداً بأن صوتاً داخلياً، كان ينبري للأستاذ، يعاكسه، مؤكداً لها، بأنها سوف تنجح، بل هي في طريقها إلى النجاح الأكيد.



ثمة ضغط آخر، تعرضت له الطالبة، التي لم تخلع الحجـاب، لكنها تجـرأت أن تخـطو داخل عتبـة جامعـة طلابهـا جميعهم من الذكـور. ولم تلبث أن شعرت بـالضغط يزداد، وهي تتسلم رسـائل التهـديد المغفلة. فـأبلغت أساتـذتهـا، ولم

يكترثوا بادىء الأمر، ولكن، عندما تحققوا من جدّية هذه المحاولات، بادروا إلى مساندتها، وصارت تلاحظ أحدهم البروفسور نيكولز يخرج، بعدما تنهي دروسها، ليرافقها على الرصيف المقابل، حتى تبلغ كلية البنات.

* * *

ولم يُبذل الجهد سدى. جهد الطالبة، والأساتذة، فقد تخرجت سنية بتفوق، وانطلقت تحمل شهادتها الجامعية، وشعوراً كبيراً بالمسؤولية، فدراسة سنتين في الجامعة، ليست سوى خطوة تمهيدية، للحلم الأكبر. . . وكان حلمها يرسو عند مهنة الطب. ودراستها تستغرق سنوات. ولم يكن هناك طبيبة واحدة في بيئتها. ففي حال نجاح أمنيتها، تكون سنية أول طبيبة في لبنان، وربما في عدد كبير من البلدان العربية.

وكانت هناك فتاة لبنانية، سبقتها على الطريق، وتخرجت من كلية الطب في باريس، سنة ١٩٢١. إنها انستاز بركات (زوجة جرجي نقولا باز فيما بعد). وكانت الفتاة الوحيدة بين مجموعة أطباء تخرجوا تلك السنة ومن عدة بلدان أوروبية.

أية شجاعة كانت لها! أية حماسة وقفت خلف شعلة الطموح المتقدة في نفسها؟

الفتاة في السابعة والعشرين من عمرها، ولكن من يكترث لعد السنين؟ ها هي تصمم على السفر. عينها على الأفق البعيد، وفكرها يسبقها إلى كلية الطب خلف البحار.

وتتبلغ قبولها في كلية الطب النسائي، في ولاية بنسلفانيا الأميركية. وجواز السفر القديم لا يزال في حوزتها: صادر في ١٦ تموز سنة ١٩٢٦ عن الجمهورية الفرنسية المنتدبة في لبنان. ورقمه ٤٢٠٦.

حملت جوازها، وحقيبة السفر، وصعدت فوق ظهر باخرة متوجهة إلى مرسيليا، الفتاة على خط قدرها:

«كانت ليلة الفراق صعبة. وكنت مترددة: أسافر أم أقلع عن السفر؟ وأية مغامرة هذه؟ وماذا ينتظرني عند الوجه الآخر من الكرة الأرضية؟ كدت أتراجع، لو لم تمتد يد أمي فتسندني: سافري، يا ابنتي. واتكلي على الله. أريدك أن تسافري وتكملي دراستك.

وسافرت. ولم تجف دموعي من بيروت إلى مرسيليا. وفي المدينة الغريبة بلغ الضيق أقصى درجاته، وفكرت، جدياً، بالرجوع، لكن صوت أمي ظل يرافقني، ويدفعني لأقف بثبات: إذهبي يا ابنتي، ولا تتراجعي. المستقبل ينتظرك. وهكذا، استنفرت كل ما لي من شجاعة ومقدرة على التحمل، وتابعت رحلتي».

* * *

سنية حبوب، الطالبة العربية الوحيدة في الكلية الطبية. وأثار ذلك فضول الزميلات، فانهالت عليها الدعوات لتحاضر، وتتحدث إلى المرأة هناك، عن المرأة في بلادها. وكانوا يدفعون لها لقاء كل محاضرة، مبلغاً من المال، لم تنفق منه شيئاً بل أدخرته ليكون وسيلتها لتحقيق فكرة جديدة.

قضت في الجامعة سبع سنوات قبل أن تتخرج سنة ١٩٣١ وترتدي الثوب التقليدي الذي يحلم بارتدائه كل طالب جامعي. وقد حملت هذا الثوب، حين رجوعها، لتفرح به قلب والدتها.

وتضيف الدكتورة بأسى:

«كنت احتفظ بهذا «الروب»، ذكرى حلوة، إلى أن وقعت الحرب الحالية، ونهبت العيادة، وأحرق ما بقي فيها، وخسرت، لا الثوب وحسب، بل جميع المعدات الطبية (أحرقوها بخشب الأبواب والنوافذ) وخسرت سجلاتي جميعها، وأشعر بحسرة عميقة لذلك. ولا أستطيع أن أتغلب على مرارة الشعور الذي يرافقني في أيامي هذه. فقد عرفت النجاح، وحياة العمل الرضية. أجيال عديدة ولدت على يدي. «أولادي» أصبحوا أطباء ومهندسين ومهنيين. وكلهم ساهموا

في بناء هذا الوطن. عشت في مملكة عملي، ولم أحب شيئاً فوق حبي لمهنتي. لم أشعر مرة واحدة بالتعب من مهنة اخترتها، وسعيت إليها. مارستها طوال خمس وأربعين سنة، كان معدل الولادات، في الشهر بين عشر وخمس عشرة ولادة. وكان هناك زوجي وبنتاي، وأعمال المنزل. وكنت أقوم بهذه المسؤوليات جميعها بفرح لا يوصف...».

* * *

وسنية، لم تكن الوحيدة في عائلتها، التي تابعت دراستها العليا. فأختها نهيل جبوب درست طب الأسنان. أما عفيفة الجميلة، فلم تتابع دراستها الجامعية، وثمة أخت ثالثة توفيت إبان الحرب. أما أخواها حسن وعبد الحميد فقد انصرفا إلى الحياة العملية.

وماذا عن البداية في ممارسة الطب؟ تتنفس الدكتورة براحة، ورضى وهي تستعيد الذكريات: لم تكن البداية سهلة. لقيت معارضة شديدة. ولكن المعترضين، لم يلبثوا أن أحضروا إلي زوجاتهم.

كنت شديدة الحماسة، منذ البداية. وقبل أن أنهي تجهيز العيادة فاجأتني سيدة تطلب مني أن أفحصها. قلت لها: لا أستطيع أن ألبي طلبك، فإني لم أعلق الستائر على نوافذ العيادة.

أجابت المرأة: لا بأس. ثم أبصرتها تخلع معطفها، وتعلقه ستاراً على إحدى النوافذ، قبل أن تستعد للفحص.

أمام هذه الحاجة الشديدة إلى مساعدتي، ماذا كان عليّ أن أفعل، سوى أن أفتح الباب لكل من تطرقه، طالبة المساعدة.

* * *

وذاع صيت الطبيبة الشابة، وتناقلت اسمها أحاديث الصالونات، وأعمدة الصحف. وفي يوم، قصدها صحافي شاب ليجري معها مقابلة لمجلة

«الرسالة». والمقابلة تطورت إلى إعجاب. وقبل أن تصدر المجلة، كان صاحب الحديث يطلب يد الطبيبة للزواج. وقد نجح في إقناعها برغم معارضتها. أما سبب المعارضة فهو فارق السن بينهما؛ إذ كانت تتقدمه بعشر سنوات.

وتقول الدكتورة سنية: «في الواقع، إن طلبه فاجأني. حسبت، في بادىء الأمر أنه يريدني أن أتوسط له لخطبة فتاة، ولم يخطر في بالي أنه كان يوجه الكلام إلي».

وتم النصيب، وتزوج الصحافي الشاب محمد النقاش، صاحب الأفكار الجريئة، والنزعة المستقبلية، من رائدة الطب النسائي، وذلك سنة ١٩٣٧. ورزق الزوجان بابنتين هما: سنية وعفت.

* * *

لا يسعني، وأنا أكتب عن الطبيبة الرائدة، إلا أن أعود قليلاً إلى الوراء. وإلى شهر حزيران بالذات، حين استلمت الدكتورة حبوب بطاقة دعوة، من كلية الطب في بنسلفانيا، لحضور الاحتفال الكبير، أو اليوبيل الذهبي، لمناسبة مرور خمسين عاماً على تخرجها. ولم تستطع السفر لأسباب صحية، بينما التقت رفيقات الصف، زميلاتها الرائدات، من شتى أقطار العالم. وذكرنها بالخير، وكتبن لها رسالة، تحمل تواقيعهن، وتنقل إليها نسمات الوفاء والمحبة.

وذكرى سنية، الطالبة، لا تزال تتجدد مع كل عام، في سجلات الكلية، وعبر المنحة التي خصصتها لطالبة مستحقة من عائلة حبوب، أو من لبنان، أو من العالم العربي. أما المال الذي يدعم تلك المنحة، فهو ما أدخرته أيام الدراسة، أي قبل خمسين سنة، من ريع محاضراتها في الأندية الطلابية.

ويظل التقدير، الذي استحقته في وطنها مكتوباً بأحرف المحبة، في صدور الأمهات والأولاد. وهذا أهم، من وسام الاستحقاق الفضي الذي علق على صدرها في عهد الرئيس ألفرد نقاش، ووسام الاستحقاق المذهب الذي منحته في عهد الرئيس بشارة الخوري، ووسام الأرز من رتبة فارس، من عهد الرئيس

سليمان فرنجية، ثم وسام الجمعية الفرنسية للخدمات الإنسانية.

كما ظلت تعتبر، هذا التقدير أهم من إطلاق اسمها على شارع من منطقة الرملة البيضاء. وحين ذكرته لها هزت رأسها، وهي تغالب دمعة في العين: ليتهم أبقوا على عيادتي ومنزلي، ولم يطلقوا اسمي على أي مكان... *

الحق معك، يا سيدتي الطبيبة! كل الحق معك! ولكن، ماذا نقول في زمن الدمار والفوضى؟ وهل هناك من يعتذر؟

* كتب هذا الفصل قبل وفاة الدكتورة حبوب في ٧ أيلول سنة ١٩٨٣.

فيجايا لاكشمي بانديت

«النساء يتميّزن عن الرجال في المجال السياسي بأنهن قادرات، أكثر قليلاً منهم، على الصبر والاحتمال والنفاذ الى صميم المواقف».



نســاء الهند البـارزات، يتعادلن مـع مساحـة تلك القـارة الأسيـويـة الغنيـة بالتراث، العريقة في الأصالة، والمحافظة على الجذور حتى أبعد حدود المحافظة.

وإذا كان ظل السيدة أنديرا غاندي ينبسط فوق وجه الهند العصرية، فهناك نساء سبقها إلى العمل السياسي، بل ربما مهـدن السبيل الـذي سارت عليـه فيما بعد.

وأشهر أولئك النساء، وأكثرهن تقدماً عمة أنديرا، السيدة فيجـانا لاكشمي بانديت. وهي تقيم حالياً عند سفوح جبـال الحملايـا، في الهند، في بلدة دهـرا دون، معتزلة العمل السياسي، والذي خاضته وبرعت فيـه، بل وبلغت إحـدى ذراه الرفعية.

* * *

ولدت فيجايا لاكشمي في ١٨ آب سنة ١٩٠٠، في مقاطعة الله أباد بالهند. والـدها موتيلال نهرو، زعيم وطني معـروف، وشقيقها جـواهـر لال نهرو، أول رئيس وزراء للهند المستقلة.

اختـار لها أبوها اسم سـواروب حـال ولادتهـا، والكلمـة تعني «الجميلة».

والجميلة لم تذهب إلى المدرسة بل استدعيت مربية إنكليزية تولت تدريسها في المنزل، مثلما كانت عادة الفتيات الأرستقراطيات. ثم بعثها أبوها إلى سويسرا حيث درست مدة أربع سنوات على أساتذة خصوصيين، وتلقت اللغة الفرنسية، وعادت إلى الهند، لتندمج في الجو السياسي، الذي فتحت عينيها عليه، وعاشته منذ الطفولة.

وقد شاركت فكرياً وعاطفياً، في صنع الأحداث التي عصفت في بلادها، إذ كانت المرحلة فترة المناداة بالاستقلال وخروج المستعمر البريطاني من الهند. وقد نزلت فيجايا باكراً إلى الساحة، وراحت تعمل بكل ما اختزنته من علم وذكاء واندفاع وطني.

وطبق أبوها التعاليم التي نادى بها الزعيم غاندي فتخلى عن أملاكه. وهكذا أصبحت العائلة، بين ليلة وضحاها، لا تملك من حطام الدنيا شيئاً.

في فترة نضالها هذه، التقت شاباً شديد الحماسة للمثل الغاندية، واسمه رانجيت سيناريم بانديت، وجدت لديه الكثير من المثل المشتركة، وكان بينهما حب واحترام متبادلان، فقررا أن يتزوجا، وذلك في العام ١٩٢١. وولدت فيجايا ثلاث فتيات: الكبرى غاندراليكا (ومعناها الهلال) والثانية نيانتارا (وتعني نجمة العين) والثالثة ريتا (أي الحقيقة) وهذه الابنة الأخيرة أمضت عدة سنوات في لبنان، حين كان زوجها سفيراً لبلده في بيروت. أما الكبرى، فقد أصبحت كاتبة ومعلقة سياسية بارزة.



حاولت فيجايا الأم أن تعطي بناتها الكثير من العناية والعاطفة، لكن الحياة السياسية العاصفة التي عاشتها في مرحلة طفولتهن، جعلتهن بعيدات عن استقرار العائلات العادية، فالأم مناضلة، وهي أبداً في طليعة الصفوف الداعية إلى تحرير البلاد. فقد نظمت الهيئات النسائية، وقامت بزيارات للأرياف، لا لتخطب في النساء، بل لتعلمهن الغزل، ومقاطعة البضائع الإنكليزية.

وكانت في طليعة التظاهرات التي دعت إلى نبذ كل ما هو من صنع المستعمر، واشتركت في الاحتفالات الوطنية التي كانت تقام في الساحات، وتحرق خلالها الأمتعة الأجنبية.

كذلك تولت السيدة بانديت مهمة اقناع مواطنيها بمقاطعة الاحتفالات الحكومية الرسمية، واعتقلت بسبب ذلك، وسجنت. ولما خرجت من السجن، تزعمت حركة التحرير. وحين اعتقل زعماء الحزب سنة ١٩٣٢ تسلمت السيدة بانديت القيادة مع غيرها من السيدات الواعيات.

لكن السلطة المستعمرة عادت إلى اعتقالها وسجنها من جديد، وقضت في السجن، في المرات الثلاث، ما يقارب الثلاث سنوات.

* * *

وكلما عادت المناضلة إلى البيت، كانت تحضن فتياتها، وتفهمهن أسباب ابتعادها عنهن، ومعنى اقتيادها إلى السجن. لكن الفهم، لا ينفي الخوف والقلق، الذي عاشته الصغيرات، لذا قرر الوالدان، أن يبعدا الكبيرتين إلى أميركا، كي تتابعا دراستهما فيها. وبقيت ريتا الصغيرة بقرب أمها، التي بدأت تتسلم مراكز إدارية وسياسية. ففي سنة ١٩٣٥ انتخبت رئيسة لجنة التعليم في بلدية الله أباد. ثم تسلمت وزارتي الصحة والحكم الذاتي، وكانت أول سيدة هندية تعطى حقيبة وزارية.

ومن عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٤٢ ترأست مؤتمر نساء الهند، في حركة اللاتعاون.

وكان عليها، فوق هذه المسؤوليات جميعها، أن تشد من عزم ابنتيها الغائبتين. وقد كتبت نيانتارا عن «أمي الجميلة الرائعة، التي تحول الغرفة الصغيرة إلى دارة عامرة، والطبق الصغير من الطعام إلى مائدة حافلة».

تلك الأم الساحرة، زودت بنتيها، لدى سفرهما بالعبارة التالية:

«عندما يسافر الهندي إلى أي مكان في العالم، فإنه يحمل في نفسه قطعة من وطنه. عليه ألا ينسى هذه الحقيقة، لأنه مسؤول عن تصرفاته، فإما أن يجلب لوطنه الكرامة والاحترام، أو الخزي والعار».

* * *

كان أول المعجبين بشخصية السيدة الكبيرة، الحكام الإنكليز أنفسهم، فقد خبروا أصالة جوهرها، وتصميمها المخلص على مساعدة الطبقة الهندية الكادحة. وكانت أول إنطلاقة لها في السياسة الدولية سنة ١٩٤٦ حين ترأست وفد بلادها إلى أميركا، وراحت تستغل كل سانحة لتندد بتصرف المارشال سماتس في جنوب أفريقيا، وبسياسته القائمة على التفرقة العنصرية.

والذي كان يهمها من ذلك، هو افراد الجالية الهندية في تلك البلاد، وقد حصلت حوادث عنف خطيرة ضدهم.

ويذكر، أنها بعدما ألقت خطاباً عاصفاً، نال إعجاب الجمهور، اقتربت من المارشال وصافحته قائلة:

«أرجو أن لا أكون قد أذيت شعورك الشخصي، فقد تلقيت تعليمات من المهاتما غاندي كي أصافحك وأطلب بركتك لنجاح قضيتنا».

هذا مثال بسيط على اعتماد السيدة بانديت، في نضالها السياسي، على القيم الخلقية والروحية التي نادت بها فلسفة غاندي. كانت تهدف إلى إظهار الحق، واحترام القيم الإنسانية، دون أن تعتدي على إنسانية الآخرين.

«إني أعبر عن حقوق ستماية مليون من المستعبدين في آسيا... ولن يكون هناك سلام على الأرض ما دام هؤلاء محرومين من حقهم في الحرية والعدالة».

هكذا خاطبت العالم، من فوق المنبر الدولي. وكانت تتحدث بهدوء، يصفه أحد الصحافيين بقوله:

«وإنك تلحظ التأثير الساحر الذي يغرسه حديثها في نفوس الرجال

العظماء، فإن صفاء نفسها، وهدوءها ولباقتها، هي الصفات التي جعلتهم يلتفون حولها حيثما وجدت».

بعد هذه التجربة انطلقت السيدة بانديت في العمل السياسي والدبلوماسي، مكرسة وقتها وجهدها لخدمة بلادها.

* * *

وقد تجلت تلك الخدمة في عدة مناصب تولتها، وبكثير من النجاح. فحال عودتها إلى الهند، عينت وزيرة الحكم الذاتي والصحة للمرة الثانية، ثم عضواً في المجلس التشريعي، وهذا أعطاها السلطة لتعدل في قوانين مجحفة بحق المرأة والعائلة. ففي عام ١٩٤٢ توفي زوجها، متأثراً بحياة العذاب والتشرد التي عاشها، ابان نضاله. ومع أنه خلف ثروة كبرى، إلا أن الزوجة والبنات لم يرثن فلساً، إذ ان الوارث الشرعي، حسب القانون الهندي، هو أخوه.

وكان على السيدة الكبيرة أن تعتمد على كدّها، وعلى الراتب الذي يخصص لها، لتعيل نفسها وبناتها. إلا أن ذلك لم يقلل من قدرها، أو يثبط من عزمها: ففي سنة ١٩٤٧ أنشئت أول سفارة للهند في موسكو. ولما انتقلت إلى مقر السفارة، مع مساعديها، كان البناء خالياً من الفرش، مما دفع أحد المراسلين الأجانب، لأن يطلب منها الجلوس على طريقة اليوغي، خلال ادلائها بحديث صحفي.

وبالطبع، لم تجد في ذلك أية غرابة، وهي التي تربت على التقاليد الهندية، والمحتفظة بروح نكتة تبعدها عن جمود الأجواء الدبلوماسية.

من موسكو انتقلت إلى واشنطن حيث بقيت سفيرة من سنة ١٩٤٩ حتى ١٩٥١، وكانت الرئيسة الدائمة للوفد الهندي إلى هيئة الأمم. ومن ثم عينت سفيرة في مكسيكو، لندن، ومدريد.

وفي العام ١٩٥٢ ترأست بعثة حسن جوار قامت بمهمة كبرى إلى الصين.

لكن ذروة مهماتها كانت في ١٥ أيلول سنة ١٩٥٣، حين انتخبت رئيسة الدورة الثامنة للجمعية العمومية في هيئة الأمم. وقد تم الانتخاب بواسطة الاقتراع السري، وفازت السيدة بانديت بأكثرية الأصوات، وبذلك حصلت لبلادها شرفاً تعتز به.

وتشهد محاضر الجلسات للجمعية العمومية، في حينه، على لباقة هذه السيدة، ومقدرتها، وحكمتها وسرعة بديهتها.

وكانت أول امرأة تتولى هذا المنصب، وقد كسبت ثقة كل من عرفها وعمل معها، كما نالت احتراماً كبيراً نظراً لصفاتها التي أهلتها لتلعب هذا الدور الكبير على المسرح العالمي.

* * *

أتوقف قليلاً، عند هذه الشخصية التي وصفها أحد المعلقين البريطانيين، بأنها «أدهش امرأة في عصرها» لأفصل بعض ميزاتها، وقد عرفتها عن كثب خلال زياراتها لبيروت، وكانت في فترة نضجها، وفي أوج شهرتها، لكنها لم تتخل لحظة عن تلك الروح الطيبة، والشخصية المتواضعة، على كبر وأنفة. فهي من هذه الناحية شبيهة جداً بأخيها نهرو، الذي ظل قريباً من العامة، برغم مركزه الرفيع، لا يأنف من الإصغاء حتى إلى أبسط الناس، من كانوا.

أول مرة التقينا، كانت خلال حفلة شاي في دار إحدى زعيمات الحركة النسائية في لبنان، وكانت الحاضرات من الوجوه النسائية المعروفة، إن في العمل الفكري أو الاجتماعي.

ودخلت السيدة بانديت، ترتدي الساري الهندي الأنيق، وقد توجت هامتها لمة بيضاء، وأنارت وجهها عينان حادتا الذكاء، وانبسط وجهها الرضي، باستعداد لتلقي كل التحيات.

لم يتسع الوقت للأحاديث الفردية، إذ طلب منها أن تتحدث عن خبرتها

السياسية، وهكذا تفيد الجميع، وتفتح المجال لطرح الأسئلة، وأذكر أنها تحدثت ببساطة، وقوة، معتمدة على سرعة الخاطر، واللمحات الذكية، ونعومة أنثوية تنسجم مع تهدل حرير الساري الهندي الذي ترتديه.

* * *

والمرأة التي عاشت ردحاً من عمرها، في أروقة السياسة الدولية، وفرضت شخصيتها على عصرها، تتحدث بكثير من التواضع، حين يتناول الكلام دورها الشخصي: «إني أحفظ الجميل لنقادي الذين حكموا عليّ بكثير من اللطف، فقد صغّروا أخطائي وكبروا إنجازاتي.. حيالهم، يخالجني الشعور بالتواضع...».

أما ميزات المرأة السياسية، فقد اختصرتها في عبارة رشيقة، حين قالت: «النساء يتميزن عن الرجال في المجال السياسي بأنهن قادرات، أكثر قليلاً منهم على الصبر، والاحتمال، والنفاذ إلى صميم المواقف».

ولا شك، بأن هذه من بعض صفاتها، والتي رشحتها أكثر من مرة للأمانة العامة للأمم المتحدة. أما أسباب عدم وصولها، فعديدة، وتتعلق بوضع المرأة عامة، لا بشخصيتها بالذات.

* * *

تروي السيدة بانديت أنها لم تفهم، لماذا استقبلها الأميركيون، لدى وصولها إلى نيويورك، على رأس الوفد الهندي بعبارة: «على مهلك، استريحي...».

وتضيف قائلة: «لقد حيرتني هذه العبارة، خصوصاً وأني قضيت حياتي أطلب من الناس ألا يستريحوا أو يتمهلوا..» لكنها بالطبع، فهمت معنى هذا الطلب، حين عاشت في نيويورك، حيث الناس في حركة دائمة وسباق مع اللحظات.

أما تأثير غاندي على شخصيتها، فقد تحدثت عنه مرة، إلى التلفزيون البريطاني، وذلك بعد مرور سنوات على وفاة الزعيم الهندي العظيم فقالت: «لا أدري لماذا تأثرت به إلى ذلك الحد. أظن أن إخلاصه هو الذي جذبني إلى اتباع طريقه، ثم حبه الكبير للإنسانية. هذه بعض الصفات التي تجعل الآخرين يتأثرون به، سواء وافقوا على مبادئه أم عارضوها».

وحين سئلت عن أعظم صفات غاندي أجابت دون تردد: «رحمته العظيمة. كان أشبه بالقديسين». وماذا عن غاندي الحاكمة ابنة أخيها؟..

العمة لا تتدخل، فلكل عصر رجاله ونساؤه. لكن الذين كتبوا يقارنون بين الشخصيتين، لاحظوا أن فيجايا لم تتخل عن أنوثتها، وكانت تتعامل مع الآخرين، من موقع المرأة المؤمنة بأنوثتها، بينما أنديرا لجأت أكثر من مرة، إلى أسلوب الرجل، في تعاملها السياسي. وهنا، نتساءل: إذا كانت مثل هذه المقارنة جائزة، خصوصاً وأن هناك اختلافاً كبيراً بين الموقعين اللذين منهما تحركت كل منهما.

لكن صفات أخرى تجمع بين هاتين الشخصيتين العظيمتين، ليس أقلها الميزات التي أشارت إليها السيدة بانديت حين ذكرت تميز المرأة على الرجل، في السياسة.

إن المرأة التي بدأت حياتها السياسية، من عضوية المجلس البلدي في الله أباد، وتنقلت بين مناصب وزارية، ودبلوماسية، وقفزت إلى المركز الأول في الندوة الدولية، عادت إلى الهند، لتحكم مقاطعة ماهاراشترا ثم تنتخب عضواً في البرلمان الهندي من عام ١٩٦٤ حتى ١٩٦٨، وبذلك احتلت المقعد الذي كان يشغله من قبلها أخوها نهرو.

لكنها حالياً، ترتاح من حياة مثقلة بالعمل والعطاء، وتهنأ بأمومتها، وبكونها أصبحت جدة أكثر من مرة. وتعيش قريرة العين، إذ لعبت أدوارها جميعها،

بنجاح وراحة بال. . . لكن ما يقلقها هو مصير الإنسانية ومستقبلها، فهي تخشى من وقوع حرب ثالثة، وقد ناشـدت المرأة في منـاسبات عـديدة أن تسعى: «كي تحـول دون وقوع حـرب ثـالثـة، وتعمـل عـلى نشر السـلام والحق، وبنـاء عـالم أفضل».

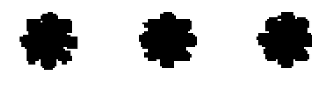
سلوى نصار

«إن المرأة لا تستخدم سوى ثلث الطاقة الفكرية التي أعطيتْ لها. . . .».





كانت حياتها أسطورة، ومن عصرنا. بل من سنوات لا تزال عالقة في البال. ذلك أن طموحها، الذي دفعها عالياً فوق سلم المجد العلمي، حدد السنوات الغنية بالثمار، فختم العمر، وصاحبته في أوج العطاء.



الدكتورة سلوى نصار. عالمة الذرة الأولى، والوحيدة، ليس في لبنان وحسب، بل وفي شرقنا العربي. كما تعد تاسع امرأة في هذا الاختصاص، في العالم.

خلال البحث عن خلفيات حياتها، والدوافع التي جعلتها تركب ذلك المركب الصعب، وتسعى، فوق أرقى الذرى العلمية في هذا العصر، لم يسعني إلا أن أسلم بأن هناك أقداراً تختار أصحابها.

وقد اختارها قدرها، من فوق تلال لبنان، من قرية جميلة وادعة في منطقة «المتن»، ثم دفعها لتقف على خط واحد، مع الأدمغة الكبيرة، التي ختمت العصر، بخاتم الاكتشافات العلمية، ومعجزات حققها الإنسان، وكاد بواسطتها، يتجاوز الخط المحدّد لوجوده فوق الأرض.

ولدت سلوى في السادس من شهر كانون الأول عام ١٩١٣ في قرية جبلية هي «الشوير».

والدها شكري نصار كان إنساناً بسيطاً، ووالدتها فكتوريا حجار المرأة الباهرة الجمال من «جزين» في جنوب لبنان، وكانت الأم متعلمة علوماً ابتدائية، وذات شخصية قوية، وأرملة لها ولد وابنة من زواج سابق... ثم ولدت سلوى، وجاءت بعدها شقيقتاها إيفون وإيلين وأخيراً مرسيل التي ظلّت بالنسبة للشقيقة الكبرى سلوى الطفلة المدللة والحبيبة.

* * *

عرفت العائلة حزن الفاجعة حين توفي الأخ وهو ما زال طالب طب في الحادية والعشرين من عمره، كما توفيت إيفون الصبية الجميلة، والعروس المطلة على ربيع الحياة.

وكانت سلوى، خلال تلك الفترة، تتابع دراستها العليا في أميركا، فلم يخبرها أهلها، وربما علمت بالنبأ قبيل عودتها.

هذا الغمر من الأحزان، دخل باكراً حياة الأسرة، وترك بصماته في عيني الطالبة المجدة سلوى، التي أخذت عن أبيها صفاء النفس، والشكل الخارجي، واستمدت الطموح العلمي من عمها المحامي جبرائيل نصار. وكان نقيب المحامين، وأشهر مختص في علم الجرائم.

تلقت سلوى علومها الابتدائية في مدرسة الضيعة، وعند المعلمة «ملكة» ثم انتقلت إلى مدرسة «عين القسيس» لصاحبها المعلم فارس بدر. وقد ظهر نبوغها في الرياضيات باكراً جداً، وتفوقت على رفاقها من الجنسين، وكان هذا ملفتاً لأستاذها المعلم فارس الذي شجع والديها كي يرسلاها إلى مدرسة «برمانا» وكانت مخصصة للذكور، وذلك لتتمكن من إنهاء سنتها الأخيرة في المنهاج الثانوي، وتصبح مؤهلة لدخول الجامعة. وهكذا تخرجت سلوى سنة ١٩٣١ متفوقة على جميع أترابها.

وبالطبع لم تتوقف عند هذا الحد، بل قصدت الكلية الوحيدة للأناث آنذاك، وكانت تعرف باسم «الجونيور كولدج» ودرست فيها سنتين، وقبلت بعد ذلك في الجامعة الأميركية، إذ احتل اسمها لائحة الشرف. وقد تخرجت من الأميركية سنة ١٩٣٥ تحمل شهادة بكالوريوس في الفيزياء وبتفوق. بل إنها احتلت المرتبة الأولى بين الذكور وكانت الطالبة الوحيدة بينهم.

ويجدر بالذكر، أن سلوى، لم تكلف أهلها نفقات دراستها الجامعية بل كانت تقوم بأعمال منوعة، لقاء منح تساعدها في متابعة الدراسة.

* * *

لكن الوضع المالي حرمها من الاستمرار في الدراسة، خصوصاً وأن لبنان كان يمر في ضائقة مالية حادة، وفرص العمل قليلة، وباب الهجرة مفتوح على مصراعيه، وهكذا وجدت الطالبة ذلك الباب مشرعاً في وجهها، إذ توفر لها مركز كي تدرس العلوم والرياضيات في كلية «بيرزيت» بفلسطين.

بفضل العمل الجديد، باتت سلوى قادرة على مساعدة أهلها واخوتها، وكانت دائمة الامتنان لأبيها، الذي ظل يحفزها على متابعة خط طموحها، دون أن يضع في طريقها الموانع والسدود.

* * *

لا شك، بأن الفترة التي قضتها سلوى في فلسطين ، بلورت شخصيتها الوطنية، فقد تعرفت على الحركة الثورية في منطلقها، وتأثرت حين شنق زعماء الثورة، وتحركت فيها نزعتها القومية، والإنسانية.

لكن إقامتها فيها لم تجاوز الثلاث سنوات. وجاءها عرض من العراق لتدرّس هناك لقاء خمسة وعشرين ديناراً في الشهر. وكان هذا راتباً ضخماً، بالنسبة لذلك الزمن.

وهكذا انتقلت إلى «الموصل» حيث سبقتها مربيات وأديبات لبنانيات أمثال

ميليا مالك خير، روز غريب وأنيسة روضة النجار.

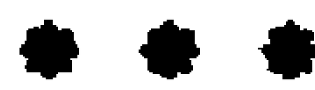
ومن العراق، تابعت سلوى اتصالاتها بالجامعة الأميركية، وحصلت على منحة من كلية «سميث» في ولاية «ماساتشوستس» وكانت من أهم الكليات النسائية في حينه، فانتقلت إليها سنة ١٩٣٩، وتخرجت منها بشهادة ماجستير في الفيزياء، ونشر بحثها في مجلات علمية مرموقة.

بعد ذلك انتقلت إلى «بركلي» في جامعة كاليفورنيا، وكانت من أهم المراكز لتعليم الفيزياء كما أن أساتذتها كانوا من النوابغ أمثال «أوبنهايمر» الذي يلقبونه «أبو الذرة» و «لورانس» و «فيرمي» وهم من حملة جائزة نوبل.

وعادت إلى كلية سميث حيث قضت سنتين في تدريس الفيزياء بينما تتابع أبحاثها، وتعد أطروحتها لنيل الدكتوراه. لكنها تأخرت في إنهاء أبحاثها بسبب نشوب الحرب، إذ بات صعباً على الجامعات الحصول على المواد الإشعاعية، كما أن العلماء تحولوا إلى مساندة الدولة في المجهود الحربي.

في هذه المرحلة الدقيقة، قررت سلوى أن تغير موضوع اختصاصها، فانتقلت من الأبحاث الذرية إلى الاشعاع الكوني، وحصلت على شهادة دكتوراه في هذا الموضوع سنة ١٩٤٥ ومن جامعة بركلي ـ كاليفورنيا.

وقد تلقت طلبات عديدة لتدرّس في الجامعات الاميركية، غير أنها رفضت تلك العروض، مفضلة العودة إلى لبنان، وإلى «الجونيور كولدج» أو «كلية بيروت الجامعية» حالياً، فأنشأت فيها، وبمؤازرة رئيسها، أول دائرة للفيزياء والعلوم. أي أنها أرست الحجر الأول في مخططها لدفع المرأة نحو دراسة العلوم والتعمق فيها.



أين يتوقف طموح الإنسان؟ أطرح هذا السؤال وأنا أتابع حكايتها من أفواه الصديقات والقريبات، من أوراق سجلت فوقها ملاحظاتها وخطبها، ومن زوايا

كتاب قيد الاعداد بين يدي رفيقة الدراسة وصديقة العمر نجلا عقراوي.

كل نجاح، في تدرجها، كان منطلقاً نحو خطوة أبعد. وفي سنة ١٩٤٩ سافرت سلوى إلى فرنسا، وقضت شهراً في معهد «بوليتكنيك» ثم في جامعة «برستول» في لندن ـ وذلك من أجل متابعة أبحاثها. ومن ثم التحقت بجامعة «ميشيغن» «آن آربور» لتدرس أحدث ما توصل إليه العلماء في موضوعها ـ الإشعاع الكوني.

* * *

لم تغب عن الوطن، إلا لفترات محددة، ومن أجل تحقيق الطموح العلمي. وها هي تعود من جديد، لتعمل أستاذة فيزياء، ثم رئيسة لهذا الفرع في الجامعة الأميركية ببيروت، وذلك من عام ١٩٦٥، حين انتخبت رئيسة لكلية بيروت الجامعية.

لكن مدة رئاستها لم تطل أكثر من سنتين، بسبب داء عضال، لم يمهلها لتتابع أغراسها الطريئة في حقول لبنان.

وفي السابع عشر من شهر شباط سنة ١٩٦٧، أغمضت العالمة عينيها بعد صراع بطولي مع الداء، وكانت لا تزال في أوج عطائها الفكري والإنساني.

* * *

هل يقاس عمر الإنسان بالسنين؟ أحياناً نضطر أن نتجاوز المقاييس الزمنية، ونقفز إلى حيث تقف الشوامخ الإنسانية، وحيث تتشظى الموهبة، ويشرق النبوغ، فيغمر الحدود، ويغطي الأرقام.

وحياة سلوى نصار كانت زاخرة بالعطاء للعلم، للوطن، ولكل من أحاط بها من أقارب وأصدقاء. هذا إلى تواضع جم، وبساطة في المظهر، وانفتاح في الفكر وحب لا حد له.

هذه المعطيات سمحت لها بأن تتخطى حدود الجامعة، فتبني على مستوى

الوطن، بل على مستوى الكون، مستمدة من اختصاصها في الاشعاع الكوني وأسرار الوجود، نظرة فلسفية وطريقة حياة.

وقد مثلت لبنان في عشرة مؤتمرات دولية للذرة، ونشرت أبحاثها أهم المجلات العالمية، وسجل اسمها في الموسوعة الحاملة أسماء علماء الذرة في العالم أمثال أستاذها «أوبنهايمر».

وفي سنة ١٩٦٧ صدرت عدة أبحاث لها في كتب تعتمدها بعض الجامعات الأميركية في تدريس الفيزياء.

* * *

لم تتزوج العالمة. بقيت مترهبة في صومعة العلم. فهل لذلك أسباب شخصية؟ الذين عرفوها أيام الصبا الأول يقولون ان سلوى كانت منطوية على ذاتها، على خفر، ولا تتحدث في الأمور العاطفية. لكنها أحبت الأطفال كثيراً. أطفال أختها «مرسيل» كما أطفال الصديقات. كانوا، بالنسبة إليها، متعة العين وفرح القلب. كذلك أحبت الناس الذين عرفتهم، ورافقوا خطاها. وأحبت الطبيعة فجعلت هوايتها غرس الأزهار والخضرة، وتسلق التلال وذرى الجبال، إلى جانب هواية الطبخ وجمع الطوابع.

وكان وقتها يتسع لأمور أخرى، غير العلم والهوايات، فـ - نشرت ما يقارب الخمسة والعشرين بحثاً علمياً، في مواضيع اختصاصها، كما شاركت في تأسيس، أو إدارة عدة جمعيات ثقافية، ومؤسسات علمية، يتجاوز عددها الاثنتي عشرة مؤسسة محلية وعالمية. وهي التي سعت إلى إنشاء مجلس للأبحاث العلمية في لبنان، وكانت من المؤسسين ومن أبرز أعضائه.

* * *

أما بالنسبة للمرأة، فقد شاءتها العالمة أنْ تقف على قدم المساواة مع الرجل في العلم كما في مجالات أخرى. وقد عبرت عن ذلك في شتى المناسبات، وفي

محاضرات وخطب لها.

وأذكر، من مقابلة أجريتها معها لدى انتخابها رئيسة لكلية بيروت الجامعية قولها: إن المرأة لا تستخدم أكثر من ثلث الطاقة الفكرية التي أعطيت لها. ومن واجب المعاهد والجامعات تدريبها وتوجيهها، حتى يتم لها استخدام جل طاقاتها، وإنماء معظم مواهبها.

وكانت بقولها هذا تعني المرأة العربية، إذ لم تأل جهداً في تشجيعها وحثها للمسير على درب العلوم الذي اعتبرته مجال تفوق للمرأة. وبالطبع كانت هي مثالاً على ذلك التفوق مثلما كانت قبلها العالمة ماري كوري ـ الحائزة على جائزة نوبل مرتين ـ ثم ابنتها ايرين كوري جوليو، والتي اقتفت خطى والديها، فانتزعت تلك الجائزة بالاشتراك مع زوجها فريديريك، وغيرهما كثيرات، من نساء تفوقن في الشرق والغرب، وحيثما سنحت الفرصة، واتيح المجال للتعلم.

من أوراق مكتوبة بخط يد سلوى نصار اقتطف هذا المقطع عن تصوراتها لوطنها:

«أتصور لبنان سنة ١٩٨٧ وفيه:

١ ـ لكل مدرسة مختبر ومكتبة.

٢ ـ متحف علمي شامل، يخصص منه جناح متسع المساحة، تام التجهيز الآلي، كمختبر مركزي.

٣ ـ معهد للأبحاث. فيه العلماء الأكفياء، ويشرف عليه المجلس الوطني للأبحاث العلمية...

إن التكهن بالأمور العلمية صعب جداً، لذا أجد نفسي مضطرة لأن أشرك الاستنتاج بالتمني والرغبات.

* * *

هل كان هذا برنامج شاءت سلوى أن تحققه؟ أم هو جواب على سؤال صحفي؟ أم أنه مقدمة لإحدى محاضراتها؟ لا يمكن أن نعطي جواباً حازماً على أي من هذه التساؤلات. إنما الأكيد أن كلماتها تبقى مؤشراً نحو الخط الذي لم تحد عنه العالمة حتى في أحلامها، وهو خط التقدم العلمي لأبناء وبنات وطنها، كما للإنسان في كل مكان.

* * *

والشعلة التي أنارتها أصابعها لا تزال مستمرة، فشعلة العلم لا تنطفىء. كذلك يستمر مع اسمها، دفق العطاء الذي يساعد على تحقيق الأحلام.

فقد كتبت سلوى في وصيتها تطلب أن توزع ثروتها الصغيرة على مساعدة المشاريع العلمية والتربوية، وقسمتها منحاً لكل من:

* جمعية الإغاثة في الشوير.
* معهد اللاهوت في دير البلمند.
* إنشاء مجلس للدراسات اللبنانية، وسمت أعضاءه.
* منحة لطالبة في التربية.
* تعويضاتها من الكلية تنفق في إصلاح مداخل تلك الكلية.

* * *

وقد أنشئت، بعد وفاتها، مؤسسة سلوى نصار للدراسات اللبنانية فتابعت المحاضرات والدراسات، ونشرت ثلاثة كتب الأول عن مصادر الثقافة في لبنان، صدر سنة ١٩٦٩. الثاني عن لبنان ـ ملتقى الحضارات (١٩٧٠) والثالث عن دور لبنان في العالم العربي (١٩٧٣).

* * *

واقتطف بعض شهاداتٍ، من معاصريها، والذين رافقوها على درب العلم. فمن كلمة ميخائيل نعيمه:

«. . كانت تحمل عقلاً كبيراً، وقلباً كبيراً، فما لبثت أن تفتحت عالمة لها شأنها في علم الفيزياء وعلم الذرة وذلك نادر بين النساء، وعلى الأخص في شرقنا العربي. . .»

ومن كلمة شارل مالك:

«أحبت الحقيقة المادية وطلبتها بالعقل إلى أقصى الأرض. أحبت زملاءها العلماء فناقشتهم في المجالس والمؤتمرات نداً إلى ند. أحبت الشباب فبذلت في تعليمهم وتثقيفهم ما وسع عقلها من علم ونور. أحبت لبنان إيماناً منها بأن الحرية والمحبة والإنسان هي كل شيء. أحبت الله ووثقت به لآخر لحظة من حياتها، ولم تقنط من رحمته فأسلمت له نفسها بطمأنينة وفرح. . .»

ومن خالدة سعيد: «. . . إنها من الأشخاص الأفذاذ الذين يصنعون أسطورتهم في الحياة. ولقد أصبحت أسطورة، في وعينا بخاصة نحن النساء اللبنانيات، لأنها كانت رمزاً متعدد الوجوه لما نرجوه ونتطلع إليه. . .»

ومن رفيقة الدراسة وصديقة العمر نجلا عقراوي:

«. . كانت الرياضية اللامعة تلهو بحل المشاكل العويصة بسهولة تدفعنا للتحلق حولها في أوقات الفراغ طلباً للاستفادة والاستنارة. وكانت الممثلة البارعة على مسرح الكلية. . . وأشارت إليها الصحف يومذاك وتمنت لها مستقبلاً باهراً في هذا الفن الرفيع. . وكانت، على قلة كلامها، ذات حسّ بالفكاهة مرهف. . .»

* * *

أما روز غريب فتقول فيها: «. . سلوى نصار لها بساطة بلدها. هدوء غابات الصنوبر وصلابة الصخور. أفكارها الرفيعة مستوحاة من شموخ تلال المتن، أرض منبتها. حياتها كانت قصيرة، إنما غنية بالعطاء، إذ استغلت كل دقيقة من دقائقها من أجل خدمة الإنسان. . .»

وأختم بشهادة أختها مرسيل فارس: «كانت العطاء والمحبة. عاشت للآخرين أكثر مما عاشت لنفسها. ولعلمها أعطت، لمحبيها، للأجيال الطالعة، ولوطنها أعطت، من حشاشة القلب ونور العقل.

أما بالنسبة إليّ، فإن كل مالي، هو من فيض محبتها».

وقُلّدت الدكتورة نصار:

* وسام الاستحقاق الذهبي من وزارة التربية.
* وسام اللبنانيات الجامعيات.
* وسام الأرز الذهبي.

أم كلثوم

«سمعت صوت الشيخ أبو العلا وهزّني... وكنت أشعر بأنه يغني لي وحدي...».



كتبت مجلة «لايف»الأميركية سنة ١٩٦٢ مقالاً جاء فيه: «في الساعة العاشرة ليلة كل خميس، أول يوم من الشهر، يحدث أمر غريب في الشرق الأوسط: يهدأ الضجيج في شوارع القاهرة فجأة. وفي «الدار البيضاء» التي تبعد مسافة ألفين وخمسمائة ميل إلى الغرب، يكف الشيوخ عن لعب الطاولة في المقاهي. وفي بغداد، والتي تبعد ثمانمائة ميل الى الشرق، يحدث الشيء نفسه: هناك حدث يشغل الجميع. وبين هذين الحدثين الجغرافيين، على طول الصحراء وعرضها، يأوي البدو إلى خيامهم، وينتظرون.. كلهم ينتظرون برنامجاً معيناً يذيعه راديو القاهرة. مدة البرنامج خمس ساعات، لثماني مرات في السنة. ونجمته مطربة اسمها «أم كلثوم».

* * *

لم أجد أفضل من هذا الوصف الواضح، للمناخ الذي لف العصر، وسيطر على أجواء الفن والطرب، مدة ستين سنة.

أم كلثوم التي أُطلقت عليها شتى الألقاب الطنانة بدت في عيني صحافي غربي «هرماً» عصرياً، يضاهي بعظمته، أهرام الحضارة المصرية الغابرة.

وكانت «هرماً» حياً. بل ينفخ الحياة في نفوس الملايين، ينعشهم،

ويـوقـظهم، في تلك الليلة المنتـظرة، ليشعـروا، بـأن هنـاك مـا يجمـع بينهم، يوحدهم، بـالفرح، والفن: إنـه الصوت الجميـل، والصوت المعجـزة. وخلف الصوت، تقف المرأة، بكل الجلال والعظمة، وبكل الجمال الخاص بها، والذي لم يتردد أحد الكتّاب من تشبيهه بجمال «نفرتيتي»، الفرعونة الرائعة الحسن.

* * *

وقصة المرأة تُحكى. بل إنها مستكملة كل عناصر الحكايـة، دون أن ينقصها الجانب الأسطوري، والذي تفتّح في كل نقلة قدم، منـذ ولادتها، طفلة عـادية، في إحدى قرى الريف المصري.

وليس هناك تاريخ واحد يمكن أن نعتمـده نؤرخ به سـاعة الـولادة: فبعض الذين كتبوا عنها جعلوا التاريـخ العام ١٩٠٩ أو ١٩٠٤. وفي جـواز سفرهـا أنه ١٩٠٠. وفي «المـوسوعـة العربيـة الميسرة» هـو العشرون من كـانون الأول سنـة ١٨٩٨ وربما هذا الأرجح.

ولدت فاطمة البلتاجي في طماي الزهايره مركز السمبلاوين. أبوها الشيخ إبـراهيم كان إمـام المسجد. وأمهـا فاطمـة الباز. وقـد سموهـا أم كلثـوم تيمنـاً بإحدى كريمات النبي. وهي الصغرى بين أحـد عشر ولداً، بقي منهم على قيد الحياة أختها الكبرى وأخوها.

وقد ألحقها أبـوها، مـع أخيها، بكتـاب الشيخ عبـد العزيـز حسن، حيث حفظت القرآن الكريم وجودته. وكان أبوها يساعدها في إتقان التجويد، وتـرتيل المدائح النبوية. فتصغي إليه جيداً، ثم تـردد ما سمعتـه، في خلوتها، إذ لم تكن تجرؤ في البدء، أن تُسمع صوتها لأبيها.

وفي يوم سمع الأب، بالصدفة، صوتاً رخيماً، يرتل حسب الأصول. وذهل حين عرف أن صاحبة الصوت هي ابنته فاطمة. وأدرك للتـو بأنـه أمام كنـز فني عـظيم. فقد كـان بحاجـة إلى ذلك الصـوت، يدعم صـوت فتـاه، في الأفـراح والمآتم، المناسبات التي يطلب فيها الترتيل، والتجويد.

ولكن العقبة في أن صاحبة الصوت أنثى، ولم يسبق أن ظهرت فتاة في تلك المناسبات. وهنا لجأ إلى حيلة مبتكرة، فخلع على ابنته، والتي لم تكن تتجاوز التاسعة من عمرها، رداء الفتيان، وألبسها الكوفية والعقال، وهكذا، لم يعد هناك ما يعيق فاطمة عن مرافقة أخيها، وبجرأة، لاحياء الحفلات. وظلت المطربة الكبيرة، تذكر من تلك المرحلة، أموراً طريفة، منها: أن أول أجر تقاضته كان طبق مهلبية.. ثم تدرجت إلى الحصول على عشرة قروش، كانت تسند زاوية من حياة العائلة المحدودة المورد.

وتذكر، أيضاً، من تلك المرحلة، ثلاثة أحداث غيرت مجرى حياتها، وهي: إصابتها بالرمد. وقد باعت أمها إسوارها الذهبي وأرسلتها لتتعالج في القاهرة، ولولا ذلك لفقدت بصرها.

الحادثة الثانية كانت تنتظرها على الطريق إلى الكتّاب. وكانت تمر ببيت العمدة، وفيه «فونوغراف» قديم، تدور عليه أسطوانات مكسرة«ولولا هذا اللقاء لما سمعت الموسيقى، ولما تعلمت القراءة ولما فهمت الأغاني التي أغنيها».

الحدث الثالث كان ثورة أمها حين أخذت إحدى سيدات القرية أخاها، ودقت له على يده بعض الوشم. ولولا غضب الأم، لشوهوا وجه أم كلثوم.

وتقول عن الأسطوانات: «لقد سمعت صوت الشيخ أبو العلا وهزني. وكنت أشعر بأنه يغني لي وحدي. وبعدما يصمت، كان الصوت يستمر يغني في أذني».

* * *

الإنسان، يواجه قدره. وترسل العناية الإلهية، أشخاصاً وأحداثاً، ينعطفون به، يرفعونه، ويدفعونه، ويغذون بذرة الموهبة في ذاته، ويتعهدونها، لتعطي أحلى الثمار.

وهذا بالضبط ما حدث للفتاة الصغيرة. فقد بدأ الصوت يوسع مكانه،

ويبحث له عن مدى أرحب للإنطلاق. وانتقل صيت «الولد» الصغير إلى القرى المجاورة. وكان الأب ينتقل مع ولديه، ويلبي الدعوات لتقديم التواشيح الدينية.

وفي يوم، التقى عند محطة السمبلاوين، الشيخ أبو العلا محمد وتحدث إليه. وبالنسبة للطفلة فاطمة، كان ذاك لقاء قدرياً، إذ لم يلبث الشيخ أن أصبح أستاذها. وهو أول من تعهد صوتها. وكان سيد ملحني القصائد في حينه. ووضع ألحاناً لقصائدها الأولى، وغنت له «وحقك أنت المنى» و «أفديه ان حفظ الهوى» و «أمانا أيها القمر المطل» وقد غنتها بلا إيقاع ولا موسيقى.

واجتازت الاختبار، واضعة علامة جديدة على مفترق طرق الغناء العربي.

لم تنتقل أم كلثوم إلى القاهرة دفعة واحدة، فبقيتْ فترة تتردد بين قريتها والمدينة الكبيرة. وفي سنة ١٩٢٠ أحيت حفلتها الأولى في القاهرة بمساعدة زكريا أحمد، وكان متعهد صوتها في حينه.

بعد ذلك التقت الشاعر أحمد رامي وكان راجعاً من باريس حيث درس اللغة الفارسية. غنت له «الصب تفضحه عيونه» من ألحان أبو العلا. وفي تلك السنة أيضاً التقت الفنان الدكتور أحمد النجريدي الذي لحن لها ثلاث عشرة أغنية من شعره وشعر أحمد رامي واللغوي علي الجارم.

وقد لقنها النجريدي، كذلك، الضرب على العود، ومنه تدرجت إلى عبقري هذه الآلة محمد القصبجي، وهو أستاذ محمد عبد الوهاب. وقد استفادت التلميذة النابهة من القصبجي الذي أطلعها على معلوماته الوافرة في التراث الفني، ولحن لها أغنيات خالدة، لكن طريقها لم تكن سهلة، ففي الساحة فنانات راسخات الجذور، أبرزهن منيرة المهدية. وكان من الطبيعي إذن، أن يدور صراع، وقفت له أم كلثوم بجرأة وثقة. سنة ١٩٢٨ غنت للقصبجي «إن كنت أسامح نفسي...» وسجلتها على أسطوانة. وربما كانت

هذه أول أغنية تسجل لها، وهناك من يقول: بل كانت الأولى المسجلة «مالي فتنت بلحظك». وهذا الخلاف ليس مهماً، ما دامت الفنانة قد تجاوزت بداياتها، وأصبحت على طريق النجاح.

* * *

الخطوة التالية كانت ظهورها على المسارح، يرافقها موسيقيون لمعت أسماؤهم في سماء الفن مرحلة زمنية طويلة، ومنهم: القصبجي، على العود، محمد العقاد، على القانون، وسامي الشوا على الكمان.

وقد حاولت أم كلثوم أن تلحن أغنياتها بنفسها. واكتفت بمحاولتين، ثم تخلت عن التلحين، لأنها، كما صرحت في إحدى المقابلات الصحفية، كانت تؤمن بالتخصص، وشعرت بأن قوتها تكمن في صوتها الفريد المميز، ثم في مقدرتها الرائعة على الأداء. وظل القصبجي يلحن لها من سنة ١٩٢٤ حتى ١٩٤٨. كما استمر في العزف على العود مع فرقتها حتى وفاته سنة ١٩٦٦. وكانت تحفظ له الكثير من الوفاء والتقدير. وبقي كرسيه شاغراً على المسرح لمدة أربع سنوات.

ولم يستأثر وحده بالتلحين لها، إذ كان هناك فنانون غيره منهم، داود حسني، لحن لها إحدى عشرة أغنية. ثم تعرفت على الملحن رياض السنباطي وغنت له رائعته «النوم يداعب عيون حبيبي» وذلك عام ١٩٣٦. ويعتبر الثلاثة: زكريا أحمد، والقصبجي، والسنباطي، رفاق الطريق، بالنسبة للفنانة الكبيرة، لا بل رفاق العمر.

* * *

ابتداء من سنة ١٩٣٥ اهتمت أم كلثوم بالسينما. ومثلت في ستة أفلام أولها «وداد» ثم «نشيد الأمل» «دنانير» «عايدة» «سلامة» و «فاطمة» وكان دورها غنائياً.

لكنها عزفت عن التمثيل بعدما اقتنعت بأن دورها الأهم هو في الغناء. وكانت قد بدأت منذ مطلع الأربعينات حفلاتها الشهيرة على مسرح الازبكية. وكانت تغني دون مكبرات صوت، وتقدم ثلاث وصلات. وبعد عام ١٩٦٦ نقلت حفلاتها إلى قاعة سينما قصر النيل، وصارت تستخدم مكبرات الصوت. بعد عام ١٩٦٧ اقتصرت حفلاتها على وصلتين فقط، وذلك نزولاً عند نصيحة الأطباء.

* * *

يجدر بنا أن نتوقف لحظات لنتساءل: كيف وصلت الفتاة القروية، المتخفية في ثياب فتى، كيف وصلت إلى قمة المجد الفني؟ . .

ترد هي على السؤال في إحدى المقابلات فتقول: «بعون الله، ثم الجد والتعب والعرق».

ووصلت بفضل شخصيتها القوية، المتحدية، المصرة على النضال، والتغلب على الصعاب، وبفضل ذكائها، وسرعة خاطرها. يصفها صحافي لبناني الأصل، في أيامها الأولى فيقول: «محتشمة في ملابسها. . . في وجهها من معاني التفكير والألم، أكثر مما فيه من معاني الابتهاج. وفي وجهها جمال لا أستطيع وصفه، أهو عربي، أم يوناني؟ أم مصري عصري أو فرعوني؟. . . هي روح ثائرة، إنما ثورتها داخلية، لا تعدو قلبها الخفاق».

* * *

وقلبها ظل مغلقاً بخاتم الصمت والغموض. لم تبحث مرة، أو تسمح لأحدهم أن يبحث معها في خصوصياتها، أو شؤون القلب. إنما الوقائع تشير إلى أنه كان هناك زواج، في مطلع حياتها، أحيطت تفاصيله بالسرية والكتمان. فقد تزوجت سنة ١٩٤٨ من الملحن المعروف محمود الشريف. وكل ما قاله محمود في هذا الزواج: إنه كان ينوي أن يقيم مسرحاً غنائياً دائماً، هو يلحن، وهي تغني. . . والمعروف أنه لم يضع لها أي لحن طوال حياتها.

وتزوجت سنة ١٩٥٥ الـدكتور حسن الحفنـاوي، ووضعت عليه شـرطين: الشرط الأول، ألا يحضر حفلاتها الغنائية. والشرط الثاني ألا يطلب منهـا نقوداً، حتى لا يظن أنه تزوجها من أجـل ثروتهـا. ويروى بـأنه طلب منهـا مرة، بعض المـال، حين شـاء أن يبني مستشفى، فاعتبـرت ذلك إخـلالاً بالشـرط. وكـانت علاقتهما طيبة، يسودها التفاهم والاحترام المتبادل.

* * *

كان لأم كلثوم أسلوبها في اختيار قصائد أغنياتها. وأبرز الشعراء الذين غنت لهم أحمد رامي الذي رافقها حتى النهاية، كذلك غنت من شعر حـافظ إبراهيم، وعمر الخيام، ومن نزار قباني وجورج جرداق، وصلاح جاهين والسوداني الهادي آدم وسواهم.

وظلت لهـا طريقتهـا، تختار من القصيـدة الأبيات التي تـروقها، ثم تقـرأها وتعيـد. وتحاول أن تقنـع الشاعـر (إذا كان عـلى قيد الحيـاة) أن يبـدل كلمـة لا تعجبها. فهي لا تتلقى الشعر والنغم، بل تتفاعل معهما، وتعيشهما وتدخلهما إلى ذاتها، ليصبحا جزءاً من كيانها.

وكـان يهمها الشعـر، مبنى ومعنى. ولم يعرف عنهـا، حتى في بدايـاتها، انها غنت «الطقاطيق» الخفيفـة. فالغنـاء حالـة وجدانيـة راقية، تـدخلها بكـل العدة والعتاد. وبجدية واحترام يقربان من الخشـوع. ولم تتوصـل إلى هذا المـوقف من فنهـا بسهولـة، فقد شعـرت باكـراً جداً، بـأن دراسـة الكتـاب لا تكفيهـا لبلوغ القمة، فاستعانت لذلك، بالمطالعة، كما درست اللغتين الإنكليـزية والفـرنسية. إلى جـانب التـركيـز عـلى الثقـافـة الفنيـــة، وقـد استفــادت من السلف، ومن معاصريها، واجتذبت أعظم المواهب لمـرافقتها، والاحـاطة بهـا. وإذا كان بعض الناس، يعتبرون النجاح حظاً، فإنه ليس كذلك بالنسبة لأم كلثـوم. ربما رافقهـا الحظ عند المنعطفات، وكانت هي ذكية ، واعية، متفتحـة على كـل المعطيـات، تستفيد منها وتوظفها في التيار الذي يدفع فنها، وبالتالي يدفعهـا على سلم الـرقي والمجد.

ولا نستطيع، ونحن نسجل سيرتها، ونلملم بعض أطراف الحكاية، إلا أن نتوقف عند شخصية هذه الفنانة، وكانت شخصية مميزة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وبفضل قوة شخصيتها، استطاعت أن تفرض نفسها لا على الأغنية والفن، وحسب، بل على مرحلة زمنية دامت ستين عاماً. وهي المصرية الجذور، ظلت مخلصة لأصلها وجذورها، مع انفتاح على التراث العربي، ثم انتشار في مساحة البلاد العربية، جغرافية وبشراً. والذين عرفوها عن كثب، تحدثوا عن ذكائها الفطري، وسرعة خاطرها، ونباهتها. وبعدها عن الابتذال. واستقلالها في الرأي، بل وفرض سيادتها، واحترامها، على كل من أحاط بها من شعراء، وفنانين، ومعجبين. كما فرضت نفسها على الجمهور. تقوده إلى عوالم الفرح، والتجاوز للواقع، وربما للحس. فهي، حين تصعد المسرح، وتطل على الجمهور، بأناقتها الفريدة (كانت تصمم ثيابها بنفسها ولا تتبع الموضة) وتحمل بين يديها منديل الحرير، الذي يمتص القلق، وما يعصف في نفسها من خوف. أجل، كانت أم كلثوم، القوية، الواثقة من نفسها وإمكاناتها، كانت تصاب برهبة المسرح، فتقف لحظات خلف الستارة، قلبها يخفق، وهي تردد آية الكرسي، إلى أن يهدأ الخفقان، فتأمر بفتح الستارة. ويبدأ الاحتفال.

كذلك، عرفت في جلساتها الخاصة، بروح النكتة، ميزة الشعب المصري على وجه العموم. وقد كتب الأستاذ سعيد فريحة في ذلك يقول: «لو شئنا أن نجمع النكات التي أطلقتها أم كلثوم في حياتها، لاحتجنا إلى مجلدات». أما إخلاصها فيتحدث عنه عبد الوهاب فيقول: «من مظاهر إخلاصها ما يراه المستمع في الصالة، انه لا يرى مطربة تغني. لكنه يرى فنانة تتعب. فنانة تعرق، فنانة تعطي كل ما عندها للمستمع، دون أن تضن عليه. إنها تعطيه دموعها وأنفاسها وليس صوتها وحده»..

ومن علامات وفائها للأصدقاء والمتعاملين معها قصتها مع أحمد الجاك صاحب مقهى كوكب «الشرق». فقد كان أول من دعاها إلى إحياء حفلة في لبنان سنة ١٩٣٤. وكانت مسموعة على أسطوانات. وأقامت الحفلة في «التياترو

الكبير» وضجت بها الدنيا. حتى باتت أشبه بأسطورة تمشي على الأرض. وظلت تأتي إلى لبنان، بدعوة من ذلك الصديق. فتحيي حفلاتها في الأونيسكو، في الريفولي، في «بيسين عاليه» إلى أن نشأت فرقة مهرجانات بعلبك، فصارت تلبي دعواتها.

ومثل وفائها لآل الجاك كان وفاؤها للقصبجي، الذي أبقت مقعده فارغاً على المسرح، إثر وفاته، ولمدة أربع سنوات.

* * *

هذه الإنسانة الكبيرة، لم تبلغ الذروة دون مشقة. وقد بدأنا نرصد طريق صعودها، في مواجهة شتى الصراعات. وحين وقفت فوق القمة، واجهتها مشقات أخرى، هي غير منافسة الفنانين: فالفنانة التي غنت لكل العرب، في بلادهم، وفوق مسارح عواصمهم، كما عاشت في وجدانهم، كان لا بد لها من أن تتأثر بتحولات وأحداث سياسية. وقد حاولت، طوال حياتها، ألا تقحم السياسة في فنها، ومع ذلك لم تسلم من بعض رياحها. ففي بدايات ثورة ١٩٥٢ منعت أغانيها. وكان قائد الجناح وجيه أباظة. وجاء جوابها على ذلك: «لم أجلس على عرش الغناء بمرسوم ملكي، حتى أخلع عنه بقرار مجلس الثورة». وانتصر لها عبد الناصر. إلا أنها رفضت العودة إلى نقابة الموسيقيين وكانت رئيستها. . وظلت تغني بناء على رغبة الجمهور. وتقدم الوصلة الثالثة، على مزاجها. والمعروف أن الرئيس عبد الناصر كرّمها، وبتشجيع منه، تم اللقاء الفني الكبير بينها وبين محمد عبد الوهاب سنة ١٩٦٣ في أغنية «أنت عمري» التي لاقت نجاحاً عظيماً، وحين أذيعت من راديو القاهرة، توقف السير وأغلقت المخازن أبوابها.

كان للفنانة الكبيرة مواقف من الأحداث والأشخاص، لا بد من تسجيلها، كي تكتمل الصورة، ونحيط، بأوسع مساحة ممكنة من شخصيتها الفريدة: موقفها الأول من والديها. كان اعترافاً، مدى الحياة، بفضلها عليها. وقد

حصلا على المكافأة حين أبصرا نجاحها الباهر.

موقفها الآخر من نفسها، إذ كانت مخلصة لها، ولموهبتها، لا ترتضي الغش أو التزييف، وإذا اكتشفت بأن عملاً معيناً، يخرج بها عن خط مسارها الأساسي، تتخلى عنه، مثلما فعلت بالسينما وبالتلحين. موقفها من الأصدقاء، ومن الفنانين. وكان يقوم على صدق السريرة، والإقرار بالفضل والموهبة.

موقفها من المرض. وكانت تكابر وتحاول أن تتغلب على كل نقاط الضعف حتى آخر يوم من حياتها. وهنا لا بأس أن نذكر بأنها شعرت بضعف في الغدة الدرقية، للمرة الأولى سنة ١٩٤٥. وبدأ هذا المرض يؤثر على أعصابها وبصرها، فنصحها الأطباء بالمعالجة في مستشفى للبحرية الأميركية.

وأحيطت باهتمام خاص، تقديراً لمكانتها الفنية، وسافرت سنة ١٩٥٣، واستمر العلاج ستة أشهر، شفيت بعدها شفاءً تاماً. وظلت تغني في أحسن حالة صحية حتى أواخر الستينات حين بدأت تتعب اثر الغناء. وتخرج من المسرح مبللة بالعرق. وحاول صديقها سعيد فريحة أن يثنيها عن صعود المسرح. وناقشها ساعة أدرك في نهايتها بأنه فشل، وهي مصممة على الاستمرار حتى النهاية. وحين لفت نظرها إلى مثل إسباني يقول: «إن المصارع الذكي هو الذي يغادر الحلبة قبل أن ينطحه الثور»، كان جوابها: «ومين قالك أنا مش عاوزة ينطحني الثور؟...»

ثم تأتي مواقفها الوطنية. وهذه تسجل لها بأحرف من ذهب. فالفنانة التي رفضت أن تحد إثر وفاة أخيها، واستمرت في تقديم حفلاتها، أوقفت تلك الحفلات حين توفي سعد زغلول. وفي سنة ١٩٦٧ وإثر النكسة تأثرت إلى درجة قررت أن تعتزل الغناء لكنها تراجعت عن قرارها حين توسط سياسيون، كي تقوم بجولة، وتدعم شعبها بصوتها. وهكذا كان. وجمعت من جولتها في البلدان العربية ما يزيد على مليوني جنيه استرليني قدمتها للمجهود الحربي.

وانقطعت عن الغناء عندما علمت بوفاة الرئيس جمال عبدالناصر. وكانت

مدعوة لتغني في الاتحاد السوفياتي. وعادت إلى مصر حزينة ولم تغن إلا بعد مرور شهر على وفاة الرئيس، وقدمت أغنية «رسالة إلى القائد» من شعر نزار قباني.

* * *

ارتبط اسم أم كلثوم بأسماء كبار رجال السياسة، الذين كانوا يؤمون ندوتها، منهم أحمد حسنين باشا وكان رئيس الديوان الملكي. حتى كانت هناك إشاعة زواج.

واستمر تقدير الرؤساء من عبد الناصر إلى أنور السادات عدا الشخصيات المعجبة بفنها من البلدان العربية، وكانت تحجز لهم المقعد الأول في حفلاتها، وتعرفهم بأسمائهم.

ولها مواقف إنسانية من أفراد عائلتها، إذ ساهمت في تعليم أولادهم، ومساعدتهم مادياً. كذلك ساعدت عدداً كبيراً من أبناء قريتها، وتعهدت أولاد زوجها حين لم ترزق هي بأولاد، لا من زواجها الأول ولا من الثاني.

* * *

نعود إلى صوتها المميز، وقد كتبت فيه الصحف الأجنبية، كما العربية. فوصفته مجلة «نيوزويك» بقولها: «إن عظمة أم كلثوم تكمن في رخامة صوتها القوي العميق وقدرتها على أن تغني بسهولة على جميع طبقات السلم الموسيقي من أعلى طبقة إلى أدنى طبقة».

وصحف أخرى قارنت بينها وبين نجوم الغرب المشهورين. وحين غنت في أولمبيا باريس كتب أحد النقاد يقول: «إجمع فرانك سيناترا، ديناشور، دوريس داي، بنغ كروسبي وأديث بياف في حزمة واحدة، فتحصل على أم كلثوم».

أما الأدباء والأصدقاء، فلم يصمتوا حيال صوتها المعجزة: سعيد فريحة يقول: «صوتك آية الله فينا. يهدهدنا فنغفو على حلم جميل، ويهزنا فنصحو على نشيد الله أكبر».

وكتب الشاعر جورج جرداق: «أنت من صوتها في سماء تجمع كل الأصوات» واعتبرتها صحيفة أجنبية «سلاح عبد الناصر القوي» وقال الشاعر سعيد عقل: «بموت أم كلثوم، قلّ الحب في الأرض. . . على ذلك الصوت، ذي النبرة الفضية، فتحنا أعيننا قبل الآذان، وتعلمنا الحياة».

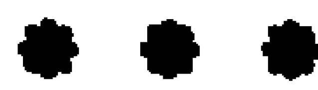
ومن عبدالوهاب: «أم كلثوم ملامح عصر، في طريقة الغناء والسلوك والشخصية والخلق، والمصرية. قدمت فناً بلا ابتذال. ورفعت أخلاقيات المهنة».

وأقوال أخرى كثيرة، لا يتسع مجالها في حكاية مختصرة، شئناها لرسم بعض ملامح من حياتها.

والفنانة التي توفيت في ٤ شباط سنة ١٩٧٥ تركت بعدها ثروة هائلة، من التراث الغنائي، إلى جانب ثروتها المالية، التي تقاسمها أخوها، وأختها وأولادهما، وزوجها. وتقدر بين ستة إلى ثمانية ملايين جنيه.

أما تراثها الغنائي فهو بحر فياض. ومجموع تسجيلات أغنياتها يبلغ ٦٣٤ ساعة أي ٢٦ يوماً وعشر ساعات. وهذا يعني أربعمائة أغنية يستغرق بثها بين دقيقتين وساعتين. كذلك وضعت قبل وفاتها، أي عام ١٩٧٣ حجر الأساس لدار أم كلثوم لأعمال الخير. ولم تحرم قريتها من خيراتها، ومساعداتها. وكانت تفعل ذلك بصمت، ودون إعلان أو ضجيج.

بقي أن نذكر، أن هذه السيدة التي تربعت على عرش الغناء العربي طوال ستين سنة، والتي يندر أن تتكرر مرتين، كانت مؤمنة، في القول والفعل، وأدت مناسك العمرة مرتين. وذلك الإيمان يعود إلى التربية الدينية التي أمتزجت لديها بالأداء الفني، ومنذ المرحلة الأولى من حياتها.



والنجاح الذي حققته، لم يكن في السر، بل دوّت به أصداء الكون.

تنقلتْ فوق المسارح الشهيرة. ظهرت على أغلفة المجلات الكبرى. اختارتها مجلة «ماري كلير» ذات مرة واحدة من خمسين امرأة فرضن شهرتهن على العصر. صورتها طبعت على ميدالية ذهبية تاريخها ١٥ أيار سنة ١٩٧١. ثم قائمة طويلة من الألقاب والجوائز والأوسمة. إنما وسامها الأول والأهم كان نجاحها الفني.

ولا أجد خيراً من وصف للأستاذ فريحة، وقد عرفها عن كثب، ورافق تدرجها وصعودها، فمن قوله: «إنها تنتقل من نغم إلى نغم. وترتجل أنغاماً فيها اعجاز... كان وراء صوتها العظيم ذكاء عظيم، وكفاءة عظيمة، وخبرة فنية، بلغت درجة مذهلة، إذ باتت مرجعاً موسيقياً... فهي تتجاوز اللحن، وتذهب في غيبوبة وهي تغني، وتتجاوز اللحن...»

تلك هي المرأة التي فرشت ظلها الفني، على بلاد العرب، طوال ستين عاماً. والمرأة التي يصعب أن تتكرر مرتين، إذ كانت فريدة زمانها، ونسيجاً خاصاً، سداه ولحمته، الأصالة والذكاء.

أنديرا غاندي

«إن كل قطرة من دمي سوف تجري لتنشط وتقوي بلدي».



ترتفع قامتها بشموخ، ويهبط ظلها، فيكاد يغطي القارة الهندية.

إمرأة من هذا العصر، تجبر العالم على إعادة النظر في معطيات المرأة.

من قلب التاريخ تطلع... من أعماق حضارة يزيد عمرها على خمسة آلاف سنة.

وتأتينا، حاملة ذلك الإرث المهيب، متطلعة إلى آفاق من المستقبل، بعيدة، بل تكاد تكون مستحيلة.

تلف جسمها بالساري، اللباس التقليدي لنساء بلادها، فتبدو فيه فريدة التأنق والعظمة.

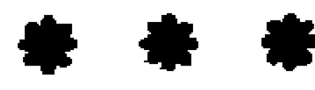
إبنة جواهر لال نهرو هي، إبنة الهند، ماضيها وحاضرها... فوق كتفيها الشامخين، تحمل هموم سبعمائة مليون نسمة، يشكلون الفسيفساء الهندية التي تتألف من ديانات متعددة أهمها الهندوكية، والبوذية، والإسلام، كما تحمل آلام ستمائة مليون جائع من شعبها، وتنفق الساعات الطويلة، وتجتاز المسافات الجغرافية والسياسية، كي تؤمّن لهم الشبع، مع الكرامة.

* * *

أنـديرا غـاندي ـ أو أنـديرا يـاريـا دارشيني . . . أو «الفتـاة التي يحلو النـظر إليها».

هذا ما يعنيه الاسم الذي أطلقتـه عليها عـائلة نهرو المتجذرة في أرض «الله أباد» من مقاطعة كشمير.

وأنـديرا ولـدت في «بيت السعـادة» في ١٩ تشـرين الثـاني من سنـة ١٩١٧ وكـانت جدتهـا الشـديـدة التحفظ، تتمنى أن يكـون المـولـود ذكـراً، لكن الجـد اعترض بشدة: «سوف تكون أفضل من ألف صبي . . . » وكان هذا الجد أشهـر مواطن في تلك المنطقة كما أن عـائلة نهرو تمد جـذورها في قلب التـربة الهنـدية، وتتغذى بالتقاليد الروحية النابعة من الأعماق، أو المتناثرة في الأجواء.



وإن المرحلة التي استقبلت المولودة الجديدة، هي من أهم المراحـل التاريخيـة في الهند. فقد أعلن المهاتما غاندي العصيان المدني، وثورته السلميـة ضد أعـظم دول الانتداب، بريطانيا. وغاندي صديق نهرو، ورفيقه في النضال.

والطفلة الوحيدة المدللة تعيش وسط هذه الأجواء، وتلتقط حـواسها كـل ما يرشح من كلام ومسلك، وتحتفظ به في قلبها.

و«بيت السعادة» الذي لآل نهرو اعتاد الحياة الأرستقراطية. لكن التحولات السياسية والمبادىء التي وضعها الزعيم المتقشف ألزمت العائلة بتبديل أحوالها، وتغيير نسق عيشها.

ومـع أن الـطفلة أنـديـرا تـابعت دراستهـا في المعهــد الإنكليـزي، إلا أنها خضعت لقـرار أبيها، حـين فرض عـلى العائلة نمـطاً من التقشف جعل أفـرادها يتخلون عن كل ما هو أجنبي الصنعة: «حتى دميتي أحرقتها. . وبكيت».

هذا ما تذكره أنـديرا في كتـاب مذكـراتها «حقيقتي» وتتـابع: «كـانت حفلة حماسية، أحرقنا فيها ثيابنا ومقتنياتنا الأجنبية». وبعد ذلك، صارت ترتـدي ثوبـاً

من الحياكة اليدوية الخشنة، يسبب لها الضيق، والحرج بين زميلات المدرسة. إلا أنه ربى في نفسها نزعة تقشفية واباء وطنياً.

* * *

قامت قيامة العائلة ضد نهرو وثورته، لكن زوجته كامالا ساندته. وقفت إلى جانبه، بل خرجت في التظاهرات والمسيرات الوطنية، وهي المعتلّة الصحة، بسبب داء السل الذي لازمها، وقد سقطت خلال إحدى المسيرات، فاندفع أحد الشباب يسندها، ويساعدها على النهوض. ولم يكن ذلك الشاب سوى فيروز غاندي، الطالب الفقير، والذي قدّر لأنديرا فيما بعد أن تعمق معرفتها به، ثم تعلن رغبتها في الزواج منه، برغم الرفض الذي واجهته من الزعيم الكبير المهاتما غاندي، إذ رأى في إقدام الفتاة على تلك الزيجة خرقاً للتقاليد التي سارت عليها العائلة، حتى أنه أمر بترحيلها عن البلاد، إن هي تزوجته. لكن الحملة التي شنتها السلطة على قادة حركة التمرد (وغاندي في طليعتهم) حالت دون تنفيذ تلك الأوامر.

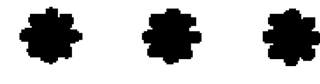
* * *

قبل الاسترسال في الكلام على حياة أنديرا العائلية، لا بد من لفتة إلى الخلفيات العلمية والتربوية التي تركت انطباعاتها في نفسها وفكرها.

لقد تأثرت كثيراً بشخصية أبيها، وبحركة القائد الكبير غاندي، وقرأت شاعر الهند العظيم طاغور وتغلغلت قصائده إلى صميم أعماقها، لتمتزج بكل ما تغذت به روحها من تراث بلادها وحضارتها. كذلك تركت شخصية أمها، بعض التأثر في نفسها، لكن المرض تغلب على الأم، فنقلت إلى سويسرا للمعالجة، وكانت أنديرا رفيقتها الدائمة، واغتنمت فرصة وجودها في أوروبا لتتابع دراستها العليا. ولما توفيت الأم، متأثرة بدائها العضال، انتقلت الإبنة مع مربيتها أو «ملاكها الحارس» أغاثا هاريسون لتتابع دراستها في معهد سمرفيل في أوكسفورد. وهنا، شاءت الصدفة أن تلتقي الشاب الذي صادفته من قبل في

إحدى تظاهرات العصيان المدني، في الله آباد.

كان فيروز غاندي طالب اقتصاد، وسبق أن ذكرت أنه لا يمتّ بأية صلة إلى المهاتما. كما أنه لا ينتمي إلى مـذهب آل نهرو، فهو مَزدكي من أتباع زرادشت. لكن أنديرا اختارته رفيق الدراسة، والحبيب الذي اتفقت معه سراً على الزواج مهما كان الثمن. ونفـذت رغبتها في ٢٦ آذار من سنـة ١٩٤١ ضد رأي العـائلة والأقارب. لكن نهرو لم يشأ أن يقف مـوقفاً سلبياً من الابنة الغـالية عـلى قلبه، فحاك بيده الساري(وهو الثوب التقليدي الذي ترتديه نسـاء الهند) وصنعـه من قماش القطن الوردي. وكان وجه الأم غائباً عن المناسبـة، إذ رحلت قبل ذلـك التاريخ بسبع سنوات.



حين فقد نهرو زوجته، وجد في ابنته الكثير من العزاء، وحلّت أنديرا مكان أمها في مرافقة أبيها، والسهر على راحته، والعمل معـه في أدق الأمور. ولم تلبث أن أصبحت حافظة أسراره، ومستشارته في كثير من القضايا. وكانت تجربتها هذه مصدراً للثقة بالنفس، ومنهلاً للمعرفة، ومواجهة التجارب الحياتية والسياسية. وخصوصاً مواجهة الأزمـات والمصاعب، والضغط السيـاسي إلى حد السجن.

لقد أنفق نهرو، تسع سنوات في السجون، وعـلى فترات متقـطعة، وكـانت أنديرا تنتقل بين القصر والسجن. وتتراكم تناقضات التجربة، في ذاتها وتبني عالمَاداخلياً صلباً، منيعاً.

وكانت لها التجربة مدرسة جديدة تختلف عن الجامعات والمعاهد التي سبق أن نهلت منها العلم والمعرفة، فهنا، الحياة تشرع لها أبوابها، والحقيقة، تواجهها بكل قسوتها.

وكتبتْ في مذكراتها، عن تلك المرحلة:

«علمني السجن كم من الظلم والاجحاف، يرتكب بحق الإنسان. وصرت أقـدّر معنى الحريـة، خصوصـاً عندمـا اختبرت العيش، أيـامـاً طـويلة، داخـل الزنزانات المرطبة والمظلمـة، حيث كنا نحشر كقـطعان المـاشية... صحيـح أن تلك المرحلة انقضت، لكن الآثار الباقية في نفسي، تشبه الحفر العميقة والجراح المفتوحة».

ومن السجن، أيضـاً خـرجت رسـائـل والـدهـا الشهيـرة، والمجمـوعـة في مجلدين، ويقدم لها بعبارة يعتذر فيها من ابنته، لاضطراره أن يخاطبها بلغة، غير لغتها القومية.

ومن رسـائل نهرو الإنسـانيـة، تعلمت الابنـة دروسـاً كثيـرة في السيـاسـة، والحياة، والتعامل مع الآخرين، وفلسفة الحكم.

كما اغنت صباها، رفقتها الدائمة لهـذا الأب النبيل، الـذي وجد في الابنـة الرفيقة الفكرية والروحية، وغرسة الغد التي أعدها لتحمل المسؤولية الكبرى.

كـانت أنديـرا دائمة الحضـور في مجلس والـدهـا، عـلى المـائـدة، في ولائم السياسيين، والـرؤساء، تصغي إلى المنـاقشات، وتشتـرك فيها. ولا شـك في أن هذا التمرس الباكر كان أكبر عون لها، في فهم ما يجري في الكـواليس والمحافـل السياسية الدولية.

كذلك كانت ترافق والـدها في معـظم الرحـلات والزيـارات الرسميـة التي يقوم بها. وهذا ما فتح أمامها باب الفهم، للشعوب القريبـة والبعيدة، وجعلهـا تقدّر قيمة الهند، ومكانتها في الأسرة الدولية.

والذي سمح لأنديرا بحـرية التنقـل والحركـة، انفصالهـا عن زوجها، بعـد مرور خمس سنوات فقط، على الزواج الـذي اختارتـه، بكامـل إرادتها. وكـانت ثمـرة زواجهما ولـدان: راجيف ولد سنـة ١٩٤٤ وسانجـاي ولـد سنـة ١٩٤٦. وبعدما تمّت مراسم الطلاق، انتقلت مـع ولديهـا، لتقيم نهائياً في قصر والـدها، وقد أصبحت رئيسة التشريفات فيه.

ولم يكن الزوج فاشلاً، إذ تابع حياته السياسية، وانتخب عضواً في البرلمان سنة ١٩٥٢. وكان يعوض عن فشل زواجه من أنديرا، بإطلاق عبارات السخرية من أبيها. لكن فيروز لم يعمر طويلاً، إذ توفي إثر نوبة قلبية سنة ١٩٦٠.

* * *

بلغت أنديرا السن الأربعين دون أن تكون لها صنعة سياسية معينة. ويعتقد الكثيرون بأن مركز أبيها كان وراء بلوغها سدة رئاسة الوزراء بتلك السرعة.

ففي العام ١٩٦٤ أصيب نهرو بجلطة في الدماغ إثر إلقائه خطبة سياسية. وكانت الضربة صاعقة، وهوى بين ذراعي ابنته، التي لم تعد تبتعد عنه قيد شعرة. وبينما كان الأب يسيّر دفة الحكم من سريره، كانت أنديرا تغتنم الفرصة الذهبية التي تضعها في صميم المسؤولية. ولم تطل فترة المرض، إذ توفي نهرو في شهر أيار من تلك السنة، مخلفاً الابنة الوحيدة، والمسؤوليات الجسام.

ولم تقف ابنة نهرو فوق رأسه، تذرف الدموع، بل تصدت للمهمات الموكلة إليها، ورافقت الطائرة التي نثرت رماد والدها، فوق أرض بلاده، كما تقتضي التقاليد، ولما رجعت من رحلة الحزن تلك، بدأت تذرف الدموع.

* * *

طبعاً لم تتسلم فوراً، رئاسة الوزارة، بل بدأت وزيرة للإعلام في وزارة لال بهادور شاستري، خليفة أبيها. لكن الرئيس الجديد توفي فجأة، فطلب إلى أنديرا أن تتولى الرئاسة مؤقتاً ريثما يتوصل أعضاء حزب «المؤتمر» إلى اتفاق.

كان عمرها آنذاك خمسين سنة. خبرتها السياسية محدودة. لكنها لم تلبث أن أصبحت قائدة الملايين، وربما بالصدفة.. أم أنه القدر؟...

* * *

تقول في بعض تصريحاتها: «بدأت عملي بعقلية ربة البيت، حيثما تصادف

شيئاً قذراً أو غير مرتب تنظفه أو تنظمه».

لكن اتباعها فوجئوا بها تنقلب إلى «مقاتلة» شرسة، وراحت تضرب بأسلوب ذكي، ولبق. وتناور، وتقاوم خصومها، وتناهض مناوئيها، ولا ترضخ للمساومات.

سنة ١٩٧١ واجهت حرباً أهلية جعلت الاقتصاد الهندي يتراجع، فلجأت إلى أسلوب الرجال في الحكم.

لكنها، سقطت، كذلك، مثلما يسقط الرجال في الحكم عام ١٩٧٥ حين اتهمتها المحكمة، في الله آباد، باستخدام السلطة للأغراض الشخصية. وكان الحكم الصادر بحقها يمنعها من ترشيح نفسها. كما أبعدت عن تحمل المسؤولية طيلة ستة أعوام. وفي هذه الحالة، كان المفروض أن تستقيل، لكنها فاجأت الجميع بإعلان حالة طوارىء في البلاد، واعتقلت الشرطة عدداً كبيراً من مناوئيها يقرب من الخمسين ألف شخص.

ومن أقوالها في تلك الحقبة: «ان المريض يحتاج أحياناً إلى جرعات من الدواء المر، كي يشفى».

لكن ذلك لم يمنع فشلها في انتخابات ١٩٧٧، واعتقلت بتهمة فساد السلطة. ثم أفرج عنها. وفي السنة التالية أعتقلت، ثم أفرج عنها، لكن خلافاً دبّ بين مناوئيها، فعادت مجدداً إلى السلطة اثر انتخابات ١٩٨٠ التي كرّستها بطلة.

* * *

من ألقاب أنديرا «السيدة» و «الأم». وأنديرا عاشت أمومتها في طفولة ولديها. وركزت اهتمامها على تربية راجيف وسانجاي، ورعايتهما رعاية تامة، تعويضاً لهما عن فراق الأب، وعن قلق عرفته هي أيام طفولتها.

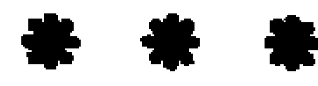
وكانت، برغم مشاغلها السياسية، تصر على الاهتمام بهما بنفسها، وهي

مؤمنة بأن الإنسان يستمر في أولاده، كما يتصل، عبرهم، بالجذور البعيدة.

لكن القدر الظالم أبى إلا أن ينغص قلب الأم الكبير، حين فجعها بمصرع سانجاي في حادث طائرة عام ١٩٨٠. وكان هو المتقدم بين الأخوين، لتسلم مقاليد الحكم بعدها.

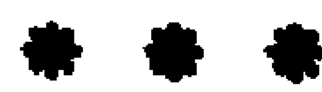
في تلك الفترة العصيبة، تركزت أنظار العالم على الأم المفجوعة، وتوقع أعداؤها أن تكون وفاة إبنها، وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، الضربة التي تقصم ظهرها، وتفقدها التوازن.

لكن المرأة التي رضعت الصلابة والصمود من ضرع الهند ـ الأم ـ تمكنت من التغلب على تلك التجربة القاسية وتابعت أعمالها الكبيرة، ومهماتها الجليلة، برصانة وحكمة.



وحين سئلت، أنديرا عن المؤثرات التي لعبت دوراً أكبر في توجيه حياتها قالت، «هناك عدة مؤثرات، كما أن جهوداً كبيرة تضافرت وساعدتني كي أنجح . . .» وأين؟ في الهند، التي تحتاج إلى أعمال جبارة، بل خارقة كي تنهض.

ففي المدرسة تعلمت باكراً كيف تقرأ التاريخ، خصوصاً تاريخ الأشخاص الذين أحدثوا تحولات جذرية في بلادهم. توقفت طويلاً عند غاريبالدي إيطاليا وبوليفار أميركا الجنوبية، وجان دارك البطلة المثال. كما تعلمت من غاندي الشجاعة في التعامل مع الحكام. والتسامح والتروي في حل المشكلات المعقدة واجتياز الأزمات الصعبة.



وإذا كان غاندي مؤسس استقلال الهند، ونهرو واضع ركيزتها الحضارية، فأنديرا تابعت نهجهما، وحاولت أن تدخل بلادها في عصر التكنولوجيا والعلوم

المتقدمة، أو كما قال عنها الأديب الفرنسي أندريه مالرو، إنها «نقلت بلادها من أجواء القرن التاسع عشر، إلى القرن الحادي والعشرين».

وهذا ليس سهلاً، حين يكون المرء (أو المرأة) حاكماً لبلد يبلغ عدد سكانه سبعمائة مليون نسمة بينهم ستمائة مليون جائع. لكن المرأة تقول: «ليس بالرز وحده تحيا الشعوب، بل بالكرامة».

وقد سعت من أجل أن تنال الهند، الكرامة، بل جعلتها في مقدمة الدول غير المنحازة مع بذل أقصى الجهد، كي تحل المشاكل الداخلية، التي تعصف من حين إلى حين، ويستغلها معارضو حكمها سوطاً يجلدونها به، ويدخلونها إلى السجن كما حصل في العام ١٩٧٧. وكانت تخرج منتصرة لتواجه شعبها بشجاعة، لتقول له وللعالم: «من لا يدرك عظمة الهند، لا يستطيع أن يحكمها».

ويقول الكاتب الفرنسي الذي قدّم لكتابها: «إنها رجل الهند الأقوى» و«إنها تخطت والدها في الحسم والشجاعة». كما لقبها آخرون: «المرأة الفولاذية» نسبة لصلابة مواقفها.

* * *

لكن ذلك كله لم يحل دون قيام مناوئيها بعدة محاولات لاغتيالها. وكانت المرة الأولى عام ١٩٦٧ في أوريسا وأثناء إلقائها إحدى خطبها، حين اندفع رجل من بين الجماهير ورشقها بحجر حطم أنفها، وشق شفتها السفلى، فردت الساري لتغطي الدم السائل، وبقيت ثابتة مكانها.

وهذا ما دفعها إلى القول: «يهاجمونني كثيراً، لكن ذلك لا يخيفني». وحين أطلق رجال حرسها، النار عليها، وهي خارجة من مكتبها، لتعبر الحديقة إلى حيث كان ينتظرها المخرج بيتر أوستينوف، ليعد فيلماً عنها، لم يظهر عليها الخوف، بل ارتسمت المفاجأة فوق تعابير وجهها.

وكان الوقت باكراً، الساعة التاسعة وثماني دقائق، بتوقيت نيودلهي، من نهار الأربعاء في ٧ تشرين الثاني، عام ١٩٨٤.

وبينما هرع الناس، ليرفعوا سيدة الهند الأولى، من تلك السقطة المميتة، كانت كلمات أثيرة لها، ترتفع فوق الرؤوس، لتسافر مع الرياح والغيوم، في جهات الأرض الأربع:

«لا تهمني الحياة الطويلة. لا أخشى تلك الأمور. لا يخيفني أن أبذل حياتي في خدمة هذا الوطن. إذا متّ اليوم، فإن كل قطرة من دمي سوف تجري لتنشط وتقوي بلدي».

المصادر والمراجع

نساء رائدات . . . من الشرق . . .

١ـ شميرام ـ ملكة بلاد النهرين الخالدة ـ ميخائيل أورو. المطبعة الكاثوليكية عام ١٩٥٨ .
- الموسوعة البريطانية .

٢ـ كليوباترة
- مسرحية أنتوني وكليوباترة ـ شكسبير.
- بلوتارك، مجموعة هارفارد الكلاسيكية .

٣ـ بلقيس
- سليمان وملكة سبأ، جانيس بريتشارد .
- التوراة .
- القرآن الكريم ـ سورة سبأ .
- تاريخ سوريا، المطران الدبس مجلد ٢ .

٤ـ زنوبيا
- نساء من التاريخ ـ منشورات الاتحاد العام النسائي . الجمهورية العربية السورية .
- النساء العربيات، كرم البستاني .

٥ـ الخنساء
- أنيس الجلساء في ديوان الخنساء .
- الخنساء ـ كرم البستاني ـ منشورات صادر .
- الخنساء، فؤاد أ. البستاني .

٦ـ ليلى الأخيلية
- شاعرات العرب في الجاهلية، بشير يموت .
- ديوان الأخيلية، جمع وتحقيق خليل العطية .

- المرأة في عالمي العرب والإسلام - رضا كحالة.

٧- أروى الصليحية - الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، تأليف حسين ابن فيض الله الهمداني.

٨- خولة بنت الأزور - النساء العربيات - كرم البستاني.

- خولة - قصيدة شبلي الملاط.

٩- ولّادة بنت المستكفي - نزهة الجلساء في شعر النساء، جلال الدين السيوطي.

- تاريخ العرب، ف. حتي

- النساء العربيات - كرم البستاني.

١٠- الست نسب التنوخية - أميرات لبنان، كرم البستاني.

- أحداث وأحاديث من لبنان - لحد خاطر (ج٢).

١١- وردة اليازجي - ديوان حديقة الورد - وردة اليازجي.

- وردة اليازجي - مي زيادة.

- أديبات لبنانيات - أملي ف. ابراهيم.

١٢- عائشة تيمور - عائشة تيمور - مي زيادة.

- الدر المنثور - زينب فواز

١٣- زينب فواز - أديبات لبنانيات - أملي ف. إبراهيم.

- مجلة الرائدة - معهد الدراسات النسائية في العالم العربي.

- المرأة في عالمي العرب والإسلام - عمر رضا كحالة.

١٤- أنس بركات باز - من حديث شخصي مع زوجها الأديب جرجي نقولا باز.

- صحيفة أوريان البيروتية.

١٥- هدى شعراوي - مذكرات هدى شعراوي.

- المرأة وأثرها في الحياة العربية - عبدالحميد فايد.

١٦- جوليا طعمة دمشقية - المرأة الجديدة من عام ١٩٢١-١٩٢٦.

- أديبات لبنانيات، أملي ف. إبراهيم.

- من حديث خاص مع كريمتها السيدة سلوى السعيد.

١٧- مي زيادة - باقات من حدائق مي - فاروق سعد.

- مي زيادة، التوهج والأفول - روز غريب.

١٨ـ **باحثة البادية** ـ باحثة البادية ـ مي زيادة.

١٩ـ **ماري عجمي** ـ نساء من التاريخ ـ كتاب خاص بحفلة تأبينها عام ١٩٤٨. الجمهورية العربية السورية.
- مجموعة مقالات ماري عجمي (مخطوطة).
- مقابلات مع صديقات عرفنها.

٢٠ـ **روز اليوسف** ـ مقابلة خاصة مع ابنها الكاتب إحسان عبدالقدوس.
- أرشيف روز اليوسف في دار الأهرام.
- ذكريات ـ فاطمة اليوسف.

٢١ـ **عنبرة سلام الخالدي** ـ جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين ـ عنبرة سلام الخالدي.
- مقابلة شخصية مع السيدة عنبرة.

٢٢ـ **د. سنية حبوب** ـ مقابلة شخصية مع د. سنية حبوب روت خلالها سيرتها.
- مقابلات مع زوجها الأستاذ محمد النقاش وكريمتها عفت النقاش.

٢٣ـ **فيجايا لاكشمي** ـ سيرة حياة فيجايا ـ أرشيف وكالة رويتر للأنباء.
- الموسوعة البريطانية (ج٧).
- مقابلة شخصية.

٢٤ـ **د. سلوى نصار** ـ مقابلة مع شقيقتها السيدة مرسيل فارس.
- مقابلة مع كاتبة سيرتها السيدة نجلا عقراوي.
- رائدات ـ د. ماري صبري.

٢٥ـ **أم كلثوم** ـ نساء متفوقات ـ سلمى الحفار الكزبري.
- مجلات وصحف: النهار ـ الأهرام ـ الأنوار ـ الشبكة.

٢٦ـ **أنديرا غاندي** ـ مذكرات أنديرا غاندي.
- أرشيف وكالة رويتر.
- مجلة تايم الأميركية ١٢ ك٢ ١٩٨٤.

فهرس

صورة الغلاف: بريشة مها نصر الله



نساء رائدات

مِنَ الشرق ومِنَ الغرب

(١)

تُغمس املي نصرالله قلمها في نُسغ الحياة، وتُسطّر لنا قصصاً، لا من وحي الفن وإبداع الخيال، بل من صنعِ الواقع والتاريخ.

النساء اللواتي اختارهنّ قلمها في هذا العمل الموسوعي، بجزأيه، لهنّ خطىً فاعلة، لا في مسيرة المرأة وحسب، بل وفي التقدّم الحضاري والبناء الإنساني.

وإنّ أدب السيرة والتوثيق الذي يحافظ على رصانته في فصول كتابها، يرتدي الطابع الفنّي الذي تميّز فيه أسلوبها الروائي والقصصي.

يُضاف إلى كلّ ما ذكرنا مقدرة الكاتبة على التوغل في عوالم الرائدات، بكثير من العمق والشمولية وصفاء الرؤية.